هُوَ العَلِيم

الجزء الثاني

تأليف سماحة العلامة الراحل

آية الله الحاج السيد محمد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسية

تعريب:

عباس جواد الصافي

دار المحجة البيضاء

بسم الله الرحمن الرحیم

الفهرس

فهرس مطالب وموضوعات

معرفة الله

الجزء الثاني

المطالب **الصفحات**

البحث الثالث عشر إلى الخامس عشر :

إنّ منكري لقاء الله هم الأخسرون

الصفحة ٣ إلى الصفحة ٧٤

يشمل المطالب التالية :

تفسير العلاّمة الطباطبائيّ لآية : **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا** ٥

تفسير العلاّمة ؛ إنكار لقاء الله يسبّب حبط أعمال المنكرين ٧

النكات البليغة الواردة في الآية بياناً لمراميها ٩

الآيات القرآنيّة دالّة على إفلاس منكري لقاء الله وبؤسهم ١١

تفسير آية : **مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَولِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ** ١٣

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ... أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ١٥

الكفّار غارقون في ظلمات ثلاث : الخيال والوهم ، والعقل ، والذات ١٧

تمثيل الملاّ الروميّ مضاجعة السعلاة وصيد الصيّاد لظلّ الطائر ١٩

وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ٢١

غزل الحكيم السبزواريّ في عظمة مقام الوصول إلى لقاء الله ٢٣

المطالب	الصفحات
مقولة الحكيم الفيض الكاشانيّ في إمكان لقاء الله ومعرفته	٢٥
إنَّ اللَهَ تَجَلَّى لِعِبَادِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ رَأَوْهُ ، وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّجَلَّى لَهُمْ	٢٩
قصّة بحث السمكة عن الماء ،وسقوطها على الشاطئ	٣٣
الكلام القيّم لآية الله الملكيّ التبريزيّ في رسالة «لقاء الله»	٣٥
استشهاد الحاجّ الميرزا جواد آقا بفقرات الآيات والأدعية على لقاء الله	٣٧
رواية «**إنَّ اللَهَ خَلَقَ اسْماً بِالحُرُوفِ غَيْرَ مُصَوَّتٍ**»	٤١
الرسول الأكرم هو الحجاب الأقرب وحقيقة الاسم الأعظم	٤٣
التنزيه المحض للّه تعالى لا يستلزم تعطيله ونفيه	٤٥
جميع أسماء الله عزّ وجلّ هي حقائق كونيّة ، وهي مخلوقة	٤٧
إنكار لقاء الله الباعث على التنزيه المحض ، يوجب الكفر	٤٩
من عبر الحجب الظلمانيّة رأى أنّ النفس هي من المجرّدات	٥١
مطالب «الكافي» و«مصباح الشريعة» في علوّ مقام العرفاء	٥٣
ظهور روح حجب الروح الإنسانيّة بواسطة تعلّقها بالبدن	٥٥
تفسير الرؤية واللقاء بخلاف النصّ كان من أجل السائل	٥٧
الرواية المعراجيّة المصدّرة بـ «يا أحمد» حسب رواية «الوافي»	٥٩
روايات نظر المؤمن إلى نور الله ووجه الله تعالى	٦٣
قول الإمام : **كَأَنَّنِي سَمِعْتُهَا مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى المُكَاشَفَةِ وَالعِيَانِ**	٦٥
بيان أقسام المكاشفات نقلاً عن «نفائس الفنون»	٦٧
دار الآخرة دار الحيوان ،كأنّها حياة تغلي وتفور	٦٩
وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ	٧٣

البحث السادس عشر إلى الثامن عشر :

إنّ الطرق المختلفة في معرفة الله غير طريق لقاء الله كلّها معوّجة ومظلمة

الصفحة ٧٧ إلى الصفحة ١٤٧

المطالب | الصفحات

يشمل المطالب التالية :

تفسير العلّامة الطباطبائيّ للآيات الثلاث في سورة يونس في لقاء الله ٧٩
كلام العلّامة : المعاد قائم على برهانين : سنّة الخلقة والعدل الإلهي ٨١
أساس الدين والشريعة ينهار بإنكار لقاء الله عزّ وجلّ ٨٣
شأن ومنزلة أولياء الله تعالى وإفاضة الله عليهم ٨٥
مقتطفات من تفسير «الميزان» بشأن آيات يونس في أمر لقاء الله ٨٧
بيان : **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ! أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** ٨٩
اعرفوا الله بالله ٩٣
كلام أمير المؤمنين عليه السلام : **لَمْ أَكُ بِالَّذِي أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ** ٩٥
خطبة أمير المؤمنين في وصف الله تعالى في جواب ذعلب ٩٧
أبيات الملّا الروميّ في عظمة لقاء أمير المؤمنين للّه تعالى ١٠٣
عظمة المقام التوحيديّ لأمير المؤمنين عليه السلام ١٠٧
«لأنّك باب مدينة العلم ، ولأنّك شعاع من شمس الحلم» ١١١
تصريح «مولانا» بعدم إمكان الوصول بدون شيخ وأُستاذ ١١٣
رواية «كفاية الأثر» في لزوم لقاء الله تعالى برؤية القلب ١١٥
أبيات الشيخ محمود الشبستريّ في حتميّة رؤية الله بالله تعالى ١١٧
شرح الشيخ محمّد اللاهيجيّ لأبيات الشبستريّ في «گلستان راز» ١١٩
فَسُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لِذَاتِهِ خِفَاءٌ إِلَّا الظُّهُورُ ، وَلَا لِوَجْهِهِ حِجَابٌ إِلَّا النُّورُ ١٢٣
كلمات بعض العلماء الأعلام في العجز عن إدراك نهاية التوحيد ١٢٥
مرحى بالجاهل الذي يبحث عن الشمس الساطعة ... ١٢٩
إدراك التوحيد الحقيقيّ لا يتيسّر إلّا بالكشف والشهود ١٣١
ثلاثة مقاطع من شعر الشيخ إبراهيم العراقيّ ١٣٣
تائيّة ابن الفارض المصريّ في حال الفناء التامّ للسالك ١٣٧
ثمرات توضيح ابن الفارض لكيفيّة رؤية الله وعرفان الإنسان الكامل ١٤٥

المطالب الصفحات

البحثان التاسع عشر والعشرون :

إنّ منطق القرآن هو جعل أيّ نوع من الوجود وآثار الوجود مقتصراً على الله

الصفحة ١٥١ إلى الصفحة ١٨٤

يشمل المطالب التالية :

حول آية : **وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ** ١٥٣

تفسير العلّامة الطباطبائيّ للآيات الواردة في نفي التثليث ١٥٥

«الميزان» : كلام في معنى التوحيد في القرآن ١٦٧

بيان سماحة العلّامة في شرح الوحدة العدديّة وكيفيّتها ١٧١

العلّامة : القرآن يصرّح بأنّ وحدة الحقّ تعالى هي وحدة بالصرافة ١٧٣

بحث تأريخيّ لسماحة العلّامة في الاعتقاد بالصانع وتوحيده ١٧٧

شرح العلّامة قدّس سرّه لحقيقة معنى الوحدة بالصرافة ١٧٩

صِرفُ الوجود الذي لا أتمّ منه ، كلّما فرضتَه ثانياً فإذا نظرت إليه فإذاً هو هو ١٨١

صرف الوجود ينفي كلّ غيريّة سواه ١٨٣

البحث الحادي والعشرون إلى الرابع والعشرين :

إنّ معنى تشخّص الوجود : لَا هُوَ إِلَّا هُوَ

الصفحة ١٨٧ إلى الصفحة ٢٣٧

يشمل المطالب التالية :

«خير» : هو المنتخَب والمختار ، وهو صفة مُشبَّهة وليس فعل تفضيل ١٨٩

تفسير العلّامة لآية : **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ١٩١

تفسير العلّامة لآية : **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** ١٩٣

ردّ «الميزان» على تفسيرَي «الكشّاف» و«البيضاويّ» ١٩٥

أصبحت صبغة التوحيد في الوجود بصورة برهان بظهور محيي الدين ١٩٧

رسالة عبد الرزّاق الكاشيّ إلى علاء الدولة السمنانيّ في وحدة الوجود ٢٠١

المطالب	الصفحات
استدلال الكاشيّ على وحدة الوجود بكلام الأئمّة عليهم السلام	٢٠٣
ساقي الكوثر : الحقيقةُ كشفُ سُبُحات الجلال من غير إشارة	٢٠٥
استدلال متين للملّا عبد الرزّاق على وحدة الحقّ تعالى	٢٠٧
جواب علاء الدولة الحادّ للملّا عبد الرزّاق الكاشيّ	٢١١
إجابة علاء الدولة واهية بلا أساس ، ولا تعدو كونها مغالطة	٢١٣
علاء الدولة لم يُدرك حقيقة وحدة الذات	٢١٥
لو عدّ النصارى التثليث أمراً اعتباريّاً ، لكانوا موحّدين	٢١٧
بقاء العين الثابتة أو عدم بقائها عند الفناء في كتاب «الشمس الساطعة»	٢٢١
نزاع العلَمَين : السيّد أحمد الكربلائيّ والشيخ محمّد حسين الإصفهانيّ	٢٢٥
الحاجّ الشيخ يقرّ بكلام الحاجّ السيّد أحمد بعد ارتحال الأخير	٢٢٩
استدلال الملكيّ التبريزيّ على وحدة الوجود بـ «برهان الصدّيقين»	٢٣١
أبيات الصاحب بن عبّاد : ❊ **رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ** ❊	٢٣٥
أبيات للحكيم الكمبانيّ في «تحفة الحكيم» في الحقيقة المحمّديّة	٢٣٧

الرسالة الملحقة :

الردّ على كتاب «الأخبار الدخيلة» فيما يخصّ التوقيع الوارد في شهر رجب

الصفحة ٢٤١ إلى الصفحة ٢٥٨

يشمل المطالب التالية :

إشكالات صاحب كتاب «الأخبار الدخيلة» على التوقيع الوارد في رجب	٢٤٣
سيرة علماء الشيعة في باب الأدعية والزيارات كانت في حفظها وقراءتها	٢٤٥
جميع الموجودات مدعاة لظهور الحقّ ، وهي كلماته تعالى	٢٤٩
استقامة الدعاء بلحاظ اللفظ والمعنى	٢٥١
النظر الاستقلاليّ إلى الموجودات شرك ومجانبة للصواب	٢٥٣
الفقدان بمعنى الفناء والعدم ، لا الغيبة وعدم الصحبة	٢٥٥

المطالب	الصفحات
الإجابة على الإشكالات الثلاثة الأخيرة في أمر الدعاء	٢٥٧
فهرس تأليفات المؤلّف	٢٦١

البحث الثالث عشر إلى الخامس عشر

إِنَّ مُنكِرِي لِقَاءِ اللهِ هُمُ الأَخسَرُونَ

وتفسير الآية المباركة

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ
الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ
وَزْنًا ۝ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمَ

بِسْـم اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحيم

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قَالَ اللَهُ الحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ :

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۞ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ۞ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَـٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا.[1]

يقول أُستاذِنا الأعظم آية الله على الإطلاق ، العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله تُربته في تفسيره للآية :

ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا :

قوله تعالى «الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعًا» إنباء بالأخسرين أعمالاً وهم الذين عرض في الآية السابقة على المشركين أن ينبّئهم بهم ويعرّفهم إيّاهم فعرّفهم بأنّهم الذين ضلّ

١ـ الآيات ١٠٣ إلى ١٠٦ ، من السورة ١٨ : الكهف .

سعيهم في الحياة الدنيا ، وضلال السعي خسران ، ثمّ عقبه بقوله : «وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا» وبذلك تمّ كونهم أخسرين .

بيان ذلك : أنّ الخسران والخسار في المكاسب والمساعي المأخوذة لغاية الاسترباح إنّما يتحقّق إذا لم يصبّ الكسب والسعي غرضه وانتهى إلى نقص في رأس المال أو ضيعة السعي وهو المعبّر عنه في الآية **بضلال السعي** ،كأنّه ضلّ الطريق فانتهى به السير إلى خلاف غرضه . والإنسان ربّما يخسر في كسبه وسعيه لعدم تدرّب في العمل أو جهل بالطريق أو لعوامل أُخر اتّفاقيّة وهي خسران يرجى زواله ، فإنّ المرجو أن يتنبّه به صاحبه ثمّ يستأنف العمل فيتدارك ما ضاع منه ويقضي ما فات ، وربّما يخسر وهو يذعن بأنّه يربح ، ويتضرّر وهو يعتقد أنّه ينتفع لا يرى غير ذلك ، وهو أشدّ الخسران لا رجاء لزواله .

ثمّ الإنسان في حياته الدنيا لا شأن له إلّا السعي لسعادته ولا همّ له فيما وراء ذلك ، فإن ركب طريق الحقّ وأصاب الغرض وهو حقّ السعادة فهو ، وإن أخطأ الطريق وهو لا يعلم بخطأه فهو خاسر سعياً لكنّه مرجوّ النجاة ، وإن أخطأ الطريق وأصاب غير الحقّ وسكن إليه فصار كلما لاح له لائح من الحقّ ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزيّنت له ما هو فيه من الاستكبار وعصبيّة الجاهليّة ، فهو أخسر عملاً وأخيب سعياً ، لأنّه خسران لا يُرجى زواله ولا مطمع في أن يتبدّل يوماً سعادة ، وهو قوله تعالى في تفسير الأخسرين أعمالاً : **ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**.

وحسبانهم عملهم حسناً مع ظهور الحقّ وتبيّن بطلان أعمالهم لهم إنّما هو من جهة انجذاب نفوسهم إلى زينات الدنيا وزخارفها وانغمارهم في الشهوات ، فيحبسهم ذلك عن الميل إلى اتّباع الحقّ والإصغاء إلى داعي

الحقّ ومنادي الفطرة ؛ قال تعالى : **وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ**؛[1] وقال : **وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ**.[2] فاتّباعهم هوى أنفسهم ومضيهم على ما هم عليه من الإعراض عن الحقّ عناداً واستكباراً والانغمار في شهوات النفس ليس إلّا رضى منهم بما هم عليه واستحساناً منهم لصنعهم .

وأمّا بشأن تفسير الآية : **أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ**، فيقول :

تعريف ثان وتفسير بعد تفسير **ٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا** ، والمراد بالآيات ـ على ما يقتضيه إطلاق الكلمة ـ آياته تعالى في الآفاق والأنفس وما يأتي به الأنبياء والرسل من المعجزات لتأييد رسالتهم ، فالكفر بالآيات كفر بالنبوّة ، على أن النبيّ نفسه من الآيات ، والمراد بلقاء الله الرجوع إليه وهوالمعاد .

فآل تعريف **ٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا** إلى أنّهم المنكرون للنبوّة والمعاد ، وهذا من خواصّ الوثنيّين .

قوله تعالى : **فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا** ، وجه حبط أعمالهم أنّهم لا يعملون عملاً لوجه الله ولا يريدون ثواب الدار الآخرة وسعادة حياتها ولا أنّ الباعث لهم على العمل ذكر يوم الحساب ، وقد مرّ كلام في الحبط في مباحث الأعمال في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

وقوله : **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا** تفريع على حبط أعمالهم

١ـ الآية ١٤ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢ـ الآية ٢٠٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

والوزن يوم القيامة بثقل الحسنات على ما يدلّ عليه قوله تعالى : **وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ** ،[1] وإذ لا حسنة للحبط فلا ثقل فلا وزن .

وفيما يخصّ تفسير الآية : **ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا**، قال :

الإشارة إلى ما أورده من وصفهم ، واسم الإشارة خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : **الأمر ذلك** ، أي حالهم ما وصفناه وهوتأكيد . وقوله : **جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ** كلام مستأنف ينبئ عن عاقبة أمرهم . وقوله : **بِمَا كَفَرُوا وَٱتَّخَذُوا ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا** في معنى **بما كفروا وازدادوا كفراً باستهزاء آياتي ورسلي**.[2]

وعلى العموم ، تشير الآية الكريمة بوضوح صريح إلى العذاب والثبور الشديدين اللذين ينتظران أُولئك الذين ينكرون لقاء الله ، فطبقاً للقواعد العقليّة والأدلّة الشرعيّة ، لا يوجد هناك كسر وإنكسار بين الأعمال السيّئة والأعمال الحسنة ، وكما ذكرنا في سلسلة «معرفة المعاد» ، ففي يوم القيامة ، حين يُحشر الخلق وتُعرض أعمالهم أمام البارئ جلّ شأنه وتعالى مجده ، فإنّ هذه الأعمال تكون محفوظة حيث لا تُغادر صغيرة ولاكبيرة ، وحيث تُجزى كلّ نفس بماكسبت ، ولا تُحبط الأعمال إلّا في مواضع معيّنة ، وذلك بالنصّ الصريح للآيات القرآنيّة ، أي بمعنى أن تمحى الأعمال الحسنة للإنسان في الدنيا وتُعدم ، وتكون الذنوب من الشدّة بحيث

١ـ الآيتان ٨ و٩ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١٣ ، ص ٣٩٨ إلى ص ٤٠١ .

تحرق كلّ الحسنات ، وأحد هذه المواضع ، هوموضع الشرك بالله ، وإنكار آياته ولقائه ، فلا يبقى لهؤلاء عمل يُرجى ولا يُقام لهم وزنٌ ، حيث إنّ للعمل الصالح وزن وثِقل ، والعمل السيّئ أجوف ، وهوهباء منثور .

وكما بيّن أُستاذنا العلّامة ، فإنّ هاتين الآيتين هما في تبيان حال منكري الرسل ويوم المعاد ، حيث يتحقّق اللقاء بالله ، ولكن في هذه الآية ، اقترنَ إنكار المعاد مع مسألة الكفر بلِقاء الله ، ويستفاد من ذلك أنّه مع كون معنى لقاء الله قد ورد في هذه الآية بصفة عامّة ، وأنّ جريان المعاني القرآنيّة هو جريان الشمس والقمر ، فإنّ كل من يكفر بآيات الله ولقائه ، بأيّ شكل أو صورة كانت . فهوينضوي تحت حكم هذه الآية ، وسيشمله حبط العمل وعدم إقامة وزن له .

وقد جاء بيان ووصف المنكرين لله وللقائه بعبارات بليغة وأمثلة محيّرة ومضامين فلسفيّة وبرهانيّة عجيبة وإيراد شواهد واقعيّة وعرفانيّة ، وهذا البيان كان واضحاً لدرجة تزيد في إيمان المؤمنين وفي كفر الكافرين على حدّ سواء .

انظر إلى هذه الآيات الأخيرة ،كيف تقوم بإيصال هذه الحقيقة بلهجة وخطاب يقرعان القلوب وبأُسلوب أدبيّ رفيع ، وفصاحة وبلاغة شديدتين .

أوّلاً : فهو يأمر نبيّه بكلمة **قُلْ** ليقوم بإبلاغ هذا الأمر الخطير بهذه الكيفيّة .

ثانياً : بكلمة الاستفهام **هَلْ** وكأنّ خطورة وثِقَل هذا الأمر هي من الجدّيّة بحيث إنّ تفهيمه للمخاطب يحتاج إلى إذن للشروع فيه .

ثالثاً : اختيار **نُنَبِّئُكُمْ** بصيغة الجمع من لدن مقام العزّة الإلهيّة ، واستعمال **إنباء** بدلاً من ألفاظ الإخبار والإعلام المستعملة في الصياغة

البلاغيّة .

رابعاً : اختيار كلمة **ٱلْأَخْسَرِينَ** ، وكأنّه لا يوجد أحد أكثر تضرّراً ولا خسارة من هؤلاء .

خامساً : ذكر كلمة الأعمال لصفة الأخسر على نحوٍ يُفهم فيه الناس ، بأنّ أعمال الإنسان ، وإن كانت تبدوكالجبل من جهة الوجاهة والرياء والخداع ، إلّا أنّ قيمتها عند الله صفر ، ولا وزن لها ، من حيث إنّه لا يؤمن بلقاء الله وزيارته .

سادساً : تشبيه هذه المجموعة بعبارة **ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ** ، أي أنّ جهودهم ومحاولاتهم وعلومهم وكنوزهم ونصيبهم من الدنيا وحظّهم الوافر من المال والبنون وما إلى ذلك ، لا ينفعهم مثقال ذرّة ، لأنّهم أنكروا أصل الوجود ، ومعدن الجود ولبّ الحقيقة ، وهي لقاء الله ، وركضوا وراء لقاء غيره من المخلوقات الفانية وربطوا قلوبهم برموز العدم والبطلان .

سابعاً : وقد ربط هذا الضلال بـ **فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ، أي في الدنيا الدنيّة الوضيعة ، وهي في مقابل **الحياة العليا** ، أي الحياة الأغلى والأعلى والأرفع .

واعلم أنّ الحياة الدنيا ، ليست هي العيش على سطح الأرض ، وفي أحضان الطبيعة ، ذلك أنّ هذه الحياة يشترك فيها جميع الناس والأنبياء والأئمّة ، ولكنّ المراد من ذلك هوالعيش على مستوى البهيميّة والوحشيّة والشيطنة ، حيث تظهر فيها أخلاق وصفات وأفعال البهائم والسباع والشياطين ، وأمّا الحياة الآخرة ، فهي تعني المستوى الأسمى للحياة ، وهي العيش على مستوى الإنسانيّة والكمال العقلانيّ والفطريّ ، وهو طريق وسنّة الأنبياء والمرسلين والأئمّة المعصومين والأولياء المقرّبين إلى ساحة لقاء الله ، وأُمناء سرّ حَريم كِبرياء أحَديّته .

تلك هي أسوأ حياة ، وأقبح نمط معيشة ، والتي ورد ذكرها في القرآن

الكريم والروايات باسم **الحياة الدنيا**، وهذه هي أجمل وأسمى وأكرم حياة ونمط معيشة، والتي أُشير إليها **بالحياة العقبى والحياة الأُخرى**، وتكمن في بطن هذه الحياة الدنيا.

وعلى هذا، فإنّ هذه الآية الكريمة تدلّ دلالة واضحة على أنّ منكري لقاء الله يعيشون في بيئة ملؤها الظلمات، وتكتنفها الأدران والتعفّنات الروحيّة والنفسيّة والخياليّة، وهي قطعاً أظلم العوالم.

ثامناً: استخدام عبارة **وَهُمْ يَحْسَبُونَ**، **والحسبان** يعني الظنّ والاعتقاد، في مقابل **يَعْلَمونَ** و**يَعْتَقِدُونَ** و**يَجْزِمون** ـ وأمثال ذلك من التعابير، وتشير كلمة الحسبان بوضوح إلى أنّ أعمال وأفعال منكري لقاء الله لا تتعدّى الظنّ والحدس والخيال، على مدى سنيّ عمرهم وإن تخلّلت تلك الأعمال، أعمالٌ مهمّة وحيويّة. وفي هذا الصدد، هناك الكثير من الآيات في الكتاب المبين التي تصرّح على أنّ أفعال أولياء الله فقط، التي تنجز على سبيل اليقين، وأمّا الآخرين، فلا تتجاوز أفعالهم إلى أبعد من الخيال والوهم والظنّ.

تاسعاً: عبارة **أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**، وتعني أنّ هذه المجموعة تعتقد بصواب أعمالها، وأنّ أفعالها تصطبغ بصبغة حسنة، وعلى هذا، فهم لا يحاولون معالجة أمراضهم النفسيّة، لأنّهم يجزمون بصحة أمزجتهم، واعتدال نفوسهم، وهكذا فهم يقيمون في هذا الوباء المُهلك، حتّى يفنون فيه، وإلّا، فإنّ العلم بالمرض، هوالخطوة الأُولى في مرحلة علاجه.

بـا مـدّعی مگـوئید اسـرار عشـق و مسـتی
تـا بـی‌خبر بـمیرد در درد خـودپرستی[1]

١ـ يقول: «لا تقولوا للمدّعي أوتكشفوا له أسرار الحُبّ والنشوة حتّى يموت في هَمّ أنانيّته».

عـاشق شـو ار نـه روزی کـار جـهان سـرآیـد
نـاخوانـده نـقش مـقصود از کـارگاه هسـتی
دوش آن صنم چه خوش گفت در مجلس مغانم
بـا کـافران چـه کـارت گـر بت نـمی‌پرستی
سـلطان مـن خـدا را زلفت شکست مـا را
تـا کـی کـند سـیاهی چـندین دراز دسـتی
در گـوشهٔ سـلامت مسـتور چـون تـوان بـود
تـا نـرگس تـوبا مـا گـوید رمـوز مسـتی
آن روز دیـده بـودم ایـن فـتنه‌ها کـه بـرخـاست
کـز سـرکشی زمـانی بـا مـا نـمی‌نشستی
عشقت به دست طـوفان خـواهـد سپرد **حـافظ**
چون برق ازین کشاکش پـنداشـتی کـه جسـتی[1]

عاشـراً : تفسـير ذلك بعبارة أُولَـٰئِكَ آلَّـذِينَ كَـفَـرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّـهِمْ

١ـ يقول : «اعشَقْ ، وإلّا فستنتهي مُدة العالَم يـوماً دون أن تُـدرك مُـرادك مِـن عـالَم الوجود.

وما أروع ما قاله ذلك الصنم البارحة : ما وجودك مع الكـفّار فـي مـجلس واحـد إن لم تَكن مِن عابدي الأصنام ؟

فبالله عليك يا مَليكي ، لقد قَلبت طُـرّتكَ السـوداء حالي ، فإلى متى هذا التـجـاوز منها ؟!

لوكان بالإمكان الركون بسلام في زاوية ما ، حتّى يُخبرنا نرجسك أسرار النشوة.

وقد رأيتُ اشتعال تلك الفتن ذلك اليوم إذ لم تَجلس معنا مرّة بسبب عِصيانك.

سيتمّ تسليم حُبّك يا **حافظ** إلى يد الطوفان لأنّك أحسستَ بالكارثة بسبب الغمّ والألم وحوادث الأيام».

«ديوان حافظ» ص ٢٠٠ ، رقم ٤٣٨ ، طبعة بجمان ، سنة ١٣١٨.

وَلِقَائِهِ . وتصدير هذه الجملة أوّلاً ، مخاطبة النبيّ بأنّه هو موضع العناية الإلهيّة ، وليس أُولئك البعيدون ، غير الجديرين بالخطاب .

وثانياً ، الإشارة بالبعيد لا القريب ، مثل **هٰؤلاء** ، ذلك أنّ هذا التعبير يدلّ على فناء أُولئك وعدمهم ومهجوريّتهم ، وذلك بمخاطبتهم من مكان بعيد **أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**.[1]

فأُولئك الكفّار يُنادون من مكان بعيد ، ومن وراء حجاب ، لا من مكان قريب ،كما هوالحال في مخاطبة المقرّبين والأحبّة .

وثالثاً ، التوكيد المتكرّر ،كالبدء بجملة اسميّة : **أُولَـٰٓئِكَ** ، وكذلك استخدام المعرفة في خبر هذا المبتدأ : **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** ، والتي تفيد الحصر بمعنى أنّهم وحدهم الكافرون .

حادي عشر : استخدام الحبط والفناء بالنسبة للعمل ، والذي ينتج عن ذلك عدم اعتدال ميزان الأعمال في اليوم الآخر .

ثاني عشر : إيراد الجملة التعليليّة وبيان علّة ذلك العمل لجهنّم ، كعقاب وجزاء الأعمال ، وكذلك ، البدء بجملة اسميّة محذوفة المبتدأ : **وَٱلْأَمْرُ ذَٰلِكَ** ، ومخاطبة النبيّ بـ«الكاف» ، والإتيان بجملة اسميّة ثانويّة : **جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمَ** ، والتي تعني جملة استئنافيّة أوتفسيريّة لجملة **الأَمْرُ ذَٰلِكَ** .

ومن جملة تلك الآيات التي تحتوي على مثال خاصّ وتعبير رائع ، الآيات التالية :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ أَولِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

١ـ ذيل الآية ٤٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت : **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** .

إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ. وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ.[١]

ففي هذه الآيات ، يشبّه الله سبحانه وتعالى أُولئك الذين يتعاملون مع غير الله ، ويُنشئون علائق وروابط معهم ، ويتولّونهم ، ويُقيمون لهم سلطاناً وشأناً ، بالعنكبوت التي تُقيم بيتاً وتسكن فيه مشتاقة ومتربّصة بصيدها من ذباب وحشرات ، فأيّ عالم ذلك الذي تعيش فيه هذه العناكب .

فإذا عَلِقَت ذبابة أو حشرة بنسيجها في غفلة ، اندفعت العنكبوت نحوها وجعلت منها لقمة سائغة لها .

فهذه العنكبوت ، تظنّ أنّ بيتها أحكم البيوت ، وأنّ نسيجها الذي نسجته بلعابها أقوى القلاع ، ولا ترى شيئاً أقوى منه .

ولا يختصّ هذا المثال بنسيج العنكبوت وحده ، بل إنّ كلّ كائن في هذا العالم له مصيدته الخاصّة به ، والتي يسعى بواسطتها الحصول على صيده المفضّل .

كُلُّ مَنْ فِي الوُجُودِ يَطْلُبُ صَيْداً إِنَّمَا الاخْتِلَافُ فِي الشَّبَكَاتِ

وهذه العنكبوت تجهل أنّ بيتها المصنوع من لعابها ، وَهِن وضعيف ، وأنّ دارها مهدّدة بالفناء بمجرّد هبوب نسمة عليه ، أو نفخة من نَفَس الإنسان .

إلّا أنّ هذه العنكبوت ببنائها لذلك البيت وتلك المصيدة ، لم ترتكب سوءاً ، بل إنّها مجبولة على ذلك ، وفقاً لنظام تكوينها وغريزتها الطبيعيّة ، فهذا المخلوق بريء ، لأنّه يؤدّي ذلك حسب ما تمليه عليه طبيعته ، بدون زيادة .

١ـ الآيات ٤١ إلى ٤٣ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

أمّا الإنسان الذي يسير عكس مشيئة الله وفطرته هو، وضدّ طريق ومنهج الحقّ ، فيُنكر لقاء الله ، ويتّخذ من دونه أولياء ، سواء كانوا صُمّاً كالأصنام ، أوناطقين كالمتجبّرين والمعتدين على حقوق الله والخلق ، ويُلزم نفسه طاعتهم وولايتهم ، مقترفاً كلّ ذلك عن علم منه بالخطيئة والمعصية ، ويضع الغشاوة على عينيه ، مع علمه بعدم ثبات ودوام هذه الولاية المتهرّئة والخياليّة . ويعجز عن رؤية الحقّ والحقيقة ، ويربط نفسه وحياته ومصيره وأبديّته الإنسانيّة ـ وهو أفضل وأشرف المخلوقات ـ بخيوط وهنة من لعاب وأفكار نفسانيّة رديّة ومعتقدات شيطانيّة ليحسب المرء أنّ هذه الخيالات والأوهام والظنون التي لا أساس لها ، هي أفضل وأقوى وأمتن ما موجود في عالم الوجود ، حتّى تهبّ ريح تذهب بما بناه ، وتحيل حياته وعيشه إلى خراب وكأنّ شيئاً لم يكن **كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ**.[1]

* ناگهان بانگی برآمد خواجه مُرد *[2]

والآن ، ألا يشبه هذا التوكّل والاعتماد على غير الله ، واليأس من لقائه ، ضعف ووهن بيت العنكبوت التي ضرب بها المثل في هذه الآية ؟ ومضافاً إلى ذلك ، فهذه الآية تشير بوضوح إلى أنّ هذا النمط من الناس قد فقد عقله ، وخسر وجدانه ، فأعمى عينيه ، وأصمّ أذنيه ، وأفرغ قلبه من حبّ الله ، وأفرغ عقله من كلّ أمل بزيارة ورؤية المحبوب الحقيقيّ ، والرجوع إلى الموطن الأصليّ ، فلا عقل لهم يعقلون به ، ولا فكر لهم

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ١٠ : يونس : **إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**.

٢ـ يقول : «ثمّ جاءت الصيحةُ فجأةً ، فماتَ الخواجة (السيّد)» .

يفكّرون به ، وإلّا لما انتهجوا هذا الطريق المعوجّ والمنحرف .

وقد ذكر أعلام وأساطين الأدب أنّه لو وُضع حرف **لو** في بداية الجملة الشرطيّة ، لأفاد تعليق الجملة الجزائيّة بالجملة الشرطيّة في مقام الإثبات ، وكذلك امتناع تحقّق الجملة الشرطيّة ، فمثلاً لوقيل **لَوْ جَاءَ زَيْدٌ لَأَكْرَمْتُكَ** ، فهذه الجملة تفيد أوّلاً : في حال مجيء زيد يتحقّق الإكرام ، وثانياً ، تفيد أنّ زيداً لم يحضر بعد .

على العكس من (إن) الشرطيّة ، والتي تفيد الثبوت عند الثبوت ، والنفي عند النفي ، فمثلاً لوقيل **إنْ جَاءَ زَيْدٌ لَأَكْرَمْتُكَ** ، فإنّها تفيد ثبوت الإكرام عند مجيء زيد وعدم الإكرام عند عدم مجيئه ، ومن ناحية أُخرى ، فلا تفيد أنّ زيداً قد جاء فتمّ الإكرام ، أو أنّه لم يأت ، فلم يتحقّق ، فمفادها التعليق وحسب ، وأمّا في حالة استخدام **لو** ، ففي هذه الحال يتمّ الإشارة إلى تعليق الثبوت عند الثبوت ، ولا دخل لها بالنفي عند النفي ، إلّا أنّها تفيد أنّ زيد لم يأت بعد ، وأنّ الجملة الشرطيّة لم تتحقّق ، بل كانت ممتنعة الصدور .

وفي الآية ، موضوع البحث ، يقول الله سبحانه وتعالى : إنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت ، **لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ، ولكنّهم لا يعلمون ، وأنّ علمهم بذلك ممتنع التحقّق وعديم الصدور .

ويفيد هذا الأمر ، على أنّ هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ولقائه ، والذين اتّخذوا أولياء من دونه تعالى ، لا عقل لهم ولا علم .

واستطراداً للآية السابقة يقول سبحانه وتعالى : «إنّ الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم» ، ثمّ يقول تعالى بعد ذلك : «وتلك الأمثال (أيّها النبيّ) نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون» . ويستفاد من ذلك أيضاً أنّ مسألة اتّخاذ الولاية الإلهيّة هي متعلّقة بدرك الخاصّة من

الأولياء والذين أُشير إليهم هنا بعقل العالمين بالله ، وبعقل الأصفياء والمقرّبين والمخلصين .

ومن بين الآيات ذات التعبير والتمثيل العجيب قوله تعالى :

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ .

أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ .[1]

وقد ذكر أصحاب التفاسير : أنّ الله سبحانه ذكر مثالين لبيان أعمال الكافرين في هاتين الآيتين : الأوّل : السراب ، والثاني : الظلمات في بحر لجّيّ .

أمّا المثال : **الأوّل** : فهو عن أُولئك الذين يعتبرون أنّ أعمالهم حسنة ويحسبون أنّ أفعالهم مرضية ، وأنّها مستحسنة من قبل الناس ، وتستحقّ التمجيد ، إلّا أنّ أعمالهم تلك كلّها باطلة ، مثلها كمثل السراب ، وتتبيّن حقيقتها جليّة بعد انكشاف الحقّ .

الثاني : يخصّ أُولئك الذين يعتدون ، ويخرجون عن جادّة الحقّ ، عن علم منهم بذلك ويقين ، مدركين العاقبةَ الوخيمة لأعمالهم ومصرّين على جحود وإنكار ربّ العالمين ، والتكبّر إزائه فيحرفون الأمّة من خلال استقطابها .

وأيّاً كان الأمر ، فإنّ هذين المثالين مثيران للإعجاب ، فأمّا الأوّل ،

١ـ الآيتان ٣٩ و ٤٠ ، من السورة ٢٤ : النور .

وهو مثال السراب ، فإنّ الظمآن حين ينظر إلى السراب في الصحراء يحسبه ماءً ، فيمضي نحوه مسرعاً ، إلّا أنّ السراب يبتعد عنه كلّما دنا منه ، ذلك أنّ شرط رؤية السراب هو وجود مسافة معيّنة بين عين الناظر وذلك السراب ، فكلّما اقترب الناظر ابتعد السراب بنفس المسافة . وخلاصة القول فإذا افترضنا أنّ الصحراء واسعة جدّا ، فلو سار الناظر وراء السراب من الصباح حتّى المساء في بحثه عن الماء لظلّ السراب على نفس البعد عن الناظر ، واستمرّ تلألؤ ولمعان شعاع الشمس المنعكس عن الرمال ، والذي يتسبّب بظهور هذا السراب ، ولقضى الظمآن نهاره كلّه في ذلك عطشاناً حتّى تخور قواه ، ويلفظ أنفاسه .

وأعجب من ذلك مشهد البستان ذي الأشجار العالية الذي نراه في بعض الصحارى والفلوات ، التي لا تحمل إلّا أشواكاً كصحراء الجزيرة العربيّة المحرقة التي تغطّيها أشواك الغيلان ، إذ تبدو كأشجار باسقة عن بعيد ، وذلك بانعكاس ضوء الشمس عليها فيحسبها الناظر إليها بستاناً نضرة فيسعى جاهداً للوصول إليها ، فإذا به لا يرى إلّا أشواكاً .

فأمّا في المثال الثاني ، بما أنّ النور هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة أيّ علم أوحياة ، فلولا وجود النور لكان العالم عدم مطلق ، فالإنسان يحتاج إلى نور عود الثقاب في الليلة المظلمة ، فبدونه ، يتعثّر في الظلام ، ويهوي ساقطاً في حفرة ، أو يغوص في الطين ، أو قد يسقط من مرتفع ، ويقع في شَرَك حيوان مفترس ، أو بِيَد عدوٍّ لدود ، وهلمّ جرّاً .

فتأمّل في مدى فائدة هذا النور الضئيل له !

فما بالك في الأشدّ وهجاً ، وكذا في الأنوار الأخلاقيّة والصفاتيّة ، وكذلك ، الأنوار العقلانيّة والذاتيّة ، التي لوفقد الإنسان إحداها ، لصار كالأعمى ، فهو أعمى برغم امتلاكه لعينين ، فالعين تُبصر بالنور الحِسّيّ ،

وأمّا العقل والشهود ، فيُبصران بالنور العقلانيّ والشهوديّ .

إنّ المنكر للّه ولقائه ، والذي يرتكب كلّ ما يخالف السنن الأوّليّة والأُصول الفطريّة ، أعمى يغوص في طبقات الظلمات ، ويتيه في لجج المياه المضطربة لهوى النفس والتبعيّة للشيطان والنفس الأمّارة بالسوء وظلماتها العجيبة ، فلا بصيص نور يُرجى . فقد ورد في القرآن الكريم : أنّ هذا النوع من الكفّار ، غارق في ظلمات ثلاث :

الأُولى : ظلمة تشبه الليل . والثانية : ظلمة فوق الظلمة الأُولى ، كظلمة موج البحر العميق . والثالثة : ظلمة أُخرى ، وهي ظلمة الغيوم السوداء التي تغطّي وجه السماء .

فحلكة هذه الظلمات هي من الشدّة ، بحيث إنّه لا يرى شيئاً مطلقاً ، حتّى يده ، فهؤلاء الكافرون لا يهتدون بنور شرعيّ ، ولا نور عقليّ ولا شهوديّ ، ويسبحون في أعماق طبقات الظلمة والخيال والوهم ، بعيداً عن نور العقل والذات ، **وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ، والعياذ بالله . فما أروع تصوير الحكيم مولوي لهذا الضياع والابتعاد عن طريق الحقّ ، حيث يقول :

چون به حقّ بيدار نبود جان ما
هست بيداری چو دربندان ما
جان همه روز از لگدکوب خيال
و ز زيان و سود و از خوف زوال[1]

١ـ يقول : «إنّ روحنا ليست يقظة بالحقّ ، لذا أضحت صحوتنا كالسجن.
فالروح تتلقّى الرفسات يومياً من الخيال ومن خوف الزوال وحساب الربح والخسارة».

نـی صـفا مـی‌ماندش نـه لطـف و فـرّ
نـــی بـــه ســوی آســمان راه ســفر
خــفته آن بــاشد کـه او از هـر خـیال
دارد امّـــید و کـــند بـــا او مـــقال
نــی چــنانکه از خـیال آیـد بـه حـال
آن خــیالش گــردد او را صــد و بـال
دیورا چـون حـور بـیند او بـه خـواب
پس ز شــهوت ریــزد او بـا دیـو آب
چونکه تخم نسـل در شـوره بـریخت
او به خویش آمد خیال از وی گریخت
ضــعف ســر بــیند از آن و تـن پـلید
آه از آن نـــــقش پـــلید نـــاپدید
مـــرغ بـــر بـــالا پـــران و ســایه‌اش
می‌دود بـر خـاک و پـرّان مـرغ وش[1]

١ـ يقول : «فلا يبقى لها ثمّة لطف ولا صفاء ولا فرح ، ولا سبيل للسفر باتّجاه السماء.

إنّ النائم هوالذي يتعلّق بالأمل من كلّ خيال يخطر له ، فيكون قرين ذلك الأمل.

وحين يعود إلى وعيه وحاله الاولى بعد انقضاء الخيال ، فيرى ان ذلك الخيال قد جرّ عليه مائة وبال.

فهو يرى السعلاة في المنام كالحوريّة ، فيصبّ من فرط الشهوة منيّه.

وحين يريق بذور النسل في أرض بور جرداء ، يُفيق فيهرب منه خياله.

ويحسّ بالوهن والصداع ويرى بدنه قذراً ، فآهٍ من تلك الصورة النحسة المختفية.

إنّ الطائر يحلّق في الأعالي وظلّه يعدوعلى الأرض يتواثب كالطائر».

ابـــلهی صـــيّاد آن ســـايه شـــود
مـــی‌دود چـــندانکـــه بـــی‌مايه شـــود
بی‌خبر كان عكس آن مرغ هو است
بی‌خبر كه اصـل آن سـايه كـجاست
تـــير انـــدازد بـــه ســـوی ســـايه او
تـــركشش خـالی شـود در جسـتجو
تركش عمرش تهی شـد عـمر رفت
از دويـــدن در شكـــار ســـايه تـفت
ســـايهٔ يـــزدان چـــه بـاشد دايـه‌اش
وارهـــــاند از خـــــيال و ســـايه‌اش
ســـــايهٔ يـــزدان بـــود بـــندهٔ خـــدا
مـــردهٔ ايـــن عـــالم و زنـــدهٔ خـــدا[1]

وقد صوّر الشاعر في هذه الأبيات الغافلين عن ذكر الله ، والمبتعدين عن طـريقه ، والذيـن خسـرواكـلّ وجـودهم وحـياتهم رخـيصة ، وبـاءوا بخسران مبين ، فلم تعد لهم قدرة ولا علم ولا عمر .

١ـ يقول : «فيأتي أبله ليصيد ذلك الظلّ ، ويركض دونما نتيجة ونصيب.
غافلاً أنّه انعكاس للطائر المحلّق في الجوّ ، وجاهلاً أين أصل ذلك الظلّ .
فيصوّب سهامه إلى ظلّ الطائر ، فتفرغ كنانته في بحثه وتفتيشه.
ولقد انتهى رصيد عمره وولّى العمر وهو يتقلّى لاهثاً لاصطياد الظلّ .
ولو صار ظلُّ الله دليلَ امرىءٍ ، فإنّه يحرّره من الخيال والظلّ (ويقوده إلى الحـقيقة وصاحب الظلّ).
إنّ ظلّ الله هو عبد الله ، وهو الميّت في هذا العالم والحيّ عند الله تعالى».
«مثنوي معنوي» ج ١ ، ص ١١ ، طبعة آقا ميرزا المحموديّ .

كمن يحلم بسعلاة ظنّاً منه أنّها حوريّة فيجامعها ويريق نطفته الثمينة فيها وإذا به يستيقظ من النوم فيتعجّب ممّاكان يعشق ! فقدكانت تلك سعلاة على صورة وهيئة حوريّة فأراد أن يولد من ذلك الموجود الملكوتيّ والروحانيّ نسلاً طاهراً فواقعها وخسر نطفته ورأس ماله الغالي ، و أسفاً لأنّه بذر بذوره في أرض بور فلم يحصل على ثمرة ولا فائدة ، بل ألمّ به الضعف وطرأ عليه الوهن وأصابه الصداع وتدنّس بدنه وتنجّس .

أوكالصيّاد الذي طارد صيداً في الهواء وطائراً في السماء بقوسه وسهامه لكنّه بدل أن يصوّب عينيه نحو الأعلى ويصيد بسهمه الطائر الحقيقيّ ويهنأ بأكله ، فقدكان ينظر إلى الأرض ويصوّب سهمه إلى ظلّ الطائر الذي يتحرّك على الأرض بدل أن يصوّبه إلى نفس الطائر .

فهذا الصيّادكان يصوّب سهمه إلى الظلّ ، ولهذا السبب لم يستطع بلوغ هدفه ولا اصطياد ما اشتهى . فكان الظلّ الذي يشبه الطائر يتحرّك إلى الأمام باستمرار ، وكان الصيّاد يطلق السهم تلو الآخر على ظلّه حتّى أتى على كلّ سهامه ؛ ولم يستطع رغم ذلك اصطياد الطائر ، فتبيّن له أنّ الظلّ إنّما كان باطلاً وليست له حقيقة الطائر أو واقعيّته ؛ فضاع عمره وانتهى زمانه وعليه أن يهيّئ نفسه للهلاك في آخر النهار ، وذلك بسبب الجوع والظمأ والتعب والإرهاق والمشاكل التي واجهته أثناء عمليّة الصيد وملاحقته للفريسة وعدم حصوله عليها .

إنّ الله هو الحقّ ، وما دونه الباطل ؛ **فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**.[١]

فلا خيار ثالث بين الحقّ والباطل .

١ـ الآية ٣٢ ، من السورة ١٠ : يونس .

فإذا تخلّيتَ عن الملاك ، وقعت في شَـرَك الشـيطان ، وإن لم يـصب سهمك طائراً في السماء ، أصابك ، ولن يشفي غليلك أيّ منهم .

ومن جملة الآيات الكريمة العجيبة في هذا المجال :

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ.[1]

وتصوّر هذه الآية ذلك الذي يمدُّ يده إلى الماء ، ويـرمي أن يـغرف منه بكفٍّ مفتوحة ، فلا يرتوي منه ، ويظلّ ظمآناً .

ومن الآيات الأُخرى أيضاً :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَـوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ.[2]

أي أنّ هؤلاء المساكين يسعون إلى جمع المال في الدنيا والحـصول على الجاه والمقام ، والمال والبنين والعشيرة وتـحصيل العـلوم والمـعارف الخياليّة ، وغير ذلك من الأُمور التي يبغون من ورائها العزّة والطمأنينة فـي هذا العالم ، غافلين عن الله ، وكافرين بهذا الربّ الودود الواحد القـهّار ذي المجد والعظمة ، فإذا بالأجل يحيط بهم من كلّ جانب ، ويُرسل بهم إلى قعر القبر المظلم . فأين تلك العزّة والسلطان ، وأين ذلك الغرور والتكبّر ؟!

لقد صار الواحد منهم يسير صوب الموقف العظيم ، ويُحاسَب عـلى أعماله ، بيدين خاليتين كرماد تذروه الرياح فـي يـوم عـاصف ، ويسـحق بنيانه ويندثر وجوده الاعتباريّ .

١ـ الآية ١٤ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٢ـ الآية ١٨ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

وتشير آية أُخرى إلى مثال منطقيّ محيّر :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ.[1]

فياله من مثال عجيب ذلك الذي يصوّر خلق ذبابة ، وأبسط منه ، سلب الذباب لشيء ما وفراره ، والعجز عن استنقاذه منه ، وهذا الذباب قد يكون مخلوقاً حقيراً في نظر العامّة ، لهذا ضُربَ به المثل ، وهو مثال صادق ومشهود في كلّ ذرّة من ذرّات الوجود .

ومن هنا يعتبر الله عزّ وجلّ أساس علم أُولئك ـ الذين يفضّلون الحياة المادّيّة والشهوانيّة ويجعلونها هدفهم الأسمى ولا يرون ما دون ذلك ـ واهٍ لا قيمة له . وقد عزلهم عن صفّ العلماء والعقلاء بقوله تعالى : **ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِّنَ ٱلْعِلْمِ** ، ووضعهم في زمرة الضالّين الذين لا يرون شيئاً أسمى من الحياة الاعتباريّة في النشأة الطبيعيّة : **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ.**[2]

والحقّ أنّه يجب التدقيق في عبارة **ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ** حيث إنّ جميع علماء المادّيّة والطبيعة ، والشيوعيّين والمادّيّين ، وعلماء العلوم التطبيقيّة والعلماء المسلمين وعلماء سائر الأديان الذين لاتهديهم علومهم إلى الله تعالى ، والذين ركضوا وراء المصطلحات والمعادلات ، وفرحوا بسلامهم وصلواتهم وهتافاتهم ، وبكراسي الحكم والجوائز والأوسمة

١ـ الآية ٧٣ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

٢ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠ ، من السورة ٥٣ : النجم .

وإجازات المجتهدين وشهادات الدكتوراه التي باعوا لأجلها أنفسهم ، وتركوا خلفهم الله والسعادة والصدق والأمانة ، واستبدلوا الخلوة مع الله بالأُنس مع الأغيار ، وشُغلوا عن لقاء الأحبّة بعُبّاد الدنيا ، وغفلوا عن ذكر الله . نقول : إنّ هؤلاء كلّهم بائسون ومساكين .

وعلى الرغم ممّا يملكون من مناصب ونفوذ ، فهم خالو الوفاض ، وبهذا الوصف البليغ **ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ** فهم قد أُفرغوا من الإنسانيّة ومُنعوا من الوصول للنقطة التي تؤهّلهم للانطلاق نحو بلوغ مرتبة الإنسان الكامل ، وهم محرومون من الحياة المثاليّة للمقرّبين وجليسي الملائكة وأرواح السعداء والأولياء وقد سقطوا في درك البهيميّة والشيطنة ، ونُفوا إلى قعر الوادي المظلم بعيداً عن التجرّد والنور والسرور والحبور ، وجعلوا من أنفسهم محرومين وإلى الأبد .

وهذا الأمر من الأهميّة بحيث ينهى الله نبيّه الكريم عن معاشرة ومصاحبة هؤلاء ، أو إقامة أيّة روابط معهم .

وفي إزاء هذه الفئة ، هناك من سُعدوا بلقاء الله ، ووهبوا قلوبهم له ، ووضعوا دينهم وحياتهم ونفوسهم بين يديه ، وحزموا أمرهم للبحث عنه ، ولقاء وجهه الكريم ، وواصلوا الصباح بالمساء بذكره ، واختاروا الحياة العليا على الدنيا ، والله سبحانه وتعالى يأمر نبيّه الكريم بأن لا يطرد هؤلاء وأن يكون حميماً معهم ، وأن يشدّ على أيديهم ، فيقول في الآية الكريمة :

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .[1]

١ـ الآية ٥٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

وهنا نرى بأنّ الله ، وتقديراً لطالبي وجهه الكريم ولقائه ، فهو يضع نبيّه الكريم ، خاتم الأنبياء والمرسلين في زمرة الظالمين إن هو منع هؤلاء وطردهم .

والسرور كلّ السرور ، حين يشكّل الإنسان هذه الآصرة ، وحين يصل الإنسان إلى مرتبة الإنسانيّة ، فيتربّع على الذروة الأرفع ، والسنام الأعلى .

ساقی بیا که گشت دلارام ، رامِ ما
آخر بداد دلبر خوشکام ، کامِ ما
بس رنج برده‌ایم و بسی خون که خورده‌ایم
کان شاهباز قدس فتادی به دام ما
در دار ملک عالم معنی دَم نخست
زد دست غیب سکهٔ دولت به نام ما
مائیم اصل و جمله فروع فروغ ماست
گر خواجه منکر است بنوشد ز جام ما
بر آستان پیر مغان رو نهاده‌ایم
برتر ز عرش آمده زین رو مقام ما[1]

١ـ «ديوان أسرار» ص ١٨ و ١٩ .

يقول : «انساقت لنا القلوب ، وأغاث الحبيب بفمه الجميل فمنا.

لقد طالت محنتنا ، وطال عذابنا ، حتّى سقط صقر القدس في حبائلنا.

ولقد قدّرت يد الغيب في دار مُلك عالم المعنى ، ومنذ اللحظة الأُولى، أن تكون الدولة بيدنا.

نحن الأصل ، أمّا الباقون فهم فروع اشعاعنا ، ولو أنكر ذلك مُنكر فليشرب من كأسنا.

لقد توجّهنا إلى أعتاب شيخ المعبد ، فصار مقامنا ـ لذلك ـ أفضل من العرش».

عرشِ سپهر خود چه بُوَد پیش عرش دل
یا کعبه در برابر بیت الحرام ما
هر ذرّه خاک درّه و هر تخته تخت شد
چون آمد آن همای همایون به دام ما
گلبانگ نیستی چو شد از بام ما بلند
نُه بام چرخ وام برند از دوام ما
اسرار بشکند کُلَه خسروی به فرق
تا گفته می‌فروش تو هستی غلام ما[1]

وقد خَصّص العالم المحقّق ، والحكيم المدقّق ، **الملّا محسن الفيض الكاشانيّ** قدّس الله سرّه كلمته الأُولى من «الكلمات المكنونة» لمسألة إمكانية لقاء الحيّ القيّوم السرمدي الأبدي ومعرفته ، وبدورنا ، وللأمانة العلمية ، والنقل الحرفي لهذه الكلمة من جهة ، ومن جهة أخرى تجليلاً واحتراماً لعظمة المكانة العلمية والعملية لهذا الفطحل الشامخ ، ننقل هنا كلمته بحذافيرها :

«كَلِمَةٌ بِهَا يُجْمَعُ بَيْنَ امْتِنَاعِ المَعْرِفَةِ وَالرُّؤْيَةِ وَبَيْنَ إِمْكَانِهِمَا:

١ـ يقول : «وما عرش السماء بالمقارنة مع عرش القلب ؟ وما الكعبة بالمقارنة مع بيتنا الحرام.

لقد أضحت كلّ ذرّة تراب دُرّةً ، وكلُّ خشبة عرشاً ، حين سقط طائر السعد الملكيّ في شراكنا.

ولما تعالى نداء الفناء من فوق سطحنا ، فإنّ أسطح الأفلاك التسعة استعارت بقاءها من بقائنا.

وليكسر **أسرار** خوذة السلطان على أمّ رأسه ، ليقول بائع الخمر : أنت غلامنا».

طـلب ای عـاشقان خـوش رفـتار
طـرب ای نـیکوان شـیرین کـار
تـا کـی از خـانه هـین ره صـحرا
تـا کـی از کـعبه هـین در خـمّار
در جـهان شـاهدیّ و مـا فـارغ
در قـدح جـرعه‌ای و مـا هشـیار
زین سپس دست ما و دامن دوست
بعد از این گوش ما و حلقه و یـار[1]

مع أنّ الكرّوبيّين في الملأ الأعلى واقفون عند مقام **لَوْ دَنَوْتُ أَنْـمُلَةً** وأنّ المقرّبين من الحقّ تعالى ، يعترفون بقصور **مَا عَرَفْنَاكَ** وتُـغشي الآيـة الكريمة **لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ** كلّ عين ، ونصّ **إِنَّ اللَهَ احْتَجَبَ عَنِ العُقُولِ كَمَا احْتَجَبَ عَنِ الأَبْصَارِ** رائدكلّ ناظر وعاقل ، إلّا أنّ أُسود غابة الولاية ما فتأوا يردّدون **لَمْ أَعْبُدْ رَبّاً لَمْ أَرَهُ** ويخطون على طـريق **لَـوْ كُشِـفَ الغِـطَاءُ مَـا ازْدَدْتُ يَقِيناً**.

نعم ، لا سبيل للوصول إلى لبّ الحقيقة ، وذلك لإحاطته بكلّ شيء ، فهو لا يُحاط بشيء ، ولا يدرك شيء دون الإحاطة به ، فَإذاً «**لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**».[2]

١ـ يقول : «هلمّوا أيّها العاشقين إلى الحقّ ، واطربوا أيّها الأخيار المحسنين.
فإلى متى نهيم على وجوهنا ونتيه في صحراء الضياع وإلى متى نترك الكعبة ونـلزم الخمّار.
فإنّ للكون شاهد وناظر في حين نحن في شغل عنه وحيث لا تزال في الكأس جرعة متبقية ولمّا نزل يقظين.
وسنمسك منذ الآن بأذيال الحبيب ، وسنسمع له ونطيع».
٢ـ الآية ١١٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

عنقا شكار كس نشود دام باز گير
كانجا هميشه باد به دست است دام را[1]

فَدَعْ عَنْكَ بَحْراً ضَلَّ فِيهِ السَّوَابِحُ.

در اين ورطه كشتى فرو شد هزار كه پيدا نشد تختهاى بركنار[2]

إلّا أنّ له صوراً باعتبار التجليّ في مظاهر أسماء وصفات أيّ موجود، وله في كلّ مرآة هيئة.

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَهِ.[3]

وَلَوْ أَنَّكُمْ أَدْلَيْتُمْ بِحَبْلٍ إِلَى الأَرْضِ السُّفْلَى، لَهَبَطَ عَلَى اللَهِ.

وهذا التجليّ موجود في الجميع، إلّا أنّ الخواصّ يعلمون ما يرون، ولهذا فهم يقولون: **مَا رَأَيْتُ شَيْئاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ.**

دلى كز معرفت نور وصفا ديد
بهر چيزى كه ديد اوّل خدا ديد
بهر كه مىنگرم صورت تو مىبينم
از اين ميان همه در چشم من تومىآئى[4]

١ـ يقول: «لا يُمكنك أن تَصيد العَنقاء مَهما حاولتَ، فارفَع الشباكَ وأزِل المَصائِد، فلَن تَصيد شِباكَكَ إلّا الهَواء».

٢ـ يقول: «لقد غرقت آلاف السفن في هذه المهلكة، ولم يكن مِن خشبةٍ يتعلّق بها الغريق».

٣ـ الآية ١١٥، من السورة ٢: البقرة: **وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَهِ إِنَّ ٱللَهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.**

٤ـ يقول: «إنّ القلب الذي تنوّر بنور المعرفة والصفاء، يرى الله في كلّ شيء يقع نظره عليه.

فأينما أنظر أرى صورتك فيه، وهي (أي صورتك) لا تفارق عينيّ».

والعوامّ لا يعلمون ما يرون.

أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ.[١]

گفتم بكام وصلت خواهم رسيد روزى

گفتا كه نيک بنگر شايد رسيده باشى[٢]

* * *

دوست نزديكتر از من به من است

وين عجب‌تر كه من از وى دورم

چكنم با كه توان گفت كه دوست

در كنار من و من مهجورم[٣]

قال الله تعالى: **سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ.**[٤]

قيل: يعني سأُكحّلُ عين بصيرتهم بنور توفيقي وهدايتي، لِيُشاهدوني في مظاهِرِيَ الآفَاقِيَّةِ وَالأَنْفُسِيَّةِ مُشاهَدَةَ عَيَانٍ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الآفَاقِ وَلَا فِي الأَنفُسِ إِلَّا أَنَا وَصِفَاتِي وَأَسْمَائِي، وَأَنَا الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ.

ثُمَّ أَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: «أَوَ لَمْ يَكْفِ» عَلَى سَبِيلِ التَّعَجُّبِ.

قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ صَلَوَاتُ اللَهِ عَلَيْهِ:

إِنَّ اللَهَ تَجَلَّى لِعِبَادِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ رَأَوْهُ، وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ

١ـ الآية ٥٤، من السورة ٤١: فصّلت.

٢ـ يقول: «قلتُ: سأنعم بوصالك يوماً. قال: انظر جيّداً فلعلّك بلغتَ هدفك».

٣ـ يقول: «الحبيب أقربُ إليّ منّي والعجب أنّني عنه بعيد.
ما العمل، إلى مَن أشكي وأقول: حبيبي ولكنّي أبدو وحيداً».

٤ـ الآية ٥٣، من السورة ٤١: فصّلت.

يَتَّجَلَّى لَهُمْ.

قَوْلُهُ : «تَجَلَّى لِعِبَادِهِ» أَيْ أَظْهَرَ ذَاتَهُ فِي مِرْآةِ كُلِّ شَيءٍ بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يُرَى رُؤْيَةَ عَيَانٍ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ رَأَوْهُ بِهَذَا التَّجَلِّي رُؤْيَةَ عَيَانٍ ، لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِالأَشْيَاءِ مِنْ حَيْثُ مَظْهَرِيَّتِهَا لَهُ وَأَنَّهَا عَيْنُ ذَاتِهِ الظَّاهِرَةِ فِيهَا.

«وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ» أَيْ أَظْهَرَهَا لَهُمْ فِي آيَاتِ الآفَاقِ وَالأَنْفُسِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا شَوَاهِدُ ظَاهِرَةٌ لَهُ ، وَدَلَائِلُ بَاهِرَةٌ عَلَيْهِ ؛ فَرَأَوْهُ رُؤْيَةَ عِلْمٍ وَعِرْفَانٍ.

«مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَجَلَّى لَهُمْ» أَيْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ ذاتَهُ فِيهَا عَيَاناً بِحَيْثُ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا مَظَاهِرُ لَهُ ، وَمَرَايَا لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ الظَّاهِرُ فِيهَا بِذَاتِهِ.

وذكر المرحوم الفيض هنا بعضاً من دعاء **ابن عطاء الإسكندريّ** ، الذي ذكرناه في الجزء الأوّل في البحثين التاسع والعاشر بإسناده إلى الإمام سيّد الشهداء الحسين بن عليّ صلوات الله وسلامه عليه . ثمّ قال :

وَرَوَى الشَّيْخُ الصَّدُوقُ مُحَمَّدُ بْنُ بَابَوَيْهِ القُمِّيُّ رَحْمَةُ اللَهِ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ» بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ ، قَالَ : قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَخْبِرْنِي عَنِ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ ، هَلْ يَرَاهُ المُؤْمِنُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ؟!

قَالَ : نَعَمْ ، وَقَدْ رَأَوْهُ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ !

فَقُلْتُ : مَتَى ؟!

قَالَ : حِينَ قَالَ لَهُمْ : «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ» !

ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ :

وَإِنَّ المُؤْمِنِينَ لَيَرَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ. أَلَسْتَ تَرَاهُ فِي وَقْتِكَ هَذَا ؟!

قَالَ أَبُو بَصِيرٍ : فَقُلْتُ لَهُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! أَفَأُحَدِّثُ بِهَذَا عَنْكَ ؟!

فَقَالَ : لَا ! فَإِنَّكَ إِذَا حَدَّثْتَ بِهِ ، فَأَنْكَرَهُ مُنْكِرٌ جَاهِلٌ بِمَعْنَى مَا تَقُولُ ، ثُمَّ قَدَّرَ أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ ؛ كَفَرَ . وَلَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ بِالقَلْبِ كَالرُّؤْيَةِ بِالعَيْنِ ؛ تَعَالَى

عَمَّا يَصِفُهُ المُشَبِّهُونَ وَالمُلْحِدُونَ.[١]

وَبِإِسْنَادِهِ عَنِ الكَاظِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ حِجَابٌ غَيْرُ خَلْقِهِ. احْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحْجُوبٍ وَاسْتَتَرَ بِغَيْرِ سِتْرٍ مَسْتُورٍ.[٢]

از فـريب نـقش نـتوان خـامۀ نـقّاش ديـد
ورنه در اين سقف زنگارى يكى در كارهست[٣]

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ المَعْرِفَةِ: إِنَّ العَالَمَ غَيْبٌ لَمْ يَظْهَرْ قَطُّ؛ وَالحَقُّ تَعَالَى هُوَ الظَّاهِرُ مَا غَابَ قَطُّ. وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ المَسْأَلَةِ عَلَى عَكْسِ الصَّوَابِ؛ فَيَقُولُونَ: العَالَمُ ظَاهِرٌ وَالحَقُّ تَعَالَى غَيْبٌ.

فَهُمْ بِهَذَا الاعْتِبَارِ فِي مُقْتَضَى هَذَا الشِّرْكِ كُلُّهُمْ عَبِيدٌ لِلسِّوَى، وَقَدْ عَافَى اللَّهُ بَعْضَ عَبِيدِهِ عَنْ هَذَا الدَّاءِ.

برافكـن پـرده تـا مـعلوم گـردد كه ياران ديگرى را مى‌پرستند[٤]

١ـ «التوحيد» للصدوق، ص ١١٧، الرواية رقم ٢٠، باب ما جاء في الرؤية، من منشورات مكتبة الصدوق.

٢ ـ روي في «أُصول الكافي» ج ١، ص ١٠٥، باب النهي عن الجسم والصورة، عن محمّدبن الحسن، عن سهل بن زياد، عن محمّد بن إ سماعيل بن بزيع، عن محمّدبن زيد أنّه قال: كنت عند الإمام الرضا عليه السلام فسألته عن التوحيد فأملى عَلَيَّ قائلاً:

الحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ الأَشْيَاءِ إِنْشَاءً، وَمُبْتَدِعِها ابْتِدَاعاً بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، لَا مِنْ شَيْءٍ فَيَبْطُلَ الاخْتِرَاعُ، وَلَا لِعِلَّةٍ فَلَا يَصِحَّ الابْتِدَاعُ. خَلَقَ مَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ مُتَوَحِّداً بِذَلِكَ لِإِظْهَارِ حِكْمَتِهِ وَحَقِيقَةِ رُبُوبِيَّتِهِ. لَا تَضْبُطُهُ العُقُولُ، وَلَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ وَلَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ المِقْدَارُ. عَجَزَتْ دُونَهُ العِبَارَةُ، وَكَلَّتْ دُونَهُ الأَبْصَارُ، وَضَلَّ فِيهِ تَصَارِيفُ الصِّفَاتِ. احْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحْجُوبٍ، وَاسْتَتَرَ بِغَيْرِ سِتْرٍ مَسْتُورٍ. عُرِفَ بِغَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَوُصِفَ بِغَيْرِ صُورَةٍ، وَنُعِتَ بِغَيْرِ جِسْمٍ؛ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الكَبِيرُ المُتَعَالِ.

٣ـ يقول: «لا يمكن رؤية قلم الرسّام من سحر الرسم وفتنته؛ وإلّا فإنّ هناك صانعاً لهذا السقف النحاسيّ اللون».

٤ـ يقول: «أزح الستار عن عينيك حتّى يتبيّن لك أنّ الأحبّة يعبدون ما لا تعبد».

نعم ، إذا تحوّلت كلّ ذرّة من ذرّات البيت إلى صحراء لشاهدت وجه الشمس ، ولكنّها لا تعلم ما ترى .

چندين هزار ذرّه سراسيمه مى‌دوند
در آفتاب وغافل از آن كافتاب چيست[1]

لمّا اجتمع السمك وقال : لقد سمعنا كثيراً عن الماء وإنّ أصل حياتنا منه ، إلّا أ نّنا لم نَرَ الماء بعد ، وكان البعض قد سمع أنّ في البحر الفلانيّ سمك خبير مطّلع ، فقالوا : لنذهب ليرينا الماء .

فلمّا وصلوا إليه سألوه ، فأجاب : أروني شيئاً غير الماء حتّى أُريكم الماء .

با دوست ما نشسته كه اى دوست ! دوست كو ؟
كو كو همى زنيم ز مستى به كوى دوست[2]

* * *

سالها دل طلب جام جم از ما مى‌كرد
آنچه خود داشت ز بيگانه تمنّا مى‌كرد
گوهرى كز صدف كون ومكان بيرون بود
طلب از گمشدگان لب دريا مى‌كرد[3]

١ـ يقول : «آلاف الذرّات تسبح باضطراب في شعاع الشمس وهي لا تدري كنه الشمس».

٢ـ يقول : «أسأل حبيبي الجالس إلى جواري : أيّها الحبيب ، أين الحبيب ؟ ونحن نتساءل جميعاً ثملين : أين طريق الحبيب ؟».

٣ـ يقول : «النفس تطلب منّا كأساً ترى فيها العالَم في حين أنّ الذي تطلبه من الغير هو في يدها.

كاللؤلؤة التي تخرج من صدفتها تنشد ضالّتها من التائهين على ساحل البحر».

بـيدلی در هـمه احـوال خـدا بـا او بـود
او نـمی‌ديدش واز دور خـدايـا مـی‌كرد[1]

* * *

در ديـــدهٔ ديـــده ديـده‌ای مـی‌بايد
وز خـويش طـمع بـريده‌ای مـی‌بايد
تـــو ديـده نـداری كـه بـبينی او را
ور نـه هـمه اوست ديـده‌ای مـی‌بايد[2]

يقول صديقنا القديم وصاحبنا المخلص المرحوم الشهيد آية الله الحاجّ الشيخ مرتضى المطهّريّ قدّس الله سرّه :

لقد وردت في الأدب الفارسيّ أمثلة كثيرة ولطيفة على لسان السمك والماء لكنّنا نجهل قائلها ومنشدها ، إذ يقول :

بـه دريـائی شـناور مـاهيی بـود
كه فكرش را چو من كـوتاهيی بـود
نـــه از صـيّاد تشـويشی كشـيده
نـه رنـجی از شكـنج دام ديـده[3]

١ـ يقول : «إنّ عديم البصيرة كان ينادي ويبحث عن الله ، والله معه لكنّه غافل عنه».

٢ـ «كلماتٌ مكنونةٌ من علوم أهل الحكمة والمعرفة» الكلمة الأُولى ، من الطبعة الحجريّة، (المظفري سنة ١٣١٦ هـ) ؛ ومن طبعة شمس فراهاني.

يقول : «يجب أن تمتلك أعيننا عين البصيرة كذلك وأن تقطع الأمل من هذه الدنيا وتترك الطمع جانباً فليس لك العين التي تستطيع رؤيته (أي الله) وإلّا فالله موجود في كلّ مكان».

٣ـ يقول : «قيل إنّ سَمكةً كانت تحيا في الماء وكان فكرها قاصراً مثلي.
ما ضايقها صيّاد يوماً من الأيّام ولا وقعت في شباكه أبداً».

نــه جـان از تشـنگی در اضـطرابش
نـــه دل ســـوزان ز داغ آفـتابش
در این اندیشه روزی گشت بی‌تاب
که می‌گویند مـردم : آب ، کـو آب؟
کدام است آخرآن اکسیر جان‌بخش
که باشد مرغ وماهی را روان بـخش
گر آن گوهر متاع ایـن جـهان است
چرا یا ربّ ز چشم ما نهان است ؟[1]

❊ ❊ ❊

جـز آبش در نـظر شـام وسـحر نـه
در آب آســوده وز آبش خــبر نـه[2]

❊ ❊ ❊

مگــر از شکـر نـعمت گشت غـافل
که موج افکندش از دریا به سـاحل
بــر او تــابید خــورشید جـهانتاب
فکـند آتش بـه جـانش دوری آب[3]

١ـ يقول : «وما كانت لتعطش أو تجوع أو تلحفها الشمس.
ومع ذلك فقد نفد صبرها وتساءلت عن ما يتساءل عنه الناس وهو : الماء!
ولِمَ لا تعرف ماهيّة ذلك الإكسير المنعش أو تستطعمه؟
فإن كان ذلك الجوهر متاع هذا العالم ، فَلِمَ يا ربِّ خفي عن عيني ؟».

٢ـ يقول : «في حين أنّها تعيش في خِضَم ما تساءل عنه ، راضيةً مرضيّة...».

٣ـ يقول : «إلّا أنّها غفلت عن ذلك بدل أن تشكر (الله) على تلك النعمة ؛ فقذفتها الأمواج يوماً نحو الساحِل.
وهناك سفعتها حرارة الشمس المحرقة».

زبـان از تشـنگی بـر لب فـتادش
به خاک افـتاد وآب آمـد بـه يـادش
ز دور آواز دريـا چـون شـنفتی
بـه روی خـاک غـلطيدی وگـفتی
که اکـنون يـافتم آن کـيميا چـيست
که امّيد هستيم بـی او دمـی نـيست
دريـغا دانـم امـروزش بـها مـن
که دستم کـوته است او را ز دامـن[1]

وبالجملة ، فإنّه مع ما قيل وكُتب حول لقاء الله وإمكانيّة معرفته ، ومع ما هو موجود حقّاً من الدرر المكنونة ، والسبل المسلوكة ، إلّا أنّ الحقير لم يتح له لحدّ الآن التعرّف على كتاب مثل كتاب «رسالة لقاء الله» للمرحوم آية الحقّ وسند العرفان الفقيه الجليل والآية الربّانيّة **الحاجّ ميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ** أعلى الله تعالى مقامه القدسيّ ورزقنا من بركاته ورحماته بجوده ومنّه ، وذلك لجهة إتقان المواضيع وإيجازها والشواهد الروائيّة والشهوديّة ، وترتيب المواضيع العرفانيّة اللقائيّة على أساس البرهان واستحكام الدليل .

١ـ يقول : «ويَبس ريقها وسقطت أسيرة الرمال الجافّة الحارّة.
وهناك حيث سمعت صوت أمواج البحر الهائج.
علمت أنّها كانت مخطئة في ظنّها وغارقة في غفلتها أيّما غرق.
فصاحت : آهٍ ! الآن عرفت ذلك السرَّ الذي تربطني به آصرة حياتيّة ولولاه ما دخل نفس إلى جوفي. لكن أسفي على ما فَرّطت في جنب الله إذ لم أشكر نعمته تلك وها أنا اليوم بعيدة عن مصدر حياتي كلّ هذا البُعد».
كتاب «امدادهای غيبی در زندگی بشر» ـ (المدد الغيبيّ في حياة البشر) ص ٩٧.

وبناء على هذا ، أرى من المناسب هنا أن أذكر بعضاً ممّاكُتب في أصل لزوم المعرفة العينيّة لفقيد العلم والعمل والفكر والدراية ، عن النسخة الخطّيّة الموجودة لديّ والتي استنسختها عنها في البلدة الطيّبة قم ، حيث قال :

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم
الحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ عَلَى رَسولِ اللَهِ
وَعَلَى آلِهِ أُمَنَاءِ اللَهِ

ورد في القرآن الكريم ما يربو على عشرين آية تحمل عبارة **لقاء الله** والنظر إليه ، وكذا في تعابير الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، ومن ناحية أُخرى ، فقد وردت في الروايات كلمات كثيرة في تنزيه الحقّ جلّ وعلا والتي تنمّ في ظاهرها عن **تنزيه صِرف** عن كلّ مراتب ودرجات المعرفة .

ولعلماء الشيعة رضوان الله عليهم مشارب متباينة في هذا الباب ، إلّا أنّ أهمّ مشربين من تلك المشارب : **التنزيه الصِّرف** ، حيث إنّ منتهى المعرفة لهذا الفهم يكمن في ضرورة التنزيه الصِّرف للّه ، وقد أوّل هذا الاتّجاه الآيات والروايات التي جاءت في باب معرفة الله ولقائه .

فهو مثلاً يفسّر جميع الآيات والروايات التي تتحدّث عن لقاء الله بالموت وتلقّي الثواب أو العقاب .

وتعتقد فرقة أُخرى أنّه يجب الجمع بين الروايات القائلة بالتنزيه الصِّرف وبين روايات التشبيه والروايات التي تدلّ على إمكانيّة المعرفة والوصول وإخراجها بالشكل التالي :

حمل الروايات حول التنزيه الصِّرف على المعرفة عن طريق الرؤية بالعين الظاهرة . والتعرّف على كنه الذات المقدّسة الإلهيّة ، وحمل روايات التشبيه واللقاء والوصول والمعرفة كلّها على المعرفة الإجماليّة ومعرفة

الأسماء والصفات الإلهيّة ، وتجلّي مراتب الذات وأسماء وصفات الحقّ تعالى بالقدر الذي تكون معه ممكنة بالنسبة إلى الممكن . وبعبارة أُخرى ، أنّ الحجب الظلمانيّة والنورانيّة إذا انكشفت للعبد ، فإنّه سيعثر حينها على المعرفة بذات الحقّ تعالى ، وأسمائه وصفاته ، وهذه المعرفة ، هي غير تلك التي كانت قبل مرحلة الكشف .

وبعبارة أُخرى ، فإنّ أنوار الجمال والجلال الإلهيّة تتجلّى في قلب وعقل وسرّ خواصّ أولياء الله ، لدرجةٍ يفنون معها عن ذاتهم ، ويخلدون بذات الله ، ويصيّرهم في جماله هو ، وتسبح عقولهم في بحر معرفة الله ، فيقوم بتدبير أُمورهم بدلاً من عقولهم . وبعد طيّ كلّ مراحل سُبُحات الجلال وتجلّي أنوار الجمال والفناء بالله والبقاء به ، تكون محصّلة هذه المعرفة أن يرى العبد عجزه عن الوصول لِكُنْهِ معرفة الذات الإلهيّة بالكشف والعيان .

نعم ، فهذا عجز عن المعرفة ، وسائر الناس عاجزون عن المعرفة بدورهم ، ولكن أين هذا من ذاك ، فالجماد أيضاً عاجز عن المعرفة ، وكذلك الإنسان . فلا جرم أنّ تباين مراتب عجز أعلم خلق الله محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، أكبر ، بالمقارنة مع سائر الناس ، بل مع علماء الأُمّة من عجز الجماد أو الإنسان .

وإجمالاً ، فإنّ طائفة من المتكلّمين من العلماء الأعلام هم على رأي الطائفة الأُولى ، مستدلّين بظواهر بعض الروايات وتأويل الآيات والروايات والأدعية الواردة في ذلك .[1]

١ـ لقد كانت للمؤلّف ، هنا ، حاشية وهي : «وهذا المذاق هو صريح كلمات الشيخ الأحسائيّ وتابعيه ؛ إلّا أنّهم يُأَوِّلون أخبار اللقاء والمعرفة على وجه ثانٍ كما سيأتي ، ⇦

وأودّ أنا الحقير بلا وفاض ذكر بعضٍ من الآيات والروايات الواردة في هذا المعنى حسب تأويل العلماء الأفاضل حتّى يتميّز الحقّ عن الباطل .

من جملة تلك الآيات : آيات **لقاء الله** .

وقد فسّرت الطائفة الأُولى هذه الآيات بأنّ المراد منها هو الموت وتلقّي الثواب الإلهيّ . وقد فنّدت الطائفة الثانية رأي الأُولى ، قائلةً إنّ ذلك هو مجاز ، بل ومجاز بعيد .

وإذا كان المراد حمله على المعنى المجازيّ ، فالمجاز الأقرب من ذلك هو حمل ذلك على درجة من اللقاء بحيث يكون جائزاً شرعاً في إطار الممكن . وإن كان لا يصرّح به ، بالعرف العامّ على أنّه لقاء حقيقيّ .

وأمّا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الألفاظ على كونها موضوعة لأرواح المعاني ، وأن نتصوّر معنى روح اللقاء ، فإنّنا سنرى أنّ لقاء الأجسام هو حقيقة ، وهكذا لقاء الأرواح والمعاني ، ويكون لقاء كلّ منها على نحو يحمل في ذاته روح معنى اللقاء ، على نحو يناسب حال الملاقي والملاقى .

ففي هذه الحالة ، يمكن القول إنّ معنى اللقاء الممكن مع الله أيضاً ، يحمل حقّاً روح اللقاء فيه ، بما يليق بالملاقي والملاقى ، وهو يعبّر عن نفس المعنى في الأدعية والروايات التي ورد فيها بتعابير مختلفة بلفظ الوصول ، والزيارة ، والنظر إلى وجهه الكريم ، والتجلّي ، ورؤية القلب ، وتعلّق الروح . وعبّرت عن عكسه بالفراق والحرمان ، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير **قد قامت الصلاة** أنّه قال يعني قد اقترب وقت الزيارة . وتكرّرت في الأدعية عبارة : **وَلَا تَحْرِمْنِي النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ** .

⇦ ويثبتون جميع الأسماء والصفات بمرتبة المخلوق الأوّل ، ولا يعتقدون بأنّ ذات الله المقدّسة هي منشأ انتزاع الصفات . فهم قائلون بالتنزيه الصرف ـ منه عفي عنه». (تعليقة).

ومن كلام الإمام عليه السلام كذلك : **وَلَكِنْ تَرَاهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإيمَانِ.**

وجاءت في المناجاة الشعبانيّة : **وَأَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزِّكَ الأَبْهَجِ فَأَكُونَ لَكَ عَارِفاً.**

وأيضاً في المناجاة : **وَأَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارُ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ فَتَصِلَ إِلَى مَعْدِنِ الْعَظَمَةِ وَتَصِيرَ أَرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ!**

ويقول في دعاء كميل عليه الرحمة : **وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ ؟!**

وهنا ، سيجزم المرء ذو الفهم الخالي من الشبهات ، وبعد النظر إلى هذه التعابير المختلفة ، بأنّ المقصود بلقاء الله تعالى ، ليس تلقّي ثوابه ، مثل دخول الجنّة ، وتناول تفّاحها ، ورؤية الحور العين ، فهذه التعابير لا تناسب ذلك المعنى .

فمثلاً ، إذا أوّلَ أحدٌ اللقاء المطلق على غير معنى اللقاء ، فكيف له أن يُأَوِّل باقي الألفاظ ؟ مثل النظر إلى الوجه ، أو تأويل **أَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزِّكَ الأَبْهَجِ فَأَكُونَ لَكَ عَارِفاً** ، وهل يمكن تفسير عبارة **أَنِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بِضِيَاءِ نَظَرِهَا إِلَيْكَ** بتناول الكمّثرى ؟!

وإذا سلّم شخص بأنّ المقصود بلقاء الله ليس هذا المعنى ، ولكنّ المقصود هو لقاء أولياء الله من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام .

فمثلاً ، إذا قال أحدنا بأ نّه قد خاطب الصدر الأعظم ، فيمكن له مجازاً أن يقول : تحدّثتُ إلى الملك .

كما أُطلق في الروايات لفظ «وجه الله» على الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، فعلى سبيل المثال ، فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم هو وجه الله

بالنسبة إلى الأئمّة عليهم السلام ، والأئمّة عليهم السلام هم وجه الله بالنسبة لنا .

فنقول في الجواب : أوّلاً ، إنّ هذه الأدعية كان يدعو بها الأنبياء والأولياء ، وحتّى الرسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

ولمّا كان الرسول الأعظم هو اسم الله الأعظم ووجهه الكريم ، فما الذي كان يقصد بتلك الأدعية ؟

فمثلاً ، عند إخباره عن المعراج قائلاً : إنّي رأيتُ ذرّة من النور الإلهيّ فغُشي عَلَيَّ ، فأنّى لنا أن نفسّر هذا ؟[1]

مضافاً إلى ذلك ، فإنّ هذا المعنى قد أُطلق على بعضٍ من درجات الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، وذلك بعد نيلهم مرتبة القرب ، وأصبحوا **فانين في الله تعالى** ومتّصفين بصفاته .

حينئذٍ يجوز لنا أن نطلق الألفاظ **وجه الله وجنب الله واسم الله** عليهم ، والتسليم بهذا المعنى هو ، في الحقيقة ، تأييد لرأي المخالفين لا ردّه .

والتفسير الإجماليّ لهذا المعنى الذي ورد في الروايات المعتبرة حيث يقولون : **نَحْنُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى** .

ولا ريب ، أنّ المراد من هذه الأسماء ليس الاسم اللفظيّ ، بل الاسم العينيّ . وهو ما يظهر جليّاً في الروايات أنّ للّه أسماءً عينيّة غير لفظيّة ،

١ـ ورد في دعاء ليلة السبت والمنقول في «ربيع الأسابيع» ، ضمن الصلوات والدعاء للوجود المبارك لخاتم الرسل : **وارزقه نظراً إلى وجهك يوم تحجبه عن المجرمين** .

والجملة التالية موجودة في دعاء يوم الجمعة للصدِّيقة الطاهرة : **فاجعلني كأنّي أراك إلى يوم القيامة الذي فيه ألقاك ! ـ منه عفي عنه . (تعليقة)** .

يفعل بها ما يريد في العالم ، ويتجلّى الله جلّ جلاله بهذه الأسماء في هذه العوالم ، وبها تحدث التأثيرات . بل إنّ وجود كلّ العالم هو نابع من تجلّيات الأسماء الإلهيّة ،كما ورد مراراً في أدعية الأئمّة المعصومين عليهم السلام .

وَبِاسْمِكَ الَّذِي تَجَلَّيْتَ بِهِ عَلَى فُلَانٍ وَعَلَى فُلَانٍ !

وَبِاسْمِكَ الَّذِي خَلَقْتَ بِهِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ !

وجاء في دعاء كميل : **وَبِأَسْمَائِكَ الَّتِي مَلَأَتْ أَرْكَانَ كُلِّ شَيْءٍ!**

وروي في كتابَي «أُصول الكافي» للكلينيّ و«التوحيد» للصدوق ، ـ وهي من الكتب المعتبرة لدى الشيعة ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال :

إنَّ اللَهَ خَلَقَ اسْماً بِالحُرُوفِ غَيْرَ مُصَوَّتٍ ، وَبِاللَفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ ، وَبِاللَوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ ؛ مَنْفِيٌّ عَنْهُ الأَقْطَارُ ، مُبَعَّدٌ عَنْهُ الحُدُودُ ، وَمَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مُتَوَهِّمٍ ، مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ .

فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعاً ؛ لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الآخَرِ .

فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الخَلْقِ إِلَيْهَا ، وَحَجَبَ مِنْهَا وَاحِداً ، وَهُوَ الِاسْمُ المَكْنُونُ المَخْزُونُ بِهَذِهِ الأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ ، فَالظَّاهِرُ مِنْهَا هُوَ اللَهُ تَعَالَى .

وَسَخَّرَ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ اسْم مِنْ هَذِهِ الأَسْمَاءِ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ ؛ فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْناً . ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ ثَلَاثِينَ اسْماً ، فَعَلَا مَنْسُوباً إِلَيْهَا .

فَهُوَ الرَّحْمَنُ ، الرَّحِيمُ ، المَلِكُ ، القُدُّوسُ ، الخَالِقُ ، البَارِئُ ، المُصَوِّرُ ، الحَيُّ ، القَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، العَلِيمُ ، الخَبِيرُ ، السَّمِيعُ ، البَصِيرُ ، الحَكِيمُ ، العَزِيزُ ، الجَبَّارُ ، المُتَكَبِّرُ ، العَلِيُّ ، العَظِيمُ ، المُقْتَدِرُ ، القَادِرُ ، السَّلَامُ ، المُؤْمِنُ ، المُهَيْمِنُ ، المُنْشِئُ ، البَدِيعُ ، الرَّفِيعُ ، الجَلِيلُ ،

الكَرِيمُ، الرَّازِقُ، المُحْيِي، المُمِيتُ، البَاعِثُ، الوَارِثُ.

فَهَذِهِ الأَسْمَاءُ وَمَا كَانَ مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى حَتَّى يَتِمَّ ثَلَاثمِائَةٍ وَستِّينَ اسماً؛ فَهِيَ نِسْبَةٌ لِهَذِهِ الأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ. وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ أَرْكَانٌ وَحُجُبُ الاِسْمِ الوَاحِدِ المَكْنُونِ المَخْزُونِ بِهَذِهِ الأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ.

وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلِ ٱدْعُوا ٱللَهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ».[1]

ويُفهم من هذه الرواية، والروايات والأدعية الأُخرى المتواترة، أنّ

١ـ «أُصول الكافي» ج ١، ص ١١٢، باب حدوث الأسماء، الحديث الأوّل؛ و«التوحيد» للصدوق، ص ١٩٠ و ١٩١، باب أسماء الله تعالى، الحديث الثالث. طبعة مطبعة الصدوق. وورد اللفظ في «التوحيد» هكذا: **بِالحُرُوفِ غَيْرُ مَنْعُوتٍ** وجاء كذلك: **إنَّ اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ اسْماً بِالحُرُوفِ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ بِالحُرُوفِ غَيْرُ مَنْعُوتٍ.**

وقال في تعليقه على ذلك: **إنَّ عِبَارَةَ: وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ بِالحُرُوفِ**، غيرموجودة في نسختَي «الكافي و«البحار»؛ إلّا أنّها موجودة في نسخ «التوحيد» التي لديّ، وقال المجلسيّ: «إنّ هذه العبارة موجودة في أكثر النسخ. ويبدو أنّها من الاختلافات والعبارات الموضوعة من قبل النسّاخ، الذين علموا بأن هذه الأوصاف لايمكنها أن تكون صفات الاسم الملفوظ، ونسوا أنّ الأوصاف المذكورة بعد قول الإمام: **فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تامَّةً** هي كذلك ممتنعة عن أن تكون للاسم الملفوظ، مع أنّها بالتأكيد موضوعة للاسم. وعلى هذا، فإنّ المراد من هذا الاسم ليس الاسم الملفوظ ولا الاسم المفهوم؛ بل إنّه عبارة عن حقيقة إبداع الحقّ تعالى لمنشأ ظهور أسمائه وآثار صفاته في الأشياء».

ومَن طلب شرح هذا الحديث فليراجع «بحار الأنوار» وشروحات «الكافي» وتفسير «الميزان» ذيل الآية ١٨٠، من سورة الأعراف.

أقول: روى المرحوم الفيض هذا الحديث كذلك في «الوافي» عن «الكافي» ج ١، ص ٤٦٣ و ٤٦٤، الباب ٤٥، الحديث رقم ١. الطبعة الحروفيّة، إصفهان.

وقد أورد الحقير الحديث المذكور في كتاب «توحيد علمى وعينى» (=التوحيد العلميّ والعينيّ) ص ٣٢٠ و ٣٢١ (بالفارسيّة) من نفس هذه المصادر.

الأسماء هي مخلوقة ، وهي أسماء عينيّة كذلك ، وهنالك روايات معتبرة تشير إلى أنّ أئمّتنا عليهم السلام كانوا يكثرون من قول : نحن الأسماء الحسنى ، بل إنّ الإمام هو الاسم الأعظم .

وتعتقد الشيعة أنّ خاتم الأنبياء والرسل صلّى الله عليه وآله وسلّم هو أشرف المخلوقات ، وعلى هذا الأساس ، فيجب أن يكون أيضاً **الاسم الأعظم** ومضافاً إلى هذا ، فإنّه رويت في أدعية الشهر المبارك أنّ النبيّ هو **الحجاب الأقرب** أقرب المخلوقات ، وقد ذُكر في الروايات أنّ عليّاً ممسوسٌ في ذات الله .[1]

وعلى العاقل أن يتدبّر في هذه الروايات ، ويعلم أنّها أوّلاً ، روايات ذات سند معتبر ومنقولة عن كتب معتبرة ، ومؤيَّدة من قِبَل علماء الدين ، ومضافاً إلى كونها ذات سند معتبر ، فقد اتّفقوا على صحّتها ، ووردت في كتبهم مُصَرّحة بصحّة سندها .

وعند تأمّل هذه الروايات ، يتّضح لنا أنّ مقام خاتم الأنبياء هو مقام الاسم الأعظم والحجاب الأقرب ، وهو أرفع من الثلاثمائة اسم [2] والتي جاء ذكر خمسة وثلاثين اسماً منها هنا . بل هو يحيط بجميع تلك الأسماء ، لأنّ الرواية السابقة صرّحت أنّ الثلاثمائة اسم هذه هي مخلوقة من أركان الأسماء الثلاثة ، وكلّ تلك الأسماء مضافاً إلى أسماء ثلاثة من الأركان

١ـ روى أبو نُعَيم الإصفهانيّ في «حلية الأولياء» ج ١ ، ص ٦٨ ، بسند متّصل عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : **لَا تَسُبُّوا عَلِيّاً فإنَّهُ مَمْسُوسٌ فِي ذَاتِ اللَهِ تَعَالَى!**

٢ـ ورد في جميع النسخ ثلاثمائة اسم في حين كان يجب أن يكون الرقم (ثلاثمائة وستّون) ؛ فإمّا أن يكون سبب ذلك سهواً وخطأً وإمّا أن المؤلِّف أراد أن يُفهم معنى الكثرة بهذا المقدار فقط . لأنّ العدد (ثلاثمائة وستّون) قد عُلِم سابقاً.

والحجب هي الاسم المكنون المخزون والذي هو أيضاً مخلوق .

وبتفهّم هذه المراتب ، وبقليلٍ من التأمّل ، سيتّضح أنّه لو كانت أسماء الله وصفاته الموجودة في هذه الأسماء هي جوهر حقيقة مراتب سيّد البشر صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فلابدّ أن يكون قربه قرباً معنويّاً ، ومعرفته معرفة حقيقيّة . وبالرغم من كلّ تلك التفاصيل ، وتصريح النبيّ وأقوال آله الطيّبين وورثته الطاهرين ، بأنّ علمهم مساوٍ لعلمه ، أي أنّهم وارثو جميع علومه ، يبقى هؤلاء العظام عاجزين عن معرفة كنه حقيقة الذات المقدّسة ، ولا ينافي ذلك رأي الأفاضل من أنّ معرفة الحقّ جلّ جلاله ممكنة ومرغوب فيها لأئمّة الدين وأولياء الله الرحيم . بل إنّ هذه من أهمّ المسائل الدينيّة ، ولعلّ ثمّة مَن يستنبط شيئاً من هذه المراتب والمسائل ، بل إنّ هذه المسألة هي غاية الدين ، بل العلّة الغائيّة في خلق السماوات والأرضين ، بل كلّ العوالم .

وإذا كان هناك من يقف في مقام التنزيه الصِّرف للذات القدسيّة برغم كلّ هذه المراتب ، ويقول : بأن لاسبيل ، على الإطلاق ، لمعرفة الله ، لا تفصيلاً ولا إجمالاً ، ولاكنهاً ولا وجهاً ، فسيرى حينها ، مع قليل من التأمّل الصادق ، أنّ هذا التنزية هو السبب في التوقيف والإبطال والإلحاق بالعدم من حيث لا يشعر ، كما نهى الأئمّة صلوات الله عليهم في الروايات المعتبرة عن التنزية الصِّرف .

وقد ورد في رواية الكافي[1] ، حول سؤال الزنديق :

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٨٣إلى ٨٥ باب إطلاق القول بأنّه شيء ، في الرواية رقم ٦ ، بسند متّصل عن هشام ابن الحكم عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في جوابه على سؤال الزنديق ؛ حتّى يصل إلى حيث يقول له السائل : **فَقَدْ حَدَّدْتَهُ إِذْ أَثْبَتَّ وُجُودَهُ ! قَالَ** ⇦

فَلَهُ إِنِّيَّةٌ وَ مَائِيَّةٌ ؟!

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : نَعَمْ لَا يَثْبُتُ الشَّيءُ إِلَّا بِإِنِّيَّةٍ وَمَائِيَّةٍ !

قَالَ السَّائِلُ : فَلَهُ كَيْفِيَّةٌ ؟!

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا ! لِأَنَّ الكَيْفِيَّةَ جِهَةُ الصِّفَةِ وَالإِحَاطَةِ ! وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنَ الخُرُوجِ مِنْ جِهَةِ التَّعْطِيلِ وَالتَّشْبِيهِ . لِأَنَّ مَنْ نَفَاهُ فَقَدْ أَنْكَرَهُ وَرَفَعَ رُبُوبِيَّتَهُ وَأَبْطَلَهُ ، وَمَنْ شَبَّهَهُ بِغَيْرِهِ فَقَدِ انْتَسَبَهُ بِصِفَةِ المَخْلُوقِينَ المَصْنُوعِينَ الَّذِينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ الرُّبُوبِيَّةَ . وَلَكِنْ لَابُدَّ مِنْ إِثْبَاتِ أَنَّ لَهُ كَيْفِيَّةٌ لَا يَسْتَحِقُّهَا غَيْرُهُ وَلَا يُشَارِكُ فِيهَا وَلَا يُحَاطُ بِهَا وَلَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ.

ويذكر الزنديق في أوّل هذه الرواية :

فَمَا هُوَ ؟!

فأجاب عليه السلام : **هُوَ الرَّبُّ ؛ وَهُوَ المَعْبُودُ ؛ وَهُوَ اللَّهُ !**

ثمّ قال : وليس قولي «الله» إثبات هذه الحروف ... ولكن ارجع إلى معنىً وشيءٍ خالق الأشياء وصانعها ونَعْت هذه الحروف وهو المعنى .

إِلَى أَنْ قَالَ : قَالَ لَهُ السَّائِلُ : فَإِنَّا لَمْ نَجِدْ مَوْهُوماً إِلَّا مَخْلُوقاً !

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ التَّوْحِيدُ عَنَّا مُرْتَفَعاً لِأَنَّا لَمْ نُكَلَّفْ غَيْرَ مَوْهُومٍ ! وَلَكِنَّا نَقُولُ : كُلُّ مَوْهُومٍ بِالحَوَاسِّ مُدْرَكٍ بِهِ تَحُدُّهُ الحَوَاسُّ وَتُمَثِّلُهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ ، إِذْ كَانَ النَّفْيُ هُوَ الإِبْطَالُ وَالعَدَمُ ـ إلى آخره .

فلا يجب على العاقل أن يعتبر نفي أيّ معنى **تنزيهاً للحقّ** تعالى ، فيقوم بنفيه . ولن تكون حقيقة ذلك إلّا البطلان .

⇦ **أَبُو عَبْدِ اللَهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَمْ أَحُدَّهُ وَلَكِنِّي أَثْبَتُّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ مَنْزِلَةٌ ! قَالَ لَهُ السَّائِلُ : فَلَهُ إِنِّيَّةٌ وَمَائِيَّةٌ ؟!** إلى آخر الرواية.

فيجب تنزيه الذات المقدّسة للّه تعالى عن المعاني غير اللائقة التي تستوجب تحديده ، ونسبة النقص إليه ، ونفي أيّة معرفة ترتبط بالحواسّ بكلّ أنواعها ، إلّا أنّه لا يجب أن ينفي المعرفة بعين القلب والروح ، خاصّة إذاكانت معرفة بالوجه لا بالكنه ، ذلك أنّه لن يبقى من شيء للأنبياء والأولياء والعرفاء الحقيقيّين إلّا ما يملكه العوامّ .

نعم ، لوكان الإنسان يملك ذرّة بصيرة ، لأدرك بأنّ هؤلاء الذين ينفون **المعرفة بالوجه** ، هم أنفسهم ، لا إراديّاً ، يميلون إلى هذا الاعتقاد قلبيّاً ، وهذا الاعتقاد والإيمان القلبيّ الجزئيّ بحدّ ذاته ، ينافي التنزيه الصِّرف الذي يدعون إليه ، وذلك لأنّهم يتضرّعون إلى الله في أدعيتهم بقولهم : أنت الرحمن ! أنت الرحيم ! أنت الغفور ، افعل بي كذا وكذا !

وقطعاً ، فإنّهم لا يقصدون تلفّظ حروف مفرغة من معانيها ، أي لابدّ أنّهم يقصدون ذاتاً واجدة لهذه الصفات التي ينعتونها بها ، حتّى لوكانت على نحو لا يطابق نعت الذوات الإمكانيّة .

ولابدّ أنّهم يتصوّرون أنّ رحمة الله المنزّهة من المعنى هي رحمة تستوجب التأثّر ورقّة القلب ، ولكنّ هذا المعنى أيضاً ، وبصورة مجملة ، يجعلهم يتصوّرون بأنّ الإيمان والاعتقاد به (بهذا المعنى) كان وراء الدعاء والتضرّع . و هذه المسألة والمعرفة الجزئيّة القلبيّة تنافيان كذلك صحّة ما يدّعونه .

والذين يدّعون المعرفة وإمكان المعرفة ، لا يقولون بأكثر من أنّ : هذه المعاني الإجماليّة للأسماء والصفات الإلهيّة جلّ جلاله ، التي تؤمنون بها قلبيّاً ، قد رأيناها نحن بطريق الكشف والشهود ، وبهذه القيود التنزيهيّة ، وتوصّلنا إلى حقائقها ، وهذه الحقائق المنكشفة لنا هي نفسها التي يحملها المحقّقون والمتكلّمون من الإماميّة رضوان الله تعالى عليهم

في عالم التصوّر والعقد القلبيّ ؛ والفرق بينها هو نفس الفرق بين **التصوّر والوجدان** . أو كما هو الفرق بين أن يعرف الفرد معنى الحلوى معرفة تطابق الواقع ، بشكل يتصوّر فيه الحالة وذلك بانتشار مذاق بعض الأجسام إلى أغشية سقف الفم ، وبين أن يتناول الحلوى مباشرة .

يمكن أن نعتبر الحالتين السابقتين متماثلتين من منظار معيّن ، وفي نفس الوقت ، أن نعتبرهما من منظار آخر ، منفصلتين تماماً ولا علاقة لإحداهما بالأُخرى .

فمثلاً ، يعتبر المتكلّمون نور الحقّ جلّ جلاله ظاهر ومُظهر ، ولكنّه ليس من قبيل نور الشمس أو القمر ... إلى آخره ، فالرسول صلّى الله عليه وآله يرى في سرّه وروحه حقيقة هذا الظاهر والمُظهر تتوضّح في تجلّي الاسم المبارك ، وطبقاً للتنزيه الذي ذكرناه : **لَا يُشْبِهُهُ نُورٌ مِنَ الأَنْوَارِ بَلْ أَجَلُّ مِنْ هَذَا التَّنْزِيهِ** ؛ وهذا ما نسمّيه بالمعرفة . وهذا التقريب هو من باب التمثيل ، وضرورياً أن يُقرّب من جهة ، حتّى لو بَعَّدَ من جهات أُخرى .

فمعرفة الاسم الظاهر للّه تبارك وتعالى لوليٍّ من الأولياء ، إذا حصلتْ بتجلّي الاسم الظاهر فيقول : **أَلِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لَكَ ؟!**

ويقول الإمام الصادق عليه السلام : **مَا رَأَيْتُ شَيْئَاً إِلَّا وَرَأَيْتُ اللَهَ قَبْلَهُ وَمَعَهُ وَبَعْدَهُ** ؛ فليس للإنسان بعد أن ينكر ذلك ، أو يأوّله على هذا المعنى (وقد أقرّ قلبه بذلك) ويسمّي ذلك تنزيهاً للّه تعالى عن أن يشاهد أحد حقائق أسمائه العظيمة .

نعم ، هذا طبيعيّ ، فالإنسان عدوّ ما يجهل .

وعلى أيّة حال ، فإذا كان عزم المؤمن على أن ينفي كلّ مسألة لا يصل الفهم البدويّ إليها ، فإنّه سيخرج عن دائرة الإيمان ، بل ـ وحسب

قول الإمام الصادق عليه السلام ـ فهو إن لم يُقرّ بعد التأمّل والبحث ، وأصرّ على الردّ والإنكار ، واتّخذهما نهجاً ومذهباً له ، فهو خارج عن دائرة الإيمان .

وحريٌّ بالإنسان في غمرة هذه المسائل ، إذا استعصى عليه أمرٌ في كلمات الأنبياء والأولياء والعلماء الأعلام ولم يتبيّن كنهه ، أن يتضرّع إلى واهب العلم والعقل ، ويُخلص نيّته ، ويتأمّل في كلماته ، وإذا أُتيحت له الفرصة فليسأل من أتقياء العلماء ، فإنّ خالق الكون سيمنّ عليه بفهمها ، أو يريه سبيل فهمها .

ووجود هذه المسائل الرفيعة والأسرار الربّانيّة في الدين الحقّ ، أمر مفروغ منه ، ولكنّ الكلّ يدرك ، حتّى المتوغّلين منهم في جمودهم ، بأنّ السبيل إلى ذلك الفهم ، هو بتزكية النفس والتقوى والرياضة الشرعيّة ، فبهذا كلّه تضعف القوّة الحيوانيّة ، وتنمو القوّة الروحانيّة والإيمانيّة ، عندها ترى بصيرة الإنسان نور الحقيقة (بالكشف والشهود) كما في قوله تعالى في الآية الكريمة : **وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**.[١]

وروي عن خاتم الرسل الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال ، إنّ كلّ فرد له عينا السرّ يُبصر بهما الغيب ، فإذا أراد تعالى بعبده خيراً ، فتح له عينَي السرّ هاتين .

والآن يا أخي ! إذا عقدت الأمر لتكون من أهل المعرفة ، وتصبح إنساناً ، فتسبح في العالم الروحانيّ ، وتكون شريكاً للملائكة ، ورفيقاً للأنبياء والأولياء ، فاحزم أمرك ، وادخل من باب الشريعة ، وضَعْ عنك ما استطعتَ من الصفات الحيوانيّة ، وتخلّق بأخلاق الروحانيّين ، ولا ترضَ

١ـ صدر الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت.

بمقام الحيوان ، ولا تقنع بدرجة الجماد ، وغادر هذا المستنقع إلى الموطن الأصليّ في عوالم العليّين ، ومكان المقرّبين ، لكي تلمس حقيقة هذا الأمر الجسيم بالكشف والعيان ، وطريق الوصول إلى المنزلة العظمى هو بمعرفة النفس ، فابذل السعي الحثيث لعلّك تصل إلى معرفة نفسك ، فهي السبيل لمعرفة الله جلّ جلاله كما قد روي بأنّ **مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**.[1]

مع أنّ البعض يأخذ هذه الرواية ويُأوّلها على أساس التعليق بالمحال ؛ غافلين عن أنّ هذا المعنى قد ورد في أخبار أُخرى بالمعنى الأوّل .

كما وردَ في «مصباح الشريعة» أنّ رسول الله سُئل : ما العِلم الذي أُشيرَ إليه أن يُطلَبَ ولوكان في الصين ؟

قال : المراد من ذلك هو معرفة النفس التي فيها تكمن معرفة الربّ .

وهكذا فقد ورد في الخبر أنّهم سألوا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى مَعْرِفَةِ الرَّبِّ ؟!** فأجاب : **مَعْرِفَةُ النَّفْسِ !**[2]

وبالجملة ، فاعلم أنّ إنسانيّة الإنسان ليس في صورته ، فالصورة يمكن نقشها على باب الحمّام كذلك ، ولا في جسمانيّته ، فالحيوانات الخبيثة أيضاً لها أجسام ، ولا في شراهة الأكل والجماع ، ذلك أنّ الدبّ والخنزير أكثر شراهةً منك ، ولا حتّى في الغضب وشدّة الانتقام ، ذلك أنّ قوّة الغضب عند الكلب والذئب كبيرة ، بل إنّ الخصوصيّة الإنسانيّة التي تجعل منك إنسانياً وتُفتَقَد لدى نُظرائك ، هي العلم والمعرفة والأخلاق الفاضلة .

فلا يمكن الحصول على العلم والمعرفة إلّا بتحسين الأخلاق ، كما

---

١ و٢ـ «مصباح الشريعة» ص ٤١ ، الباب ٦٢ ، طبع وتعليق المصطفويّ .

قال : **لَيْسَ العِلْمُ فِي السَّمَاءِ لِيَنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَلَا فِي الأَرْضِ لِيَصْعَدَ لَكُمْ ؛ بَلْ مَجْبُولٌ فِي قُلُوبِكُمْ . تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الرُّوحَانِيِّينَ حَتَّى يَظْهَرَ لَكُمْ !**[1]

وتفصيل هذا الإجمال هو : هذا النموذج الإنسانيّ هو عجينة غريبة قد حوت جانباً من كلّ عوالم الإمكان ، بل وفيها أثر من كلّ الصفات والأسماء الإلهيّة جلّ جلاله . كتابٌ خطّه أحسن الخالقين بيمينه ، وهو صورة عن اللوح المحفوظ . وهو حجّة الله الكبرى ، وحامل الأمانة التي أبت السماوات والأرضون أن يحملنها ، وبعبارة أُخرى ، فلعالم المحسوسات وعالم المثال وعالم المعقول ، لكلّ هذه العوالم نصيبٌ وافر في هذا الإنسان . فإذا وظّف الإنسان عالَمَي الحسّ والمثال فيه لخدمة عقله ، أي بمعنى أنّه صبّ توجّهاته وهممه نحو عالمه ذاك . وأن يضع قوّته موضع التنفيذ ، فعندها سيوهب ملكوت عالَمي الشهادة والمثال ، وباختصار فسيدرك منزلة ومقاماً لم يخطرا ببال أحد لما فيهما من الشرف واللذّة والبهاء ومعرفة للحقّ تعالى .

بلى ، فما لا يمكن تصوّره بالخيال ، سيتحقّق .

وأمّا إذا وظّف عقله لخدمة عالم الحسّ والشهادة وهو عالم الطبيعة وعالم سجّين ، وجعله تابعاً لهما ، وآثر الانغماس في عالم الطبيعة ، و**أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ**[2] ، فالله أعلم بما سيصيبه من البلاء والشقاء والظلمة والشدّة بعد

١ـ «الكلمات المكنونة» ص ٢١٩ ، الطبعة الحجريّة ، سنة ١٣١٦ هجريّة قمريّة؛ وفي طبعة فراهاني ، ص ٢٤٨ : **وَقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (يَعْنِي أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) : «لَيْسَ العِلْمُ فِي السَّماءِ فَيَنْزِلَ إِلَيْكُمْ ، وَلَا فِي تُخُومِ الأَرْضِ فَيَخْرُجَ لَكُمْ ؛ وَلَكِنَّ العِلْمَ مَجْبُولٌ فِي قُلُوبِكُمْ . تَأَدَّبُوا بِآدَابِ الرُّوحَانِيِّينَ يَظْهَرْ لَكُمْ !» وَفِي كَلَامِ عِيسَى عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ مَا يَقْرُبُ مِنْهُ .**

٢ـ الآية ١٧٦ ، من السورة ٧ : الأعراف : **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى** ⇦

مفارقة الروح بدنه، لا سيّما في يوم القيامة الكبرى، **يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ**.[١]

وعموماً، إذا زكّى الإنسان أخلاقه، ووزن أعماله وحركاته وسكناته بميزان الشرع والعقل ـ لأنّ الشرع والعقل متطابقان ـ فإنّها تأمر الإنسان الاتّصاف بصفات وأخلاق الروحانيّين، وأن تكون حركاته وسكناته حافزاً للارتقاء إلى عوالم العليّين ومنزلة الروحانيّين السامية.

وإجمالاً، أن يحصل على المعرفة **بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ**[٢] عن طريق **المَعْرِفَةِ الوِجْدَانِيَّةِ**، عندها سيصبح إنساناً روحانيّاً لا جسمانيّاً، وبعبارة أُخرى: **صَارَ مَوْجُوداً بِمَا هُوَ إِنْسَانٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَوْجُوداً بِمَا هُوَ حَيَوَانٌ**.

كما روى علم الهدى[٣] في «الغرر والدرر» عن سلطان الولاية عليه

⇦ **ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**.

١ـ الآية ٩، من السورة ٨٦: الطارق.

٢ ـ الآية ١٣٦، من السورة ٤: النساء: **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا**.

٣ـ المقصود بعلم الهدى هو السيّد المرتضى، وله كتاب باسم «الأمالي» الذي يدعى بـ«الغرر والدرر»، والمراد به «غرر الفوائد ودرر القلائد» والذي أُشير إليه في «الذريعة» ج ١٦، ص ٤٤؛ ولكن بتفحّص ذلك الكتاب، لا نجد أثراً لتلك المواضيع. بل قد وردت في «الغرر والدرر» للآمديّ: عبد الواحد بن محمّد التميميّ، والذي قام بشرحه المحقّق البارع آقا جمال الخونساريّ؛ وقد ورد الشرح الوافي لها في الجزء ٤، ص ٢١٨ إلى ٢٢١، برقم ٥٨٨٥.

وقد نقل الحقير ذلك في الجزء ٣، المجلس ١٧، في قسم «معرفة المعاد» من سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة مع ملحق يتضمّن بياناً متيناً للأُستاذ العزيز الفقيد آية الله العلّامة الطباطبائيّ قدّس سرّه.

السلام في إجابته على سؤال عن العالم العلويّ حيث قال :

خَلَقَ الإنْسَانَ ذَا نَفْسٍ نَاطِقَةٍ ، إنْ زَكَّاهَا بِالعِلْمِ وَالعَمَلِ فَقَدْ شَابَهَتْ جَوَاهِرَ أَوَائِلَ عِلَلِهَا ، وَإذَا اعْتَدَلَ مِزَاجُهَا وَفَارَقَتِ الأَضْدَادَ فَقَدْ شَارَكَ بِهَا السَّبْعَ الشِّدَادَ.[١]

وهكذا في خبر آخر ، حيث يقول في بيان الخليفة (بعد بيانه لعدّة مواضيع) :

فَمَنْ تَخَلَّقَ بِالأَخْلَاقِ فَقَدْ صَارَ مَوْجُوداً بِمَا هُوَ إنْسَانٌ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَوْجُوداً بِمَا هُوَ حَيَوَانٌ ؛ فَقَدْ دَخَلَ فِي البَابِ المَلَكِيِّ الصُّورِيِّ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ هَذِهِ الغَايَةِ مَعْبَرٌ.

ومن دالت له هذه الدولة وامتاز على عالَمَي الماء والطين ، اللذين هما عالَمي الظلمة وأوصل نفسه إلى مقام معرفة النفس ، أي حقيقة النفس ، ورأى حقيقة نفسه وروحه اللتين هما من عالم النور ومفتاح معرفة الربّ بالكشف والعيان ، فسيرى نفسه من المجرّدات ليس إلّا .

وحينئذٍ سينجو من الحجب الظلمانيّة ، ولن تبقى بينه وبين الوصول إلى المقام الذي يمكن فيه معرفة الحقّ جلّ جلاله إلّا الحجب النورانيّة ، وخلال تلك الحجب والوصول إلى هذا المقام المنيع توجد لذّات وبهجات ولوازم وعوالم حيث لا يمكن لأحد ، غير أهلها ، أن يعلم كنه تلك العوالم واللوازم كما يجب .

١ـ وقبل هذه الفقرة ، ورد أنّه سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن العالم العلويّ ، أي عالم المجرّدات ، والذي هو من حيث المنزلة أعلى مرتبة من عالم الأجسام ، فأجاب : **صُوَرٌ عَارِيَةٌ عَنِ المَوَادِّ ، عَالِيَةٌ عَنِ القُوَّةِ وَالاسْتِعْدَادِ . تَجَلَّى لَهَا فَأَشْرَقَتْ ، وَطَالَعَهَا فَتَلَأْلَأَتْ ، وَأَلْقَى فِي هُوِيَّتِهَا مِثَالَهُ فَأَظْهَرَ عَنْهَا أَفْعَالَهُ .**

ولو افترضنا أنّ شخصاً ما توصّل إلى اعتقاد ما بالعلم أو عن طريق البرهان مثلماكتب الشيخ الرئيس وغيره حول درجات العرفاء ، أو توصّل إلى ذلك بتقليد أهله ، فلا تزال هناك آلاف الفروقات بين هذا العلم والمعرفة ، وبين تلك المعرفة الشهوديّة والوجدانيّة التي تلقّاها عن أهلها ؛ واللذّة التي تحصل لأهلها عند مشاهدة هذه المراتب هي ذات اللذّة التي رواها «الكافي» عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول :

لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي فَضْلِ مَعْرِفَةِ اللَهِ ، مَا مَدُّوا أَعْيُنَهُمْ إِلَى مَا مَتَّعَ اللَهُ بِهِ الأَعْدَاءَ مِنْ زَهْرَةِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنِعْمَتِهَا ، وَكَانَتْ دُنْيَاهُمْ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِمَّا يَطَؤُونَهُ بِأَرْجُلِهِمْ ، وَلَيَتَنَعَّمُوا بِمَعْرِفَةِ اللَهِ تَعَالَى وَتَلَذَّذُوا بِهَا تَلَذُّذَ مَنْ لَمْ يَزَلْ فِي رَوْضَاتِ الجَنَّاتِ مَعَ أَوْلِيَاءِ اللَهِ.

إِنَّ مَعْرِفَةَ اللَهِ أُنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ ، وَصَاحِبٌ مِنْ كُلِّ وَحْدَةٍ ، وَنُورٌ مِنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ ، وَقُوَّةٌ مِنْ كُلِّ ضَعْفٍ ، وَشِفَاءٌ مِنْ كُلِّ سُقْمٍ[1] ـ انتهى .

وقال في «مصباح الشريعة» في معرض تعريفه للعارف :

العَارِفُ شَخْصُهُ مَعَ الخَلْقِ وَقَلْبُهُ مَعَ اللَهِ ، وَلَوْ سَهَى قَلْبُهُ عَنِ اللَهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَمَاتَ شَوْقاً إِلَيْهِ.

وَالعَارِفُ أَمِينُ وَدَائِعِ اللَهِ ، وَكَنْزُ أَسْرَارِهِ وَمَعْدِنُ نُورِهِ ، وَدَلِيلُ رَحْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَمَطِيَّةُ عُلُومِهِ ، وَمِيزَانُ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ. قَدْ غَنِيَ عَنِ الخَلْقِ وَالمُرَادِ وَالدُّنْيَا ، وَلَا مُونِسَ لَهُ سِوَى اللَهِ ، وَلَا مَنْطِقَ وَلَا إِشَارَةَ وَلَا نَفَسَ إِلَّا بِاللَهِ لِلَّهِ مِنَ اللَهِ مَعَ اللَهِ.

فَهُوَ فِي رِيَاضِ قُدْسِهِ مُتَرَدِّدٌ ، وَمِنْ لَطَائِفِ فَضْلِهِ إِلَيْهِ مُتَزَوِّدٌ.

١ـ «روضة الكافي» ص ٢٤٧ ، الحديث ٣٤٧ ، عن محمّد بن سالم ، عن أحمد بن ريّان عن أبيه ، عن جميل ، عن الإ مام.

وَالمَعْرِفَةُ أَصْلٌ وَفَرْعُهُ الإيمَانُ.[١]

وروي في «الكافي» و«التوحيد» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: **إنَّ رُوحَ المُؤْمِنِ لَأَشَدُّ اتِّصَالاً بِرُوحِ اللَهِ مِن اتِّصَالِ شُعَاعِ الشَّمْسِ بِهَا.**

وجاء في حديث قدسيّ متّفق عليه بين جميع أهل الإسلام، أنّه قال: **مَا يَتَقَرَّبُ إلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ. وَإنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا. إنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ.**[٢]

ويقول الخواجة نصير الدين قدّس سرّه:

العَارِفُ إذَا انْقَطَعَ عَنْ نَفْسِهِ وَاتَّصَلَ بِالحَقِّ، رَأَى كُلَّ قُدْرَةٍ مُسْتَغْرَقَةً فِي قُدْرَتِهِ المُتَعَلِّقَةِ بِجَمِيعِ المَقْدُورَاتِ، وَكُلَّ عِلْمٍ مُسْتَغْرَقاً فِي عِلْمِهِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيءٌ مِنَ المَوْجُودَاتِ، وَكُلَّ إرَادَةٍ مُسْتَغْرَقَةً فِي إرَادَتِهِ الَّتِي لَا يَتَأَبَّى عَنْهَا شَيءٌ مِنَ المُمْكِنَاتِ؛ بَلْ كُلُّ وُجُودٍ فَهُوَ صَادِرٌ عَنْهُ فَائِضٌ مِنْ لَدُنْهُ.

فَصَارَ الحَقُّ حِينَئِذٍ بَصَرَهُ الَّذِي بِهِ يَبْصُرُ، وَسَمْعَهُ الَّذِي بِهِ يَسْمَعُ، وَقُدْرَتَهُ الَّتِي بِهَا يَفْعَلُ، وَعِلْمَهُ الَّذِي بِهِ يَعْلَمُ، وَوُجُودَهُ الَّذِي بِهِ يُوجِدُ. فَصَارَ العَارِفُ حِينَئِذٍ مُتَخَلِّقاً بِأَخْلَاقِ اللَهِ بِالحَقِيقَةِ.[٣]

١ـ «مصباح الشريعة»، ص ٦٤، الباب ٩٥.

٢ـ فيما يخصّ هذا الحديث، فقد أسهبنا في شرحه في الجزء الأوّل من «معرفة الله» في البحثين ٩ و١٠.

٣ـ شرح «الإشارات» لابن سينا، مقامات العارفين، في الصفحة الثامنة قبل نهاية الكتاب، وهي الصفحة اليمنى، من الطبعة الحجريّة والتي لا تحمل ترقيماً، وجاء في ⇦

وقال أيضاً في «مصباح الشريعة»:

المُشْتَاقُ لَا يَشْتَهِي طَعَاماً وَلَا يَسْتَلِذُّ شَرَاباً وَلَا يَسْتَطِيبُ رُقَاداً وَلَا يَأْنَسُ حَمِيماً وَلَا يَأْوَى دَاراً وَلَا يَسْكُنُ عِمْرَاناً وَلَا يَلْبَسُ لَيِّناً وَلَا يَقِرُّ قَرَاراً، وَيَعْبُدُ اللَهَ لَيْلاً وَنَهَاراً رَاجِياً أَنْ يَصِلَ إِلَى مَا يَشْتَاقُ إِلَيْهِ، وَيُنَاجِيهِ بِلِسَانِ شَوْقِهِ مُعَبِّراً عَمَّا فِي سَرِيرَتِهِ، كَمَا أَخْبَرَ اللَهُ عَنْ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ فِي مِيعَادِ رَبِّهِ بِقَوْلِهِ:

«وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ».

وَفَسَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ حَالِهِ: أَنَّهُ مَا أَكَلَ وَلَا شَرِبَ وَلَا نَامَ وَلَا اشْتَهَى شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فِي ذِهَابِهِ وَمَجِيئِهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً شَوْقاً إِلَى رَبِّهِ.

فَإِذَا دَخَلْتَ مَيْدَانَ الشَّوْقِ فَكَبِّرْ عَلَى نَفْسِكَ وَمُرَادِكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَدَعِ المَأْلُوفَاتِ وَأَحْرِمْ عَنْ سِوَى مَشُوقِكَ وَلَبِّ بَيْنَ حَيَاتِكَ وَمَوْتِكَ- إلى آخره [1].

وروي في «علل الشرايع» عن خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وآله وسلّم:

إنَّ شُعَيْباً بَكَى مِنْ حُبِّ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَهُ عَلَيْهِ بَصَرَهُ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ [فَرَدَّ

⇦ شرح قول المصنّف:

إشارَةٌ: العرفانُ مبتدئٌ من تفريقٍ ونفضٍ وتركٍ ورفضٍ، مُمعِنٌ في جمعٍ هو جمعُ صفاتِ الحقِّ للذَّاتِ المريدةِ بالصِّدقِ، مُنتهٍ إلى الواحدِ ثمَّ وقوفٌ.

١- «مصباح الشريعة» ص ٦٥، باب ٩٨؛ وجاءت في نسخة العالم الفاضل المصطفويّ، **وَوَدِّعْ جَمِيعَ المَأْلُوفَاتِ**، ولكنّنا وحسب نسخة المرحوم الملكيّ نقلناها بلفظ **وَدَعْ**.

اللَهُ عَلَيْهِ] بَصَرَهُ.

فَلَمَّا كَانَتِ الرَّابِعَةُ أَوْحَى اللَهُ إلَيْهِ : يَا شُعَيْبُ ! إلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا مِنْكَ أَبَداً ؟! إنْ يَكُنْ هَذَا خَوْفاً مِنَ النَّارِ فَقَدْ أَجَرْتُكَ ؛ وَإنْ يَكُنْ شَوقاً إلَى الجَنَّةِ فَقَدْ أَبَحْتُكَ !

فَقَالَ : إلَهِي وَسَيِّدِي ! أَنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي مَا بَكِيتُ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَلَا شَوْقاً إلَى جَنَّتِكَ ، وَلَكِنْ عُقِدَ حُبُّكَ عَلَى قَلْبِي فَلَسْتُ أَصْبِرُ أَوْ أَرَاكَ !

فَأَوْحَى اللَهُ جَلَّ جَلَالُهُ : أَمَّا إذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سَأُخْدِمُكَ كَلِيمِي مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ.[1]

وورد في دعاء كميل عليه الرحمة :

وَهَبْنِي يَا إلَهِي وَسَيِّدِي وَمَوْلَايَ ! صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ ؟!

وجاء في المناجاة الشعبانيّة :

وَهَبْ لِي قَلْباً يُدْنِيهِ مِنْكَ شَوْقُهُ ، وَلِسَاناً يُرْفَعُ إلَيْكَ صِدْقُهُ، وَنَظَراً يُقَرِّبُهُ إلَيْكَ حَقُّهُ.

وقال أيضاً : **وَأَلْحِقْنِي بِنُورِ عِزِّكَ الأَبْهَجِ فَأَكُونَ لَكَ عَارِفاً وَعَنْ سِوَاكَ مُنْحَرِفاً.**

ونجد في دعاء أبي حمزة الثماليّ ما يلي :

وَإنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إلَّا يَحْجُبَهُمُ الآمَالُ السَّيِّئَةُ دُونَكَ.[2]

١ـ «علل الشرائع» للصدوق ص ٥٧ ، طبعة دار إحياء التراث العربيّ ، مع مقدّمة للعلّامة السيّد محمّد صادق بحر العلوم ، الطبعة الثانية.

٢ـ وورد في كتاب «نفائس الفنون» ج ٢ ، ص ٥٦ إلى ٥٨ ما يلي :

الفصل السادس : في ظهور حُجُب الروح الإنسانيّة بسبب تعلّقها بالبدن:

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إنَّ لِلَّهِ تَعَالَى سَبْعِينَ أَلْفَ حِجَابٍ مِنْ نُورٍ ⇦

.....

⇦ **وَظُلْمَةٍ**.

اعلم أنّهم لمّا كانوا قد نسبوا الروح الإنسانيّة إلى عالم القالب والظلمة بعد قربها من الحقّ عزّ وجلّ ، وأمرّوها من خلال سبعين ألف عالم ، وأرفقوها زبدة وخلاصة كلّ عالم من تلك العوالم، حتّى صارت بالقالب الذي هو عليه متلبّسة بسبعين ألف حجاب نورانيّ وظلمانيّ ، أمّا الحجب النورانيّة فمنشؤها العالم الروحانيّ ، وأمّا الحجب الظلمانيّة، فمنشؤها العالم الجسمانيّ.

فالتفاتها إلى أيّ شيء في أيٍّ من تلك العوالم ، وإن كان قد جعلت منها وسيلة للكمال، إلّا أنّها مقارنة مع حال أيٍّ منها ، إلّا أنّ الروح قد صيّرت كلّ التفاتة حجاباً لها ؛ وبسبب تلك الحجب، قد حرمت من رؤية الملكوت ، ومشاهدة جمال اللاهوت ، ومن لذّة التحدّث إلى الحقّ تعالى شأنه ، أو التشرّف بقربه والحظوة بكرامته ، فبذلك هوت من قرب أعلى عليّين إلى طبيعة أسفل سافلين.

مع أن الروح كانت تحظى ولآلاف من السنين بشرف القرب في خلوة خاصّة مباشرة من الحقّ تعالى لكنّ الحجب أنستها تلك الحالة تماماً في هذه الأيّام المعدودة، ومتى أرادت أن تتذكّر حالتها تلك ، لم تسعفها الذاكرة في ذلك ، فها هي قد ابتليت بآفة الحُجب، إذ لم تكن نسّاءة كما هي الحال بها الآن ، وما استبدلت إقبال الأُنس عليها بإدبار الوحشة. وما كانت لتُدعى بالإنسان إلّا لسابق أُنسها بالحقّ تعالى جلّت عظمته.

ولهذا ، فحينما يخبر الله عزّ شأنه عن زمان سابق لوجود الآدميّ ، فهو يُطلق عليه اسم الإنسان، كقوله تعالى:

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا.

فلمّا التحق بهذا العالم ونسي ذلك القرب والأُنس ، حينئذٍ أطلق عليه اسماً آخر يناسبه، حيث قال : **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ**.

ومن هنا قال للرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : **وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّـٰىِٕ ٱللَّهِ**. أي ذكّر هذا الجمع الذي شُغِل بالدنيا بأيّامٍ كان في حضرته تعالى وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، علّ نوازع الشوق تعتمل في قلوبهم إلى جنابه تعالى فيحزموا أمتعتهم مرّة أُخرى شوقاً إلى أصله وحنيناً إلى موطنه الحقيقيّ . **لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**.

فإذا هاجت في القلب محبّة ذلك الموطن الأصليّ ، فهو عين الإيمان ، حيث إنّ : ⇦

فيا عزيزي ! لو قُدّر لي أن أجمع عبارات كهذه صريحة في المعرفة والمحبّة والوصول إلى مقام القرب والوصال المعنويّ لألّفتُ كتاباً في ذلك ، لا سيّما في أدعية ومناجاة أئمّة الهدى . ومانقلتُ ها هنا إنّما هي أخبار ذات أسناد موثوقة ومعتبرة وقد أيّدها علماء الإماميّة ، وهناك الكثير من هذا القبيل ، ومنها مثلاً مقدار ما ورد في الأخبار من تجلّيه جلّ جلاله بالأسماء وبنور العظمة ، وفي الأدعية ، وأهمّ من ذلك كلّه ما ورد في القرآن الكريم .

فجميع العلماء قرأوا دعاء السمات ، وما أكثر ما ورد في الأدعية من عبارات : **وَارْزُقْنِي النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ** ، وفي بعضها **وَلَا تَحْرِمْنِي النَّظَرَ إِلَى وَجْهِكَ الكَرِيمَ** . وكذلك ما ورد في المناجاة الخمس عشرة من التصريح

⇦ **حُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإيمَانِ** ، وإذا رجعوا إلى الموطن الأصليّ ، فذاك مقام الإحسان، **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ**. وإذا تجاوزوا ذلك الموطن الأصليّ ، فتلك مرتبة العرفان، **وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُولَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ**. وإذا دخلوا إلى حضرة البارئ عزّ وجلّ ، فهي درجة العيان، **فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** . وما يلي ذلك فلا حدّ للوصف، ولاعالم للبيان. **طُوبَى لِمَنْ عَرِفَ مَأْوَاهُ وَلَمْ يَحْجُبْهُ شَيءٌ عَمَّا وَرَاهُ .**

وأمّا إذا هاجت في القلب محبّة ذلك الموطن الأصليّ ولم يبادروا بالرجوع إليه، وشغف القلب بنعيم هذه العالم ، وخُدِع بزخارف وأباطيل الدنيا ، فقد استقرّ في سجن سرمديّ وخسران أبديّ ، **فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ .**

وأمّا الغرض من وضع الحُجُب فهو للإبقاء على نسل بني آدم وتناظم العالم ، فلولا وقوعك في حبائل الحجب ، ما انغمست في الأُمور الدنيويّة وخلدت إلى العالم السفليّ ، كما هو ملاحظ عند بعض السالكين ، فحين ينزعون الحجاب عنهم أثناء السلوك ويتوجّهون إلى ذلك القرب والشرف الرفيع ، ينصرفون إلى عالم القالب من غمرة الفرح وشدّة شوق الكمال، أو يهوون في عالم الحيرة من فرط الغيرة ، فيُعرضون عن الدنيا وما فيها، ويتخلّصوا من نير العبادة وعناء الخلوة.

بالوصول و النظر واللقاء والقرب والمعرفة ، وبالرغم من أنّني لم أذكرها بسبب عدم ثبوت سند لها ، إلّا أنّها جميعاً ، تعتبر حجّة لدى مقلّدي العلماء الأعلام .

فلِمَ ذلك ؟ ذلك أنّ العلماء يتلون تلك المناجاة ويؤيّدون مضامينها . كذلك كلّ تلك التصاريح الواردة في ملحق دعاء عرفة المنسوب إلى سيّد الشهداء عليه الصلاة والسلام ، ومواظبة العلماء الأعلام على قراءتها ، إلّا أنّي لم أذكرها لعدم ثبوتها .

وقد أوردنا في البداية ، أنّ حمل هذه التعابير على حصول الثواب ، مخالف للنصّ ، وإذا كانوا قد فسّروا أحياناً في الأخبار ، الرؤية واللقاء بالثواب ، ذلك بسبب أنّ السائل عن الرؤية لم يكن يدرك حينها إلّا الرؤية بالعين ؛ كمّا فسّر الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم خُلّة الخليل عليه السلام بغير معنى المحبّة وذلك جواباً على بعض السائلين .

حيث إنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يفسّر ذلك بهذا المعنى ، لكفر السائل ، لأنّه لم يكن ليفقه معنى الخلّة إلّا في إطار المحبّة بين البشر . وهو بالحقيقة كفر .

نعم ، وإذا تطلّعت لأكثر ممّا ذكر ، فراجع أدعية ومناجاة أئمّة الهدى عليهم الصلاة والسلام ، والأخبار الواردة في ثواب الأعمال . مثل دعاء رجب الذي رواه السيّد ابن طاووس عليه الرحمة بسند معتبر في «الإقبال» بتوقيع الإمام المهديّ أرواح العالمين فداه ، الذي كان يقرأه حتماً . يقول :

اللَهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَانِي جَمِيعِ مَا يَدْعُوكَ بِهِ وُلَاةُ أَمْرِكَ المَأْمُونُونَ عَلَى سِرِّكَ .

إلى أن قال :

وَبِمَقَامَاتِكَ الَّتِي لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَكَ إلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ ، رَتْقُهَا

وَفَتْقُهَا بِيَدِكَ.[1]

ولاحظ أدعية ليالي الشهر المبارك ! وانظر ! **آهِ آهِ ! شَوْقاً إِلَى مَنْ يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ.**

وانظر في أخبار الثواب إلى حديث المعراج الذي روي في «الوافي» عن العلماء الأعلام حيث قال : **يَا أَحْمَدُ !** إلى أن يقول :

قَالَ : يَا رَبِّ مَا أَوَّلُ العِبَادَةِ ؟!

قَالَ : الصَّمْتُ وَالصَّوْمُ . تَعْلَمُ يَا أَحْمَدُ مَا مِيرَاثُ الصَّوْمِ ؟!

قَالَ : لَا ، يَا رَبِّ !

قَالَ : مِيرَاثُ الصَّوْمِ قِلَّةُ الأَكْلِ ، وَقِلَّةُ الكَلَامِ ، وَالعِبَادَةُ.

الثَّانِيَةُ الصَّمْتُ ؛ وَالصَّمْتُ يُورِثُ الحِكْمَةَ ؛ وَيُورِثُ الحِكْمَةُ

١ـ هذا الدعاء من أدعية شهر رجب وهو قد أخرج من الناحية المقدّسة . وقد رواه كلّ من الشيخ الطوسيّ في «مصباح المتهجّد» ص ٥٥٩ ، الطبعة الحجريّة ؛ والشيخ الكفعميّ في الطبعة الحجريّة من كتابه «المصباح» . ص ٥٢٩ ؛ وفي كتاب الأدعية «البلد الأمين» ص ١٧٩ ، الطبعة الحجريّة؛ والسيّد ابن طاووس في «الإقبال» ص ٦٤٦ الطبعة الحجريّة؛ والعلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٢٠ ، ص ٣٤٣ ، الطبعة القديمة (الكمبانيّ).

وقد فنّده العالم المعاصر آية الله المحدّث والخبير في علم الرجال الشيخ محمّد تقي الشوشتريّ رحمة الله عليه في كتاب «الأخبار الدخيلة» ص ٢٦٣ إلى ٢٦٥ ، واعتبره من جملة الافتراءات.

وقد قمنا بتفنيد الأدلّة والشواهد التي استدلّ بها لإثبات تلفيق الدعاء ، وذلك أثناء حياته، ولقد أثبتنا بأنّها كلّها واهية . وقد سجّلت كلّ ذلك في إحدى دفاتري في ستّة عشر صفحة من القطع الوزيريّ ، لصيانتها من الضياع ونشرها في الوقت المناسب.

وكان أنسب وقت لها هو أن نوردها ضمن شرح كلام آية الله الملكيّ التبريزيّ أعلى الله مقامه، ولكن لأنّ إيرادها ضمن كتاب «معرفة الله» هنا كان غير مناسب ، وأنّ هذا الشرح سيشغل حجماً كبيراً ، لذا سنرفقه في آخر هذا الكتاب على شكل ملحق صغير. والله المستعان.

المَعْرِفَةَ؛ وَيُورِثُ المَعْرِفَةُ اليَقِينَ. وَإِذَا اسْتَيْقَنَ العَبْدُ لَا يُبَالِي كَيْفَ أَصْبَحَ بِعُسْرٍ أَمْ بِيُسْرٍ. فَهَذَا مَقَامُ الرَّاضِينَ!

فَمَنْ عَمِلَ رِضَايَ أُلْزِمُهُ ثَلَاثَ خِصَالٍ: أُعَرِّفُهُ شُكْراً لَا يُخَالِطُهُ الجَهْلُ، وَذُكْراً لَا يُخَالِطُهُ النِّسْيَانُ، وَمَحَبَّةً لَا يُؤْثِرُ عَلَى مَحَبَّتِي مَحَبَّةَ المَخْلُوقِينَ!

فَإِذَا أَحَبَّنِي أَحْبَبْتُهُ وَحَبَّبْتُهُ إِلَى خَلْقِي وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ إِلَى عَظَمَتِي وَجَلَالِي! فَلَا أُخْفِي عَلَيْهِ عِلْمَ خَاصَّةِ خَلْقِي!

فَأُنَاجِيهِ فِي ظُلَمِ اللَّيْلِ وَضَوْءِ النَّهَارِ حَتَّى يَنْقَطِعَ حَدِيثُهُ مَعَ المَخْلُوقِينَ وَمُجَالَسَتُهُ مَعَهُمْ وَأُسْمِعُهُ كَلَامِي وَكَلَامَ مَلَائِكَتِي وَأُعَرِّفُهُ سِرِّيَ الَّذِي سَتَرْتُهُ مِنْ خَلْقِي ـ إلى أن قال:

ثُمَّ أَرْفَعُ الحُجُبَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَأُنَعِّمُهُ بِكَلَامِي وَأُلَذِّذُهُ بِالنَّظَرِ إِلَيَّ ـ إلى أن قال:

وَلَأَجْعَلَنَّ مُلْكَ هَذَا العَبْدِ فَوْقَ مَلِكِ المُلُوكِ حَتَّى يَتَضَعْضَعَ لَهُ كُلُّ مَلِكٍ وَيَهَابَهُ كُلُّ سُلْطَانٍ جَائِرٍ وَجَبَّارٍ عَنِيدٍ وَيَتَمَسَّحَ لَهُ كُلُّ سَبُعٍ ضَارٍّ، وَلَأُشَوِّقَنَّ إِلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَا فِيهَا، وَلَأَسْتَغْرِقَنَّ عَقْلَهُ بِمَعْرِفَتِي، وَلَأَقُومَنَّ لَهُ مَقَامَ عَقْلِهِ، ثُمَّ لَأُهَوِّنَنَّ عَلَيْهِ المَوْتَ وَسَكَرَاتِهِ وَحَرَارَتَهُ وَفَزَعَهُ حَتَّى يُسَاقَ إِلَى الجَنَّةِ شَوْقاً.

وَإِذَا نَزَلَ بِهِ مَلَكُ المَوْتِ يَقُولُ: مَرْحَباً بِكَ! فَطُوبَى لَكَ! طُوبَى لَكَ! إِنَّ اللَهَ إِلَيْكَ لَمُشْتَاقٌ!

اعْلَمْ يَا وَلِيَّ اللَهِ! أَنَّ الأَبْوَابَ الَّتِي كَانَ يَصْعَدُ مِنْهَا عَمَلُكَ تَبْكِي عَلَيْكَ! وَأَنَّ مِحْرَابَكَ وَمُصَلَّاكَ يَبْكِيَانِ عَلَيْكَ!

فَيَقُولُ: أَنَا رَاضٍ بِرِضْوَانِ اللَهِ وَكَرَامَتِهِ؛ وَيَخْرُجُ الرُّوحُ مِنْ بَدَنِهِ كَمَا تَخْرُجُ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ. وَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَقُومُ عِنْدَ رَأْسِهِ، بِيَدَيْ كُلِّ مَلَكٍ

كَأْسٌ مِنْ مَاءِ الكَوْثَرِ وَكَأْسٌ مِنَ الخَمْرِ يَسْقُونَ رُوحَهُ حَتَّى يَذْهَبَ سَكْرَتُهُ وَمَرَارَتُهُ وَيُبَشِّرُونَهُ بِالبِشَارَةِ العُظْمَى ، وَيَقُولُونَ: طِبْتَ وَطَابَ مَثْوَاكَ ! إِنَّكَ تَقْدِمُ عَلَى العَزِيزِ الكَرِيمِ الحَبِيبِ القَرِيبِ !

فَيَطِيرُ الرُّوحُ مِنْ أَيْدِي المَلَائِكَةِ فَيَسْرَعُ إِلَى اللَهِ فِي أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ ؛ فَلَا يَبْقَى حِجَابٌ وَلَا سِتْرٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَهِ تَعَالَى. وَاللَهُ تَعَالَى إِلَيْهَا لَمُشْتَاقٌ. فَتَجْلِسُ عَلَى عَيْنٍ عَنْ يَمِينِ العَرْشِ.

ثُمَّ يُقَالُ لَهَا : أَيَّتُهَا الرُّوحُ ! كَيْفَ تَرَكْتِ الدُّنْيَا ؟!

فَتَقُولُ : إِلَهِي وَ سَيِّدِي ! وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَا عِلْمَ لِي بِالدُّنْيَا ! أَنَا مُنْذُ خَلَقْتَنِي إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ خَائِفٌ مِنْكَ !

فَيَقُولُ اللَهُ : صَدَقْتَ ! كُنْتَ بِجَسَدِكَ فِي الدُّنْيَا وَبِرُوحِكَ مَعِي ! فَأَنْتَ بِعَيْنِي أَعْلَمُ سِرَّكَ وَعَلَانِيَتَكَ ! سَلْ أُعْطِكَ وَتَمَنَّ عَلَيَّ فَأُكْرِمْكَ !

هَذِهِ جَنَّتِي فَتَبَحْبَحْ فِيهَا ، وَهَذَا جِوَارِي فَاسْكُنْهُ !

فَتَقُولُ الرُّوحُ : إِلَهِي عَرَّفْتَنِي نَفْسَكَ فَاسْتَغْنَيْتُ بِهَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ ! وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ لَوْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ أُقَطَّعَ إِرْباً إِرْباً أَوْ أُقْتَلَ سَبْعِينَ قَتْلَةً بِأَشَدِّ مَا يُقْتَلُ بِهِ النَّاسُ لَكَانَ رِضَاكَ أَحَبَّ إِلَيَّ ـإلى أن قال :

قَالَ اللَهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَحْجُبُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ حَتَّى تَدْخُلَ عَلَيَّ أَيَّ وَقْتٍ شِئْتَ وَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِأَحِبَّائِي !

ويقول في تفسير **الحياة الباقية** بعد ذلك: وسأفعل كذا وكذا بصاحبها. إلى أن يقول :

وَأَفْتَحُ عَيْنَ قَلْبِهِ وَسَمْعَهُ حَتَّى يَسْمَعَ بِقَلْبِهِ مِنِّي وَيَنْظُرَ بِقَلْبِهِ إِلَى عَظَمَتِي وَجَلَالِي.

ويقول أيضاً في هذا الحديث :

إِنَّ أَدْنَى مَا أُعْطِي الزَّاهِدِينَ فِي الآخِرَةِ أَنْ أُعْطِيَهُمْ مَفَاتِيحَ الجَنَانِ

كُلَّهَا حَتَّى يَفْتَحُوا أَيَّ بَابٍ شَاءُوا . وَلَا أَحْجُبُ عَنْهُمْ وَجْهِي وَلَأُنَعِّمَنَّهُمْ بِأَنْوَاعِ التَّلَذُّذِ مِنْ كَلَامِي.

إلى أن قال :

وَأَفْتَحُ لَهُمْ أَرْبَعَةَ أَبْوَابٍ : بَابٌ تُدْخَلُ عَلَيْهِمُ الهَدَايَا مِنْهُ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، وَبَابٌ يَنْظُرُونَ مِنْهُ إِلَى كَيْفَ شَاءُوا.

ويقول كذلك في هذا الحديث في وصف أصحاب الآخرة :

وَلَأَرْفَعَنَّ الحُجُبَ لَهَا دُونِي . ويقول : وَلَا يَلِي قَبْضَ رُوحِهِ غَيْرِي ؛ وَأَقُولُ عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ : مَرْحَباً وَأَهْلاً بِقُدُومِكَ عَلَيَّ.[1]

فكلّ ما رويتهُ هنا كان روايات صحيحة ومعتبرة ، ولو توسّعتُ في

١ـ أصل هذا الحديث موجود في كتاب «إرشاد القلوب في المواعظ والحِكم» النفيس لمؤلّفه أبي محمّد حسن بن أبي الحسن محمّد الديلميّ ، وهو من أعاظم العلماء والمشايخ الزاهدين في القرن السابع . وفي نسخة مكتبة البوذرجمهريّ المصطفويّ ، عام ١٣٧٥ هجريّة جاء في آخر الكتاب الذي يختتم بحديث المعراج يا أحمد ، من ص ٢٧٨ إلى ٢٨٦ ؛ وفي نسخة مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ، في نهاية الجزء الأوّل ، من ص ١٩٩ إلى ٢٠٦ .

ويرويه المحقّق الملّا محمّد محسن الفيض الكاشانيّ في كتاب «الوافي» ضمن أبواب المواعظ، في باب مواعظ الله سبحانه ، ج ٣ ، ص ٣٨ إلى ٤٢ ، من القطع الرحليّ ، الطبعة الحجريّة، باسم أبي محمّد الحسين بن أبي الحسن بن محمّد الديلميّ في كتاب «إرشاد القلوب إلى الصواب» مرسلاً عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ، ورواه عن غير الديلميّ أيضاً مسنداً إليه ، عن أبيه ، عن جدّه أمير المؤمنين عليهم السلام ، حيث قال:

سأل الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله ربّه سبحانه ليلة المعراج قائلاً:

يَا رَبِّ ! أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ إلى آخر الحديث ، الشيّق والبليغ والمفصّل.

وكذلك رواه العلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» مجلّد الروضة (ج ١٧) نسخة الكمبانيّ ، ص ٦ إلى ٩ ، نقلاً عن «إرشاد القلوب» للديلميّ عن أمير المؤمنين عليه السلام. وعندها يقول المجلسيّ بعد سرد الحديث : لقد عثرتُ على سندين لهذا الحديث، ويقوم بشرح هذين السندين.

ذلك قليلاً ، وذكرتُ ما ورد في أخبار داود ، وتلك الموجودة في المناجاة الخمس عشرة وتلك الموجودة أيضاً في المناجاة الملحقة لدعاء عرفة الذي رواه السيّد قدّس سرّه في «الإقبال» والعلّامة قدّس سرّه في «المزار» ، فهذه لوحدها هي أكثر من كونها متواترة .

وروي في حديث الصلاة ، حيث يقول في عبارة القراءة : يرتقي بإزاء كلّ آية درجة من فلان وفلان ، إلى أن قال : **وَدَرَجَةً مِنْ نُورِ رَبِّ العِزَّةِ** ، وروي في حديث لقاء المؤمن في «المستدرك» من مجموعة الشهيد نقلاً عن كتاب «الأنوار» لأبي عليّ محمّد بن همّام ، إلى حيث قال :

أُشْهِدُكُمْ عِبَادِي بِأَنِّي أُكْرِمُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى نُورِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيائِي !

وروي في حديث ثواب الجهاد في «التهذيب» حيث يُحصي فيه الخصال السبع للشهيد ، إلى أن قال :

السَّابِعُ أَنْ يَنْظُرَ فِي وَجْهِ اللهِ ، وَإِنَّهَا لَرَاحَةٌ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَشَهِيدٍ .[1]

وورد في حديث صحيح في ثواب سجدة الشكر في الصلوات الواجبة ما يلي :

إِنَّ العَبْدَ إِذَا صَلَّى وَسَجَدَ سَجْدَةَ الشُّكْرِ فَتَحَ الرَّبُّ تَعَالَى الحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَلَائِكَةِ ، فَيَقُولُ : يَا مَلَائِكَتِي ! انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي ؛ أَدَّى فَرِيضَتِي وَأَتَمَّ عَهْدِي ثُمَّ سَجَدَ لِي شُكْراً عَلَى مَا أَنْعَمْتُ بِهِ عَلَيْهِ !

مَلَائِكَتِي ! مَاذَا لَهُ ؟!

فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ : يَا رَبَّنَا رَحْمَتُكَ ! ثُمَّ يَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى : ثُمَّ مَاذَا ؟!

فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ : يَا رَبَّنَا كِفَايَةُ مُهِمِّهِ ! فَيَقُولُ الرَّبُّ : ثُمَّ مَاذَا ؟!

فَلَا يَبْقَى شَيءٌ مِنَ الخَيْرِ إِلَّا قَالَتْهُ المَلَائِكَةُ . فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا مَلَائِكَتِي !

١ـ «تهذيب الأحكام» ج ٦ ، ص ١٢٢.

ثُمَّ مَاذَا !

فَيَقُولُ المَلَائِكَةُ : يَا رَبَّنَا لَا عِلْمَ لَنَا !

فَيَقُولُ اللَهُ تَعَالَى : لَأَشْكُرَنَّهُ كَمَا شَكَرَنِي ، وَأُقْبِلُ عَلَيْهِ بِفَضْلِي ، وَأُرِيهِ وَجْهِي ![1]

وورد في ثواب مَن يُحرم البصر ، حيث قال : **وَأُرِيكَ وَجْهِي**.

وورد كذلك في رواية ضيافة أصحاب الجنّة خبراً مفاده أنّه بعد قراءة القرآن يرجون الاستماع لصوت البارئ ، فيُمَنُّ عليهم بالإجابة ، ومن فرط التلذّذ بالاستماع ، يخرّون مغشيّاً عليهم طويلاً ، وبعد استفاقتهم ، يطلبون التشرّف برؤية جمال الجميل فيتجلّى نور يخرّون على أثره مغشيّاً عليهم ؛ فيظلّون على هذه الحال حتّى تشتكي الحور العين من ذلك .

وفي مكان آخر من نفس الحديث ، يقول في ثواب الذين يحفظون ألسنتهم عن اللغو وبطونهم من التخمة .

أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً وَأُكَلِّمُهُمْ كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ.

فكُن منصفاً يا عزيزي ، أيمكن لأحد من البشر إنكار كلّ هذه الآيات والأخبار والأدعية الواردة بتعابير مختلفة ؟

إذا كنت تبحث عن سند موثوق ، فلو قيل إنّ درجة التواتر تبلغ الأربعين لأتيتك بخمسمائة بل بألف ، وأمّا القرآن فلا يحتاج لسند ، وإذا ابتغيت الدلالة ، فلا أبلغ في ذلك من النصّ ، بل إنّ دلالات بعض هذه الألفاظ المرويّة لا شكّ ولا محمل ولا احتمال مجازيّ فيها البتة .

وعلى الإنسان إدراك أنّ لقاءه جلّ جلاله لا يشبه لقاء الممكن ، وأنّ

١ـ «تهذيب الأحكام» ج ٢ ، ص ١١٠ ؛ و«من لا يحضره الفقيه» ج ١ ، ص ٣٣٤، من انتشارات مكتبة الصدوق.

رؤيته لا تكون بالعين ، أو مثل رؤية الجسمانيّات ، بل إنّ الرؤية القلبيّة أيضاً منزّهة عن الكيفيّة في رؤية المتخيّلات ، وحتّى الرؤية العقليّة منزّهة عن الكيفيّة في رؤية المعقولات .كما قال عليه السلام في دعاء «الصحيفة العلويّة» :

وَتَمَثَّلَ فِي القُلُوبِ بِغَيْرِ مِثَالٍ تَحُدُّهُ الأَوْهَامُ أَوْ تُدْرِكُهُ الأَحْلَامُ .[1]

وكما قال السيّد ابن طاووس قدّس سرّه العزيز في «فلاح السائل» ، ص ١٠٧ و١٠٨ :

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَوْلَانَا جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَانَ يَتْلُو القُرْآنَ فِي صَلَاتِهِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ .

فَلَمَّا أَفَاقَ سُئِلَ : مَا الَّذِي أَوْجَبَ مَا انْتَهَتْ حَالُكَ إِلَيْهِ ؟!

١ـ عن «الصحيفة العلويّة» ، ص ١٦ ، الطبعة الحجرية القديمة ، وبخطّ فخر الأشراف، وهي من أدعيته عليه السلام في وصف وتعظيم الله سبحانه ، ومُستهلّه هو:

الحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلَ مَحْمُودٍ وَآخِرَ مَعْبُودٍ وَأَقْرَبَ مَوْجُودٍ ، البَدِيءِ بِلَا مَعْلُومٍ لِأَزَلِيَّتِهِ ، وَلَا آخِرَ لِأَوَّلِيَّتِهِ وَالكَائِنِ قَبْلَ الكَوْنِ بِلَا كِيَانٍ وَالمَوْجُودِ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِلَا عِيَانٍ وَالقَرِيبِ مِنْ كُلِّ نَجْوَى بِغَيْرِ تَدَانٍ . عَلَنَتْ عِنْدَهُ الغُيُوبُ وَضَلَّتْ فِي عَظَمَتِهِ القُلُوبُ ؛ فَلَا الأَبْصَارُ تُدْرِكُ عَظَمَتَهُ وَلَا القُلُوبُ عَلَى احْتِجَابِهِ تُنْكِرُ مَعْرِفَتَهُ .

تَمَثَّلَ فِي القُلُوبِ بِغَيْرِ مِثَالٍ تَحُدُّهُ الأَوْهَامُ أَوْ تُدْرِكُهُ الأَحْلَامُ . ثُمَّ جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ دَلِيلاً عَلَى تَكَبُّرِهِ عَلَى الضِّدِّ وَالنِّدِّ وَالشَّكْلِ وَالمِثْلِ ، فَالوَحْدَانِيَّةُ آيَةُ الرُّبُوبِيَّةِ ، وَالمَوْتُ الآتِي عَلَى خَلْقِهِ مُخْبِرٌ عَنْ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ .

إلى آخر الدعاء الذي ينمّ عن مدى جزالته البالغة ، والذي يدلّل على وجود الحقّ جلّ وعزّ ؛ وخصوصاً هذه الفقرات التي استشهد بها عارفنا المتألّه وعالمنا الصمدانيّ . وأيضاً قوله:

وَالكَائِنِ قَبْلَ الكَوْنِ بِلَا كِيَانٍ ، وَالمَوْجُودِ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِلَا عِيَانٍ ، وَالقَرِيبِ مِنْ كُلِّ نَجْوَى بِغَيْرِ تَدَانٍ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَا مَعْنَاهُ : «مَا زِلْتُ أُكَرِّرُ آيَاتِ القُرْآنِ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى حَالٍ كَأَنَّنِي سَمِعْتُهَا مُشَافَهَةً مِمَّنْ أَنْزَلَهَا عَلَى المُكَاشَفَةِ وَالعِيَانِ. فَلَمْ تَقُمِ القُوَّةُ البَشَرِيَّةُ بِمُكَاشَفَةِ الجَلَالَةِ الإِلَهِيَّةِ».

وَإِيَّاكَ يَا مَنْ لَا تَعْرِفُ حَقِيقَةَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَبْعِدَهُ أَوْ يَجْعَلَ الشَّيْطَانُ فِي تَجْوِيزِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ عِنْدَكَ شَكًّا ! بَلْ كُنْ مُصَدِّقاً ! أَمَا سَمِعْتَ اللَهَ يَقُولُ: «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا[1] ـ انتهى .

١ـ بما أنّ الكلام قد نحى بنا نحو مكاشفة الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فمن المناسب هنا أن نقوم بسرد أنواع المكاشفات عن العلّامة شمس الدين محمّدبن محمود الآمليّ الواردة في كتاب «نفائس الفنون» ج ٢ ، ص ٦٢ إلى ٦٥ ، فهو يقول:

الفصل التاسع : في المكاشفات وأنواعها :

اعلم أنّ حقيقة الكشف هي خروج الشيء من حجابه بوجه لم يكن مدركاً من قبل على هذا النحو.

ولا شكّ في أنّ السالك الصادق إذا ما توجّه نحو عالم الشريعة بدافع الإرادات من قعر الطبيعة، وآثر جادّة الطريقة على قانون المجاهدة والرياضة بخطى صادقة ، فإنّه سيوهب خلال مروره عبر كلّ حجاب من الحجب السبعين ألف ناظرة تناسب ذلك الموقف، وتُكشف له أحوال ذلك المقام ، وتتجلّى له معاني المعقول بمقدار ما يرتفع من الحُجُب ويصفو من العقل ويقف على أسرار المعقولات ، ويدعون ذلك **بالكشف النظريّ** ولا يمكن التعويل عليه كثيراً ، فليس كلّ ما تراه العينان يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان به ما لم يثبت بالتجربة والبرهان.

وتوقّف معظم الفلاسفة ، من الذين شمّروا عن ساعد الهمّة ، على تجريد العقل وإدراك المعقولات وقضوا العمر في ذلك ، واعتبروه الطريق إلى الهدف الحقيقيّ. والحقّ أنّه بسبب عدم معرفتهم المقصود الأصليّ ، فقد حرموا من المشاهد الأُخرى للمدركات وتنكّروا لها، فتاهوا في تيه الضلالة ، **فضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً.**

وإذا اجتاز كشف المعقولات ، بانتْ له المكاشفات القلبيّة والتي يُسمّونها بالكشف الشهوديّ ؛ وكُشفت هناك أنوار مُتعدّدة ، وبعدها تأتي المكاشفات السرّيّة التي يدعونها بالكشف الإلهاميّ ، وتتجلّى في هذا المقام جميع أسرار الخليقة وحِكمة وجود كلّ ⇦

. . . . . .

⇦ الأشياء وتَظهر بوضوح. ثمّ تأتي بعدها المكاشفات الروحيّة التي تُسمى بالكشف الروحيّ وتظهر، وتنكشف في أوّل هذا المَقام درجات الجنان وشواهد الرضوان، ومشاهدة الملائكة والتحدّث إليهم.

فلمّا تَصفو الروح تماماً وتنصقل من كلّ كدورات الجسم، تنكشف العوالِم اللامتناهية وتكون دائرة الأزل والأبَد نصب العين، وتزول الحُجُب الزمانيّة والمكانيّة؛ حتّى تتمثّل أمامه الموجودات والمراتب منذ بدء الخليقة فيرى كلّ ما سيكون ويحدث في المستقبل. ولهذا قال رسول‌الله صلّى الله عليه وآله: **لَا تَرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنِّي أَرَاكُمْ مِنْ أَمَامِي وَمِنْ خَلْفِي**.

إنّ معظم العادات الخارقة والتي يدعونها بالكرامات تظهر في هذا المَقام من جرّاء الإشراف على الخواطر والاطّلاع على الغيبيّات والعبور من فوق النار والماء والهواء وانطواء الأرض وغير ذلك، لكنّ هذا المعنى ليس له كثير اعتبار عند أرباب الحقيقة، لأنّه يُمثّل كذلك ذهنيّة أهل الضلال؛ كما سأل رسول الله صلّى الله عليه وآله هذا الصيّاد قائلاً: **مَا تَرَى ؟! قَالَ: أَرَى عَرْشاً عَلَى المَاءِ ! فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ عَرْشُ إِبْلِيسَ**. وما ورد في الأخبار من أنّ الدجّال سيقوم بإحياء الموتى هو من هذا القبيل. ولا يمكن لغير أهل الدين فَهم حقيقة الكرامات؛ ولا يمكن رؤية ذلك إلّا بعد الكشف الروحيّ في المكاشفات الخفيّة؛ لأنّ المسلم والكافر يمتلكان الروح على السواء. وأمّا الخفيّ فهي روح خاصّة يدعونها بالنور الجلاليّ ولا تُوهَب إلّا إلى خواصّه تعالى؛ كما قال تعالى: **كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ**، وقال في مطلق الروح: **يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ**. وقال في حقّ الرسول صلّى الله عليه وآله: **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا**، أي أنّني أهِبُ إلى بعض عبادي نوراً جلاليّاً خاصّاً حتّى يتمكّنوا بواسطته من العبور إلى عالَم الصفات.

وإذا صار القلب واسطة عالَم المُلك والملكوت، حيث يكون أحد وَجهَيْه نحو عالَم الملكوت والآخر في عالم المُلك، صار قابلاً لفيض النور والعقل والروح وذلك عبر وجهه في عالَم الملكوت، ويوصل بوجهه في عالَم المُلك آثار أنوار الروحانيّات والمعقولات إلى النفس والجسد. ويصير سرّ واسطة عالَم الروح والقلب، حتّى يستفيد من الفيض عليها ⇦

نعم ، فإذا أراد الإنسان الوصول إلى هذه العوالم بالكشف والشهود ، عليه أن يقدّر عظمة المقصود حقّ قدرها ، وأن يعلم ما يصبو إليه ، ومقدار قدرته ، حتّى يكون سعيه بمستوى ما يطلب .

فمن يسعى أن يكون رئيساً لقبيلة ليس كمن يسعى لامتلاك العالم ، ولكن لأنّ عظمة هذا المطلوب هي على قدر من الشرف والنور والبهاء والسلطان واللذّة بحيث لا يمكن تصوّرها لا سيّما من قبل الساذج ، وكلّ ما يتصوّره لا يساوي جزء من الألف من الحقيقة ، فإنّ عليه ـ عموماً ـ القياس بقدر معقولاته ومعلوماته .

فليفترض مثلاً ، أنّ ما يراه من الشرف في عالم الحقّ والشهادة ناشئ عن ذوي السطوة من أهل الدنيا ومن التقرّب إلى السلاطين ومن الملك ، بل ومن زعامة العالم بأسره ، ولينظر بعد ذلك سلطان السماوات وما له من العظمة والشرف ، ثمّ ليقس بعد ذلك بينهما . وليقارن عندها بين عالم المحسوس وعالم الملكوت الغيبيّ والجبروت وغيره . وحينئذٍ ليعد ويفكّر في ماهيّة سلطنة السلاطين ، ويقارنها بالسلطنة المعنويّة ، فسيرى عندئذٍ تفاهة أيّام دولة هؤلاء السلاطين التي لا تتجاوز بضعة سنين ، بالمقارنة مع

⇦ بواسطة ذلك الوجه الموجود في الروح ، وإيصال حقائق ذلك الفيض إليها عبر ذلك الوجه الموجود في القلب ؛ ويصير الخفيّ كذلك واسطة عالم الصفات الإلهيّة والروحانيّة، حتّى يكون قابلاً لمكاشفات الصفات الجلاليّة فيوصل صورة ذلك إلى عالَم الروحانيّة، وهذه كلّها يدعونها بالكشف الصفاتيّ .

وإذا كُشف جلالته في هذه الحال بالصفة العالميّة تمّ الحصول **عَلَى العِلْمِ اللَّدُنِّيِّ** ، وأمّا إذا كشفَ بالصفة الجلاليّة كان الفَناء الحقيقيّ ، وكذا القياس بالنسبة إلى سائر الصفات. وأمّا **الكشف الذاتيّ** فهذه أعلى المراتب وأسماها ولا يمكن حصرها بالكلمات والعبارت أو الإشارات. **وَجَعَلْنَا اللَّهُ مِنَ الفَائِزِينَ بِهِ** .

السلطان الأبديّ ، ومضافاً إلى ذلك فهي ليست بشيء يُذكر لما تحويه من آلاف العيوب وما تحمله من النواقص الكثيرة .

وأمّا السلطنة المعنويّة فهي السلطنة الحقيقيّة ؛ كما هي الحال في سلطنة الإنسان على أعضائه وقواه وخياله . فعلى سبيل المثال ، لينظر إلى السلطنة الأُخرويّة ، حيث ورد من جملة ما ورد من الأخبار في باب سلطنة أهل الجنّة ، حيث يأتونه بأمرٍ من الله تعالى يقول فيه :

جَعَلْتُكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ وَتَقُولُ لِلشَّيءِ : كُنْ فَيَكُونُ ![1]

وعموماً ، فإنّ تلك السلطنة التي وهبها خلّاق العالمين للإنسان الصحيح المشاعر في خلق الصور الخياليّة : قد تكرّم الله بمثلها على خواصّ عباده من الأنبياء والأولياء في هذه الدنيا ، أو على العامّة من الناس أو عموم أهل الجنّة في الآخرة ، وذلك بخلق وإيجاد الأعيان الخارجيّة بإذنه سبحانه وتعالى .

١ـ قد ورد في الحديث القدسيّ عن العلّام الخلّاق أنّه قال : **عَبْدِي أَطِعْنِي أَجْعَلْكَ مِثْلِي ! أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ ، أَجْعَلُكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ ! أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ ، أَجْعَلُكَ غَنِيًّا لَا تَفْتَقِرُ ! أَنَا مَهْمَا أَشَاءُ يَكُونُ ، أَجْعَلُكَ مَهْمَا تَشَاءُ يَكُونُ !**

وروى كعب الأحبار هذا الحديث بالصيغة التالية : **يَابْنَ آدَمَ ! أَنَا غَنِيٌّ لَا أَفْتَقِرُ ، أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيًّا لَا تَفْتَقِرُ ! يَابْنَ آدَمَ ، أَنَا حَيٌّ لَا أَمُوتُ ؛ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيًّا لَا تَمُوتُ ! أَنَا أَقُولُ لِلشَّيءِ كُنْ فَيَكُونُ ؛ أَطِعْنِي فِيمَا أَمَرْتُكَ تَقُولُ لِلشَّيءِ كُنْ فَيَكُونُ !** («كلمة الله» ص ١٤٠ ؛ وذكر في ص ٥٣٦ الكُتب التالية كمصادر للحديث: كتاب «عدّة الداعي» لأحمد بن فهد الحلّيّ عن كعب الأحبار ، وكتاب «مشارق أنوار اليقين» للحافظ رجب البرسيّ ، وكتاب «إرشاد القلوب» للحسن بن محمّد الديلميّ). ويقول في الصفحة ١٤٣: ورد في الحديث القدسيّ : **إنَّ لِلَّهِ عِبَاداً أَطَاعُوهُ فِيمَا أَرَادَ فَأَطَاعَهُمْ فِيمَا أَرَادُوا ، يَقُولُونَ لِلشَّيءِ كُنْ فَيَكُونُ** . (وفي ص ٥٣٧ نسب مصدره إلى كتاب «مشارق أنوار اليقين» للحافظ رجب البرسيّ).

وعليه يفسّر أهل المعرفة إعجاز الأنبياء والأئمّة عن هذا الطريق .

وباختصار ، فإذا قارن الإنسان أيّة مسألة بالعقل ، فإنّه سيرى بأنّ مراتب الأشياء وحدودها قُدّرت بحسبان وعلى أساس من العدل . وإذا نحّى العقل جانباً ، فحينئذٍ ستكون عنده الحكمة والباطل ، والنور والظلمة ، والخير والشرّ ، والشريف والوضيع سيّان .

وعلى هذا ، فيكون ما أوردناه من الكلام المختصر حول تبيان عظمة هذا الأمر والأُمور الأُخرى كافياً ، ولذا فإذا أردت أن تتصوّر لذّة وسعادة هذا الأمر ، فقد وصف أهل المعرفة درجة واحدة من درجات لذّات العالم الآخر بما يلي :

أنّ دار الحيوان والحياة الحقيقية **كَأَنَّهُ حَيَاةٌ تَغْلِي وَتَفُورُ** ، قد هيّأت لأهلها في كلّ لحظة ما طاب من اللذّات من غير أن تتداخل مع بعضها أو يطرأ عليها الكسر والانكسار فتتبدّل كيفيّتها : فمثلاً ، قد أتاحت لكلّ الأفراد من اللذّات من أطايب الأطعمة ، وهكذا المرئيّات والمسموعات والمشمومات والملموسات في أيّة لحظة من دون أن تؤثّر الواحدة على الأُخرى أو تُبطلها .

هذا ، في حين أنّ هذه اللذّات وهي لذّات حسّيّة تشكّل **جَنَّةُ النَّعِيم** ، فكيف بنا إذا اتّخذنا ذلك ميزاناً لمقارنتها مع لذّات وبهجات تجلّيات أنوار الجمال والجلال لصاحب الجمال والجلال سبحانه وتعالى ، فقد يكون ذلك كافياً لدفع الإنسان لبذل ما في وسعه من الجدّ والاجتهاد . وفي الأخبار عن الأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وردت إشارات إلى هذه العوالم . ففي الخبر ، مثلاً ، أنّ في الجنّة ماءً يحوي مذاق جميع المشروبات والمأكولات . وكذلك في حديث المعراج الآنف الذكر ، حيث يجيب على مقالة الحقّ جلّ جلاله : **هَذِهِ جَنَّتِي فَتَبَحْبَحْ فِيهَا !** بقوله : عندما عرّفتني

نفسك ، استغنيتُ عن كلّ شيء !

وما جاء كذلك في حديث الضيافة الذي مرّ ذكره ، حيث يغيبون عن وعيهم لتجلّي الحقّ تعالى ، ولا يستعيدونه أبداً حتّى تشتكي بالتالي الحور العين من ذلك فيُعيد لهم الربّ الجليل وعيهم .

فيا عزيزي ! ثابر حتّى تُمسك بعصمة الإيمان بالله ورسوله والأئمّة صلوات الله وسلامه عليهم ، وحتّى لا تعتبر الثواب والعقاب ، والجنّة والجحيم ، والقرب والبُعد كما هو حال ملاحدة هذا الزمان ضربٌ من الوهم .

وهذا الذي تمّ عرضه هو من باب ما خطر على قلب بشر ، وأمّا **وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ** فاستنتجه من كلّ ما سبق ! نعم :

ديوانه كنى هر دو جهانش بخشى

ديوانهٔ تو هر دو جهان را چه كند؟[1]

* * *

از دَرِ خويش خدايا به بهشتم مفرست

كه سر كوى تو از كون ومكان ما را بس[2]

* * *

خاک درت بهشت من ، مهر رخت سرشت من

عشق تو سرنوشت من ، راحت من رضای تو[3]

١ـ يقول : «إنْ تُعطه الدارين مُلكاً له جَنّ وفسد عقله ؛ لكن ما حاجة مَن جُنّ بك إلى تلك الدارين؟».

٢ـ يقول : «إلهي ! لا تُرسلني إلى جنَّتك بعد أن شمل وجودك كلّ شيء وأحاط بجميع ما في الكون».

٣ـ يقول : «إنّ تراب عتبة بابك (الطاهرة) هو جنّتي ، ونور وجهك الوضّاح هو ⇦

مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعاً فِي جَنَّتِكَ ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ ![1]

فقد سمعتَ في حديث النبيّ شعيب على نبيّنا وآله وعليه السلام ، حيث قال : لا أشكو من خوف النار ولا من حبّ الجنّة ولكنّي أشكو من البُعد عنك ، فها أنذا أصبر حتّى أنعم بلقائك !

وأنت قد سمعتَ من سيّد العارفين ورئيس المناجين ، حيث يقول في دعاء كميل عليه الرحمة :

وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَى عَذَابِكَ فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلَى فِرَاقِكَ ! وأمّا أنتِ ، يا نفسي الوقحة ! وأنتَ أيّها السامع البائس ! إذا كنتَ تُسلّم بهذه العوالم ، فأين أثر ذلك ؟! ولِمَ أنت ساكن ؟! لماذا لا تصعد إلى الجبال ؟! أو تهيمُ في البراري ؟! لماذا لا تلهج بـ : **وَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ** في

⇦ وجودي ، وحبُّك قضائي وقَدَري ، ورضاك راحتي وهنائي».

١ـ «مصباح الفلاح ومفتاح النجاح» للآخوند الملّا محمّد جواد الصافي الكلبايكانيّ ، ص ٧٤ ، الطبعة الحجريّة.

روى في «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٨٤ ، الحديث رقم (٥) ، عن علي بن إبراهيم ، عن أبيه ، عن ابن محبوب ، عن جميل ، عن هارون بن خارجة ، عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام : [**إنَّ**] **العُبَّادَ ثَلَاثَةٌ*** : **قَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ خَوْفاً فَتِلْكَ عِبَادَةُ العَبِيدِ ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى طَلَبَ الثَّوَابِ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأُجَرَاءِ ، وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ عَزَّ وَجَلَّ حُبّاً لَهُ فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ ؛ وَهِيَ أَفْضَلُ العِبَادَةِ .**

وجاء في «نهج البلاغة» باب الحِكَم ، الحكمة رقم ٢٣٧ ، ومن طبعة مصر ، مطبعة عيسى البابيّ الحلبيّ بشرح الشيخ محمّد عبده ، ج ٢ ، ص ١٨٩ : **وَقالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ ، وَإنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ العَبِيدِ ، وَإنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللَهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ .**

* ـ جاء في بعض النسخ : [**العِبَادَةُ ثَلَاثٌ**].

صباحك ومسائك ؟!

ولو كانت لك خطرات الظنون من ذلك ، لكان عليك أن تموت من الحسرة ؟! بل لو كنتَ تحتمل ذلك وتشكّ فيه ، للزِمَ أن يقضّ هذا الاحتمال مضجعك ؛ ويقطع عنك اللذّة بمباهج هذه الدنيا الدنيّة الفانية .

ردّد : **وَا حَسرَتَاهُ ! وَا حَسْرَتَاهُ ! وَا حَسْرَتَاهُ ! وَا ثُبُورَاهُ ! وَا حَيْرَتَاهُ ! يَا وَيْلَي ! يَا دَمَارَي ! يَا عَوْلِي ! يَا شِقْوَتِي !**

نعم ! فالإيمان ضعيف ، وزد على ذلك أنّ القلوب بحبّ الدنيا سقيمة ، وإلّا فإنّه يكفي الشكّ مع غياب الإيمان وحتّى مجرّد الاحتمال يفي بالغرض .

نَعُوذُ بِاللَهِ ، وَالمُشْتَكَى إِلَى اللَهِ ، وَإِلَى حَضْرَةِ رَسُولِ اللَهِ وَحَضْرَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَآلِهِمَا الطَّاهِرِينَ ، لَا سِيَّمَا إِلَى خَلِيفَةِ عَصْرِنَا ، وَإِمَامِ زَمَانِنَا ، وَسُلْطَانِنَا ، وَسَيِّدِنَا ، وَمَعَاذِنَا ، وَمَلَاذِنَا ، وَعِصْمَتِنَا ، وَنُورِنَا ، وَحَيَاتِنَا ، وَغَايَةَ آمَالِنَا ، أَرْوَاحُنَا وَأَرْوَاحُ العَالَمِينَ فِدَاهُمْ صَلَوَاتُ اللَهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .[1]

١ـ هذه الفقرات التي أوردها الحقير آنفاً نقلاً عن كتاب «رسالة في لقاء الله» لآية الحقّ وسند العرفان المرحوم آية الله الميرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ أعلى الله درجاته السامية، هي ما جاء في النسخة الخطّيّة التي استنسخها الحقير أيّام دراستي الدينيّة في البلدة الطيّبة قم في عام ١٣٦٨ هـ حيث إنّنا في العام ١٤١٥ ، أي قد مضى على ذلك ٤٧ عاماً ، والحقّ أنّ هذه العبارات وبقيّة ما تتضمّنه الرسالة والتي تنمّ عن نفس جيّاشة وحسرة حارقة ونيّة أصيلة للفقيد؛ هي ذات دفع وتأثير بليغين ، وأنّ مطالعتها والتأمّل في محتوياتها من قبل السالكين في سبيل الله ضروريّ .

خلال إقامتي أنا الحقير في النجف الأشرف لغرض الدراسة ، كنتُ أُطالع هذه الرسالة، وأغرف من بحرها الواسع .

ذات يوم استضفتُ أحد علماء الكاظميّة الذي كانت تربطني به صلة الرحم، وكان ⇦

.....

⇦ قد جاء إلى النجف في زيارة خاصّة ، فتباحثنا في مسألة توحيد الحقّ تعالى، فاستشهدتُ أثناء كلامي بحديث : **لَا مُؤَثِّرَ فِي الوُجُودِ إِلَّا اللَهُ**. فقال : لا وجود لهذا الحديث!

فقلتُ : لا بأس ، لا يوجد مثل هذا الحديث ، ولكن أليس مضمونه ، حيث إنّه من كلام أحد الحكماء، نابعاً من أساس وجذور الآيات والأحاديث ؟ وأضفتُ : يُستحسن أن تقرأ «رسالة في لقاء الله» التي استنسختها ـأنا الحقيرـ بيديّ حتّى يتسنّى لك إدراك جوهر المسألة!

فقال : كثيراً ما بحثتُ عنها ولكن لم أعثر عليها.

فأعطيته الرسالة التي في حوزتي على أن يطالعها في مدّة أُسبوع . فسافر إلى الكاظميّة وبحوزته الرسالة، وفي سفرة أُخرى له إلى النجف الأشرف سألته : كيف وجدت الرسالة ؟

فقال : متى ما تصفّحتُ تلك الرسالة ، جرى الدمع منّي حتّى أنتهي من مطالعتها.

نعم، إنّ هذه الرسالة أوّل ما طبعت على يد السيّد الحاجّ ميرزا خليل الكمرهاي ، وقد شابها التحريف والإضافة . وبعد ذلك تمّ تصوير تلك النسخة المطبوعة ، وطبعت بعد حذف بعض الملحقات منها وإدخال التحريف في المحتوى ؛ وبعد ذلك نشرها السيّد أحمد الفهريّ وذلك بإضافة مقالة آية الله الخمينيّ قدّس سرّه إليها ، وذلك في سلسلة منشورات «نهضت زنان مسلمان» (=نهضة النساء المسلمات) ما حوته هذه الطبعة من التحريف يعجز اللسان عن وصفه.

وفي عام ١٤٠٥ هـ.ق، قامت مؤسّسة (انتشارات هجرت) بطبعها ، ومع كونها أصحّ ممّا سبقها من الطبعات ، إلّا أنّها لم تخلو من التحريف ويأتي هذا بسبب النسخ المطبوعة التي كان لها تأثير جليّ على طباعتها.

وأرجو من الله أن يوفّقني أو آخرين غيري لطبع النسخة الأصليّة كما هي بدون زيادة أو نقصان. والله المستعان.

البحث السادس عشر إلى الثامن عشر

إنَّ الطُّرقَ المُختلِفةَ في معرفةِ اللهِ، غيرُ طريقِ لقاءِ اللهِ، كلُّها معوجَّةٌ ومُظلِمةٌ

وتفسير الآية المباركة

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمَ

بِسْـمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحيم

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قَالَ اللَهُ الحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيم :

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّـذِينَ لَا يَـرْجُونَ لِـقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَـفْسِيَ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَـصَيْتُ رَبِّـى عَـذَابَ يَـوْمٍ عَـظِيمٍ. (الآية ١٥، من السورة ١٠ : يونس) .

وجاء في الآيات التي تسبق هذه الآية :

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْـحَيَوٰةِ ٱلدُّنْـيَا وَٱطْـمَأَنُّوا بِـهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ * أُولَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰـهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

وكذلك وردت الآية ١١ بعد ذكر الآيتين السابقتين :

وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ (جزاءً لأعـمالهم) [1] **ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْـخَيْرِ**

١ـ وهذا التفسير هو أحد النحوين اللذين نحاهما القاضي البيضاويّ في تفسيره، ذيل الآية. والنحو الثاني هو الذي سننقله قريباً عن تفسير «الميزان» للعلّامة قدّس الله سرّه، إن شاء الله تعالى.

لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ.

نعم ، فنرى في هذه الآيات الثلاث وقد ورد في كلّ منها كلام حول لقاء الله تعالى ، وعن الذين لا رجاء لهم في ذلك ولا يفكّرون فيه ، وبالنتيجة فهم الذين رضوا بأحطّ الحياة وقنعوا بعيش البهائم ، والذين هم غافلون عن آيات الله التي هي علائم ومرآة الله ، والتائهون المتحيّرون في خضمّ الغفلة والشهوة ، أُولئك يهيمون في شكّ وريب وتردّد . فأحياناً يقولون : لا نريد هذا القرآن الذي يحوي على آيات اللقاء والقيامة ، ائتنا بقرآن غير هذا أو بدّل هذه الآيات وغيّرها ! وأحياناً يغوصون في أوهام ويعتقدون أن هذه الحياة الدنيا هي الأصل فيركنون إليها ، فيحيط بهم الموت ويُخلّدون في النار بما كسبت أيديهم ، وأحياناً أُخرى يسيرون في الأرض في حيرة وضلال كبيرَين ويتّبعون مصالحهم الضيّقة ، ويتقلّبون في الغفلة والجهالة ، فلو أُريد التعجيل بعذابهم نتيجة أعمالهم لماتوا جميعاً ولأحاط بهم العذاب الإلهيّ ولتعرّضوا للدمار والهلاك .

والواقع أنّ هذه الحالات لا تتحقّق جزئيّاً لهم وحسب ، بل إنّها تتحقّق بصورة مجتمعة ، وقد تتداخل هذه الألفاظ وكلمة «أحياناً» فتشملهم بأجمعها .

وقال حضرة أُستاذنا الأعظم العلّامة الطباطبائيّ قدس الله نفسه في بيانه عند تفسير هذه الآيات الواردة في أوّل سورة يونس :

السورة ـ كما يلوح من آياتها ـ مكّيّة من السور النازلة في أوائل البعثة وقد نزلت دفعة للاتّصال الظاهر بين كرائم آياتها ...

وغرض السورة وهو الذي أُنزلت لأجل بيانه هو تأكيد القول في التوحيد من طريق الإنذار والتبشير كأنّها أُنزلت عقيب إنكار المشركين الوحي النازل على النبيّ صلّى الله عليه وآله وتسميتهم القرآن بالسحر ،

فردّ الله سبحانه عليهم ببيان أنّ القرآن كتاب سماويّ نازل بعلمه تعالى ، وأنّ الذي يتضمّنه من معارف التوحيد كوحدانيّته بأعمالهم التي سيجزون بها خيراً أو شرّاً كلّ ذلك ممّا تدلّ عليه آيات السماء والأرض ويهتدي إليه العقل السليم ، فهي معان حقّة ولا يدلّ على مثلها إلّا كلام حكيم لا سحر مزوّق باطل .

وفي تفسير الآية الثالثة : **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ** (عالم المشيئة والإرادة) **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.**

قال العلّامة : لمّا ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي وهو القرآن على النبيّ صلّى الله عليه وآله ، وتكذيبهم له برميه بالسحر ، شرع تعالى في بيان ماكذّبوا به من الجهتين ، أعني من جهة أنّ ماكذّبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حقّ لا ريب فيه ، ومن جهة أنّ القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهيّ حقّ وليس من السحر الباطل في شيء .

فقوله : **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** إلى آخره ، شروع في بيان الجهة الأُولى وهي أنّ ما يدعوكم إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله ممّا يعلمكم القرآن حقّ لا ريب فيه ويجب عليكم أن تتّبعوه .

والمعنى معاشر الناس ! إنّ ربّكم هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كلّه ـ سماواته وأرضه ـ في ستّة أيّام ، ثمّ استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي إليه ينتهي كلّ تدبير وإدارة ، فشرع يدبّر أمر العالم ، وإذا انتهى إليه كلّ تدبير من دون الاستعانة بمعين أو الاعتضاد بإعضاد ، لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسّط في تدبير أمر من الأُمور ـ وهو الشفاعة ـ إلّا من بعد إذنه تعالى ، فهو سبحانه السبب الأصليّ الذي لا سبب بالأصالة دونه ، ومن دونه من الأسباب أسباب بتسبيبه وشفعاء من بعد

إذنه .

وإذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربّكم الذي يدبّر أمركم لا غيره ممّا اتّخذتموها أرباباً من دون الله وشفعاء عنده ، وهو المراد بقوله : **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** .

أي هلّا انتقلتم انتقالاً فكريّاً إلى ما يستنير به أنّ الله هو ربّكم لا ربّ غيره ، بالتأمّل في معنى الأُلوهيّة والخلقة والتدبير .

وقد تقدّم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله : **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ** (الأعراف : ٥٤ ، في الجزء الثامن من الكتاب) .

ويقول في تفسيره لكلام الباري تعالى : **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا** :

تذكير بالمعاد بعد التذكير بالمبدأ ، وقوله : **وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا** من قيام المفعول المطلق مقام فعله ، والمعنى : وعده الله وعداً حقّاً .

والحقّ هو الخبر الذي لا أصل في الواقع يطابق الخبر ، فكون وعده تعالى بالمعاد حقّاً معناه كون الخلقة الإلهيّة بنحو لا تتمّ خلقة إلّا برجوع الأشياء ـ ومن جملتها الإنسان ـ إليه تعالى ، وذلك كالحجر الهابط من السماء ، فإنّه يعدّ بحركته السقوط على الأرض ، فإنّ حركته سنخ أمر لا يتمّ إلّا بالاقتراب التدريجيّ من الأرض والسقوط والاستقرار عليها .

والأشياء على حال كدح إلى ربّها حتّى تلاقيه ، قال تعالى : **يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ** .

الانشقاق : ٦ . فافهم ذلك !

وفي تفسيره لكلام الباري تعالى : **إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ** ـ إلى آخره ، يقول :

تأكيد لقوله : **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** وتفصيل لإجمال ما يتضمّنه من

معنى الرجوع والمعاد .

ويمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدّمه من قوله : **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ** ـ إلى آخره ، أُشير به إلى حجّتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد : أمّا قوله : **إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ** فلأنّ الجاري من سنّة الله سبحانه أنّه يفيض الوجود على ما يخلقه من شيء ويمدّه من رحمته بما تتمّ له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعّم برحمة منه تعالى مادام موجوداً حتّى ينتهي إلى أجل معدود .

وليس انتهاؤه إلى أجله المعدود المضروب له فناء منه وبطلاناً للرحمة الإلهيّة التي كان بها وجوده وبقاؤه وسائر ما يلحق بذلك من حياة وقدرة وعلم ونحو ذلك ، بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة ، فإنّ ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه .

فنفاد وجود الأشياء وانتهاؤها إلى أجلها ليس فناء منها وبطلاناً لها على ما نتوهّمه ، بل رجوعاً وعوداً منها إلى عنده ، وقد كانت نزلت من عنده ؛ **وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ** ، فلم يكن إلّا بسطاً ثمّ قبضاً ، فالله سبحانه يبدئ الأشياء ببسط الرحمة ، ويعيدها إليه بقبضها ، وهو المعاد الموعود .

وأمّا قوله : **لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ بِٱلْقِسْطِ** إلى آخره ، فإنّ الحجّة فيه أنّ العدل والقسط الإلهيّ ـ وهو من صفات فعله ـ يأبى أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحاً ومن استكبر عليه وكفر به وبآياته .

والطائفتان لايحسّ بينهما بفرق في الدنيا ، فإنّما السيطرة فيها للأسباب الكونيّة بحسب ما تنفع وتضرّ بإذن الله .

فلا يبقي إلّا أن يفرّق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما إليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاءً حسناً والكفّار المسيئين جزاءً سيّئاً من جهة ما

يتلذّذون به أو يتألّمون .

فالحجّة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح وبالكفر وعلى قوله : **بِٱلْقِسْطِ** هذا ، وقوله : **لِيَجْزِيَ** متعلّق بقوله : **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا** على ظاهر التقرير .

ويمكن أن يكون قوله : **لِيَجْزِيَ** ـ إلى آخره ، متعلّقاً بقوله : **ثُمَّ يُعِيدُهُ** ، ويكون الكلام مسوقاً للتعليل وإشارة إلى حجّة واحدة ، وهي الحجة الثانية المذكورة ، والأقرب من جهة اللفظ هو الأخير .

وفي تفسيره لكلام الباري تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا** ... حتّى نهاية الآيتين فيقول :

هو شروع في بيان ما يتفرّع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله : **ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ** ، من حيث عاقبة الأمر في استجابته وردّه وطاعته ومعصيته .

فبدأ سبحانه بالكافرين بهذا الأمر ، فقال : **إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ** ، فوصفهم أوّلاً بعدم رجائهم لقائه ، وهو الرجوع إلى الله بالبعث يوم القيامة ، وقد تقدّم الكلام في وجه تسميته **بِلِقَاءَ اللَّهِ** في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف ، فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء ، وبإنكاره يسقط الحساب والجزاء فالوعد والوعيد والأمر والنهي ، وبسقوطها يبطل الوحي والنبوّة وما يتفرّع عليه من الدين السماويّ .

وبإنكار البعث والمعاد ينعطف همّ الإنسان على الحياة الدنيا ، فإنّ الإنسان وكذا كلّ موجودٍ ذي حياة له همّ فطريّ ضروريّ في بقائه وطلب لسعادة تلك الحياة ، فإن كان مؤمناً بحياة دائمة تسع الحياة الدنيويّة

والأُخرويّة معاً فهو ، وإن لم يذعن إلّا بهذه الحياة المحدودة الدنيويّة علقت همّته الفطريّة بها ، ورضي بها وسكن بسببها عن طلب الآخرة ، وهو المراد بقوله : **وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا**.

ومن هنا ، يظهر أنّ الوصف الثاني ، أعني قوله : **وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا** من لوازم الوصف الأوّل ، أعني قوله : **لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا** وهو بمنزلة المفسّر بالنسبة إليه ، وأنّ الباء في قوله : **وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا** للسببيّة ، أي : سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخرة .

وقوله : **وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ** في محلّ التفسير لما تقدّمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم ، فإنّ نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفكّ عن الغفلة عن آيات الله .

والآية قريبة المضمون من قوله تعالى **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ**. (الآية ٣٠، من سورة النجم) .

حيث دلّ على أنّ الإعراض عن ذكر الله ـ وهو الغفلة عن آياته ـ يوجب قصر علم الإنسان في الحياة الدنيا وشؤونها فلا يريد إلّا الحياة الدنيا ، وهو الضلال عن سبيل الله . وقد عرّف هذا الضلال بنسيان يوم الحساب في قوله : **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ**. (الآية ٢٦، من سورة ص) .

فقد تبيّن أنّ إنكار اللقاء ونسيان يوم الحساب يوجب رضى الإنسان بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها من الآخرة وقصر العلم عليه وانحصار الطلب فيه ، وإذكان المدار على حقيقة الذكر والطلب لم يكن فرق بين إنكاره والرضى بالحياة الدنيا قولاً وفعلاً أو فعلاً مع القول الخالي به .

وتبيّن أيضاً أنّ الاعتقاد بالمعاد أحد الأُصول التي يتقوّم بها الدين ،

إذ بسقوطه يسقط الأمر والنهي والوعد والوعيد والنبوّة والوحي ، وهو بطلان الدين الإلهيّ من رأس .

وقوله : **أُولَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** بيان لجزائهم بالنار الخالدة قبال أعمالهم التي كسبوها .

وفي تفسيره لكلام الله تعالى : **دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ،[1]

قال : أوّل ما يكرّم به الله سبحانه أولياءه ـ وهم الذين ليس في قلوبهم إلّا الله ولا مدبّر لهم لأمرهم غيره ـ أنّه يطهّر قلوبهم عن محبّة غيره ، فلا يحبّون إلّا الله ، ولا يتعلّقون بشيء إلّا **لِلَّهِ وَفِي اللَهِ سُبْحَانَهُ** ، فهم ينزّهونه عن كلّ شريك يجذب قلوبهم إلى نفسه عن ذكر الله سبحانه ، وعن أيّ شاغل يشغلهم عن ربّهم .

وهذا تنزيه منهم لربّهم عن كلّ ما لا يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم أو في المعني أو نقص أو عدم ، وتسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط ، بل قولاً وفعلاً ولساناً وجناناً ، وما دون ذلك فإنّ له شوباً من الشرك ، وقد قال تعالى : **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ** . (الآية ١٠٦ ، من سورة يوسف) .

وهؤلاء الذين طهّر الله قلوبهم عن قذارة حبّ غيره الشاغلة عن ذكره وملأها بحبّه فلا يريدون إلّا إيّاه ، وهو سبحانه الخير الذي لا شرّ معه ؛ قال : **وَٱللَهُ خَيْرٌ** . (الآية ٧٣ ، من سورة طه) .

فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملآى بالخير والسلام أحداً إلّا بخير

١ـ وهي الآية ١٠ ، من السورة ١٠ : يونس ؛ أي أنّها تعقب آية : **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** .

وسلام ، اللهم إلّا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدّل الخير والسلام شرّاً وضرّاً ،كما أنّ القرآن شفاء لمن استشفى به لكنّه لا يزيد الظالمين إلّا خساراً .

ثمّ إنّ هذه القلوب الطاهرة لا تواجه شيئاً من الأشياء إلّا وهي تجده وتشاهده نعمة للّه سبحانه ، حاكية لصفات جماله ومعاني كماله ، واصفة لعظمته وجلاله ، فكلّما وصفوا شيئاً من الأشياء وهم يرونه نعمة من نعم الله ويشاهدون فيه جماله تعالى في أسمائه وصفاته ولا يغفلون ولا يسهون عن ربّهم في شيء ،كان وصفهم لذلك الشيء وصفاً منهم لربّهم بالجميل من أفعاله وصفاته ، فيكون ثناء منهم عليه وحمداً منهم له .

فَلَيْسَ الحَمْدُ إلَّا الثَّنَاءُ عَلَى الجَمِيلِ مِنَ الفِعْلِ الِاخْتِيَارِيِّ.

فهذا شأن أوليائه تعالى وهم قاطنون في دار العمل يجتهدون في يومهم لغد ، فإذا لقوا ربّهم فوفى لهم بوعده وأدخلهم في رحمته وأسكنهم دار كرامته ، أتمّ لهم نورهم الذي كان خصّهم به في الدنيا ،كما قال تعالى : **نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا** . (الآية ٨، من سورة التحريم) .

فسقاهم ربّهم شراباً طهوراً يطهّر به سرائرهم من كلّ شرك جليّ وخفيّ ، وغشيهم بنور العلم واليقين ، وأجرى من قلوبهم على ألسنتهم عيون التوحيد فنزّهوا الله وسبّحوه أوّلاً ، وسلّموا على رفقائهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ثمّ حمدوا الله سبحانه وأثنوا عليه بأبلغ الحمد وأحسن الثناء .

وهذا هو الذي يقبل الانطباق عليه ـ والله أعلم ـ قوله في الآيتين : **تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ، وفيه ذكر جنّة الولاية وتطهير قلوبهم ، و : **دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ** ، وفيه تنزيه الله تعالى وتسبيحه

عن كلّ نقص وحاجة وشريك تنزيهاً على وجه الحضور ، لأنّهم غير محجوبين عن ربّهم **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ** وهو توسيم اللقاء بالأمن المطلق ، ولا يوجد في غيرها من الأمن إلّا اليسير النسبيّ .

وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ . وفيه ذكر ثنائهم على الله بالجميل بعد تسبيحهم له وتنزيهم ، وهذا آخر ما ينتهي إليه أهل الجنّة في كمال العلم .

وقد قدّمنا في تفسير قوله تعالى : **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** (الآية ٢ ، من سورة الحمد) . أنّ الحمد توصيف ، ولا يسع وصفه تعالى لأحد من خلقه إلّا للمخلَصين من عباده الذين أخلصهم لنفسه وخصّهم بكرامة من القرب ، لا واسطة فيها بينهم وبينه ، قال تعالى : **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** . (الآية ١٦٠ ، من سورة الصافّات) .

ولذلك لم يحك في كلامه حمده إلّا عن آحاد من كرام أنبيائه كنوح وإبراهيم ومحمّد وداود وسليمان عليهم السلام ، كقوله فيما أمر له نوحاً : **فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ** . (الآية ٢٨ ، من سورة المؤمنون) . وقوله حكاية عن إبراهيم : **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ** . (الآية ٣٩ ، من سورة إبراهيم) . وقوله فيما أمر به محمد صلّى الله عليه وآله في عدّة مواضع : **قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** . (الآية ٩٣ ، من سورة النمل) . وقوله حكاية عن داود وسليمان : **وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ** . (الآية ١٥ ، من سورة النمل) .

وقد حكى سبحانه حمده عن أهل الجنّة في عدّة مواضع من كلامه كقوله : **وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا** ، (الآية ٤٣ ، من سورة الأعراف) ، وقوله أيضاً : **وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ** . (الآية ٣٤ ، من سورة فاطر) ، وقوله أيضاً : **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ** .

(الآية ٧٤، من سورة الزمر)، وقوله في هذه الآية: **وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**.

والآية تدلّ على أنّ **اللَهَ سُبْحَانَهُ** يلحق أهل الجنّة من المؤمنين بالآخرة بعباده المخلَصين، ففيها وعد جميل وبشارة عظيمة للمؤمنين.

وفي تفسيره لكلام الله تعالى: **وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ** ـ إلى آخره، قال:

تعجيل الشيء الإتيان به بسرعة وعجلة، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة، والعمه شدّة الحيرة.

ومعنى الآية: ولو يعجّل الله للناس الشرّ ـ وهو العذاب ـ كما يستعجلون بالخير ـ كالنعمة ـ لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم، لكنّه تعالى لا يعجّل لهم الشرّ، فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحيّرون في طغيانهم أشدّ التحيّر.

وتوضيحه أنّ الإنسان عجول بحسب طبعه، يستعجل بما فيه خيره ونفعه، أي أنّه يطلب من الأسباب أن تسرع في إنتاج ما يبتغيه ويريده، فهو في الحقيقة يطلب الإسراع المذكور من الله سبحانه، لأنّه السبب في ذلك بالحقيقة، فهذه سنّة الإنسان وهي مبنيّة على الأهواء النفسانيّة، فإنّ الأسباب الواقعة ليست في نظامها تابعة لهوى الإنسان، بل العالم الإنسانيّ هو التابع الجاري على ما يجريه عليه نظام الأسباب اضطراراً، أحبّ ذلك أو كرهه.

ولو أنّ السنّة الإلهيّة في خلق الأشياء والإتيان بالمسبّبات عقيب أسبابها اتّبعت أو شابهت هذه السنّة الإنسانيّة المبنيّة على الجهل فعجّلت المسبّبات والآثار عقيب أسبابها لأسرع الشرّ ـ وهو الهلاك بالعذاب ـ إلى الإنسان، فإنّ سببه قائم معه ـ وهو الكفر بعدم رجاء لقاء الله والطغيان في

الحياة الدنيا ـ لكنّه تعالى لا يعجّل الشرّ لهم كاستعجالهم بالخير ، لأنّ سنّته مبنيّة على الحكمة ، بخلاف سنّتهم المبنيّة على الجهالة **يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ**.[١]

فانظر كيف بيّن الله سبحانه وجلّ شأنه وتعالى مجده في هذه الآيات القليلة والقصيرة الهدف من الخلق ، وطريق السعادة والشقاء ، وانتفاع بني آدم من الحياة ، ونظام الوجود على أساس من العدل والكمال ، والوصول إلى أعلى درجات الإنسانيّة ، وتسنّم أرقى مراتب الآدميّة ، واعتبار لقاء الله هو الهدف والمقصود ، وجعل اليائسين من ذلك في حيرة وضلال هائمين في وادي الغفلة والشهوات النفسانيّة .

وعدّ لقاء الله والفناء في ذاته بعد ملاحظة الآيات والبيّنات الإلهيّة في عداد السير في مدارج الكمال ومعارجه !

ذلك السير الذي يُختم بالفناء المحض والانصهار الصرف في بقاء الحقّ جلّ وعلا ووجوده ، هناك حيث لا يحويه اسم ولا يُحيطه وصف ، إذ يرقى على كلّ فكر ويسمو على أيّ تصوّر . حيث لا يبلغه وصف الواصفين ولا حمد الحامدين ولا تسبيح المسبّحين ولا تهليل المهلّلين ولا تكبير المكبّرين ولا تمجيد الممجّدين ، إذ تضمحلّ عنده وتتلاشى وتفنى قبل وصولها إليه . هناك حيث يترتّع رسوله الأعظم ونبيّه الأكرم خاتم الأنبياء والمرسلين وسيّد السفراء المكرّمين وأفضل خلق الله أجمعين : محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله أبد الآبدين ، وقد خلع نعليه معلناً بكلمته المشهورة :

لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ! أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.[٢]

١ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ١٠ ، مقتطفات من ص ٦ إلى ٢٤.

٢ـ «الميزان فى تفسير القرآن» ج ٦ ، ص ٩٥.

وقد أعلن إلى الأبد عظمة ذاته اللامتناهية ، وأظهر بجلاء من خلال تلك الكلمة تفاهة الخلائق أجمعين في مقابل عظمته .

آنجا كه عقاب پر بريزد از پشّهٔ لاغرى چه خيزد[1]

وقد تطرّق الشيخ نجم الدين الرازيّ في كتاب «مرصاد العباد» إلى مسألة بدء التكوين ، حيث عرض هذه الحقيقة بأُسلوب جميل . فقد قال (ما ترجمته) :

وعلى هذا فقد أحاطوا ملكوت أرواحه بتلك اللطيفة القائمة من صفة المحبّة المحمّديّة ، ثمّ أجازوها من خلال بوّابة الجوهر على صورة المُلك والملكوت وصفتهما ، حتّى لا تبقى ذرّة من ذرّات المُلك والملكوت لَم تُكَنَّ فيه بشكل سرٍّ من أسرار المحبّة ، وحتّى لا تبقى أيّة ذرة من محبّة الخالق خالية وخاوية بحسب استعدادها فتشرع بلسان حالها تقديم الحمد والثناء إلى ربّ العزّة .

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .[2]

گر عرض دهند عاشقانت را هر ذرّه كه هست در شمار آيد
طاوس ومگس به يک محلّ باشد چون بازِ غم تو در شكار آيد[3]

يا أيّتها الملائكة ! لا تفخروا ولا تَغترّوا ، ولا تُبيّنوا أنفسكم على مَسرح الوُجود ، مُرَدِّدين : **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .**[4]

فمن ذا الذي لا يُسبِّحه جلّت عظمته ؟!

١ـ يقول : «ما الذي تستطيع بعوضة صغيرة فعله حيث ينفض النسر ريشه هناك».

٢ـ جزء من الآية ٤٤ ، من السورة ١٧ : الإسراء.

٣ـ يقول : «لو عُرض عشّاقُك لعُدَّت فيهم كلُّ ذرّات الوجود.
وسيكون الطاووس والذبابة في مصافّ بعضهما حين يطير باز عشقك ليصطاد».

٤ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٢ : البقرة.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.[١]

فالله ، جلّت قدرته ، أعزّ وأعظم من أن يستطيع أحدنا أداء حقّ حمده وثنائه .

إنّ كلّ ما نراه من تسبيح أو تقديس لأهل السماوات والأرض ونشهده في كلّ ذرّة من الكائنات ، هو من شعاع الثناء لربّنا (وخالقنا) ونوره على سيّدنا (ومولانا) ، إذ :

سُبحـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ.[٢]

وبسبب من واسطة مرآة الروح المحمّديّة التي أسدَلتْ ظلالها على ذرّات الكائنات فقد أضحتْ كلّها مسبِّحة ومقدّسة . وكلٌّ ظنّ أنّ ذلك الثناء إنّما هو من خاصّيّة عبوديّته ؛ ولم يتبيّنوا مصدر هذا الحمد ومنشأه . وما أن جاء دور خلاصة الموجودات وأحاط بالملك والملكوت في التربية والسلوك ، وأضحى ثمرة في أعلى شجرة الخلق (والتكوين) إذ تمثَّل بـ **قَابَ قَوْسَيْنِ** واتّسع مدى ناظريه المبصرتينِ بالحقّ ، ناداه ربّ العزّة أن : يا محمّد ! **إثْنِ عَلَيَّ !** (مثلها تفعل ذلك كلّ الموجودات والملائكة) !

فعلِمَ صلّى الله عليه وآله أنّ ما حصَّلته كلّ الكائنات من إطراء الثناء (على الله عزّ وجلّ) كان عارية ، وأنّ شريعته تقتضي كون : **العَارِيَةُ مَرْدُودَةٌ** ، فردّ الأمانة بمقتضى **إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا**[٣] فقال : و هل يصحُّ الثناء على ذات القديم بلسان الحدوث الألكن ؟ **لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ** ، إنّ الثناء لذاتك يصحّ من صفاتك أنت ؛ **أَنْتَ كَمَا**

١ـ الآية ١ ، من السورة ٥٧ : الحديد.

٢ـ الآية ١٨٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات.

٣ـ آلاية ٥٨ ، من السورة ٤ : النساء.

أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ.[١]

فليست الملائكة الذين هم متعلّمين مبتدئين في مدرسة آدم وحدهم يجهلون أسماءهم **يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ**،[٢] بل إنّ آدم نفسه وذرّيّته جميعاً هم تحت راية إطراء الثناء من قِبَل محمّد صلّى الله عليه وآله **آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ.**

ومن هنا يتّضح أنّ محمّد صلّى الله عليه وآله هو بِزرة الخليقة (والتكوين) ، وهو الثمرة كذلك ، وأنّ شجرة الخليقة (والتكوين) هي في الحقيقة الوجود المحمّديّ .

الحقّ شگرف مرغی کز تو دو کون پر شد

نه بال باز کرده نه ز آشیان پریده[٣]

وتصوَّر أنّ كلّ ما موجود من الملكوتيّات هو جذر تلك الشجرة وأنّ الجسمانيّات كلّها إنّما هي جذع الشجرة ، وأنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أغصانها ، والمَلَك أوراقها ، ولا يمكن بيان ثمرة تلك الشجرة من خلال العبارات أو كتابتها بلسان قلم ثنائيّ اللغة .

١ـ ابتدأ آية الله في زمانه وحكيم عصره المرحوم الحاجّ الشيخ محمّدحسين الكمبانيّ الإصفهانيّ قدّس سرّه منظومته «تحفة الحكيم» بالأبيات المادحة التالية:

يَا مَبْدَأَ الكُلِّ إِلَيْكَ المُنتَهَى — لَكَ الجَلَالُ وَالجَمَالُ وَالبَهَا
يَا مُبْدِعَ العُقُولِ وَالأَرْوَاحِ — وَمُنْشِئَ النُّفُوسِ وَالأَشْبَاحِ
كَلَّ لِسَانُ الكُلِّ عَن ثَنَائِكَ — وَضَلَّ فِي بَيْدَاءِ كِبْرِيَائِكَ
أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ يَا رَبِّ عَلَى — نَفْسِكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً لَا وَلَا

٢ـ الآية ٣٣ ، من السورة ٢ : البقرة.

٣ـ يقول : «حقّاً ما أعظمك من طائر ملأ أركان الكونين ، ولمّا يفتح جناحيه بعد أو يطير من العشّ».

قـصّه هـا مـی‌نوشت خـاقانی قلم اینجا رسید سر بشکست[1]

ويقول شهاب الدين أبو القاسم السمعانيّ في هذا الباب :

هَذَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَهِ أَفْصَحَ مِـنْ دَبٍّ وَدَرْجٍ ، وَأَمْـلَحَ مِـنْ دَخْـلٍ وَخَرْجٍ ، يَقُولُ بَعْدَ مَا مَدَّ طَـنَابٌ فِـي مَـدْحِ الجَـلَالِ وَوَصْـفِ الجَـمَالِ: لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ !

احتارت العقول في إدراك جلاله ، وانكدرت أمواه وجوه الأعزّة مقابل ماء جماله ، وانشده لباب أرباب الألباب في فهم نعوته وصفاته ، وتلاشت خواطر أصحاب العلوم في حواشي عزّه . وغرق أرباب البصر والبصيرة والذكاء والفطنة وخواطر الخُطّار والحكمة في قطرة من بحار عظمته ، واحترقت أسرار الأبرار بنار الأُنس بجلاله ؛ فمسَّ قلوبهم الملتهبة وكأنّي بالعاشقين جميعاً يحملون مشاعل بأيديهم . واستحيت ألسن أهل الفصاحة من مدح جلاله ووصف جماله فكلَّت وعَيَت ، فترى آلاف القتلى والجرحى والشهداء والصبّين منثورين هنا وهناك .[2]

١ـ «مرصاد العباد» ص ٦١ إلى ٦٣ ، طبعة (بنگاه ترجمه ونشر كتاب) ، ويقول: «لقد ألّف الخاقانيّ القصص ، فلمّا وصل إلى هنا (هذه المسألة) انكسر لُبّ قلمه».

٢ـ «روح الأرواح في شرح أسماء المَلِك الفتّاح» بتصحيح وشرح نجيب مايل الهرويّ ، ص ٤٧ .

وقال المعلّق على ذلك في فهرس الأحاديث القدسيّة والنبويّة ص ٦٩٢ و٦٩٣ بعد أن اقتبس ستّة مواضيع نقلاً عن هذا الحديث في هذا الكتاب : «حديث نبويّ مشهور جدّاً. وروي في «الموطّأ» كما يلي : **اللَهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِـنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ؛ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ** ... إلى آخره.

ونسب ابن ماجة سلسلة الرواة لهذا الحديث إلى علي عليه السلام . راجع : «سنن ابن ماجة» ج ١ ، ص ٣٧٣ وج ٢ ، ص ١٢٦٢ ؛ و«الجامع الصغير» ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ و«كشف المحجوب» للهجويريّ ، ص ٣٥٥ ، و«عبهر العاشقين» ص ١٠٤ ؛ و«كاشف الأسرار» ⇦

تدلّ الفقرة الأُولى من هذا الحديث المبارك على أنّه يستحيل للبشر أن يحيط بجميع صفات الواحد الأحد وذاته المقدّسة مادامت فيه شائبة من الأنانيّة ، ذلك أنّ الـ «أنا» ضمير وإشارة إلى حدود ماهويّة وإنّيّة يفيد التقييد ويعني التحديد ، في حين أنّ الذات المقدّسة للحقّ تعالى وصفات وأسماء جلاله وجماله لاتحدّها حدود ، لأنّه تعالى «لم يزل» و«لا يزال» و«لا متناه» ، ذاتاً ووجوداً وصفةً واسماً . وعلى هذا ، فإنّ الإحاطة بذاته وعدّ صفاته وإحصائها من المحال . وهذا يعني أنّ إحاطة الضمير «أنا» الذي هو محدود بالضمير «هو» الذي هو بالفرض غير محدود وخارج عن دائرة العدّ والحدّ غير ممكنة .

وتدلّ الفقرة الثانية من هذا الحديث على أنّ الله غير متناه وسرمديّ بالنسبة لوجود العالم ، ولذلك فهو وحده بإمكانه أن يعرف ذاته وصفاته العليا وأسمائه الحسنى . وكذا عبد الله مثل النبيّ فإنّه إذا وصل مقام الفناء في الله ، ولم يبق فيه أثر من بقايا الوجود سواء في عالم الحسّ أم في عالم المثال والملكوت الأسفل وسواء في عالم العقل والملكوت الأعلى ، فإنّه هناك لن يكون له وجود متعيّن أو كيان محدود وذلك حتّى يكون عالماً

⇦ للأسفراييني ، ص ٥٠ ؛ و«نقد النصوص» ص ٢٦ ؛ و«التمهيدات» لعين القضاة الهمدانيّ ، ص ١٢٤ و ٢٠٠ ؛ و«مجمع البحرين» للأبرقوهيّ ، ص ٤٤٣ ، حيث نقله هكذا «**لَا أُثْنِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ...**».

وقال المعلّق كذلك تحت عنوان : **أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** ، في ص ٦ و٧ و٩ من الفهرس بعد أن أتى على ذكر موضعين من الكتاب «حديث نبويّ مشهور» . وذُكر في «الجامع الصغير» ج ١ ، ص ٥٩ هكذا: **اللَهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ؛ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** . راجع كذلك: «المصباح» للحمويّة ، ص ٧٩ ، ترجمة «الرسالة القشيريّة» ص ٥٤٤ .

ومدركاً فيعرف الله ويمجّد صفاته ويحمده ، فهناك يوجد الله وحده لا غير ، ومحال وجود شيء غيره .

وعلى هذا ، فلا أحد يعرف الله غير الله . و«**أَنْتَ**» في كلام الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله **أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ** ، إشارة إلى هو الهويّة المطلقة ومنبع الأنوار الماهويّة وإنّيّة الحقّ تعالى وتقدّس ، المحيط بجميع عوالم الصفات والأسماء الكلّيّة والجزئيّة ، وهو أعلى من حسّ كلّ ذي حسّ وفهم كلّ صاحب شعور وإدراك كلّ ذي فهم وإدراك وأرقى منه .

ومن هنا تأتي دلالة العين الفيّاضة للأحاديث والروايات على أنّه يجب معرفة الله بالله : **اعْرِفُوا اللَهَ بِاللَهِ** .

روى محمّد بن يعقوب الكلينيّ بسند متّصل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام حيث قال : **قَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : اعْرِفُوا اللَهَ بِاللَهِ ! وَالرَّسُولَ بِالرِّسَالَةِ وَأُولِي الأَمْرِ بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالعَدْلِ وَالإحْسَانِ.**[1]

وروى كذلك بسنده عن عليّ بن عقبة بن قيس بن سمعان بن أبي ربيحة مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّه **قَالَ : سُئِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ ؟!**

قَالَ : بِمَا عَرَّفَنِي نَفْسَهُ ! قِيلَ : وَكَيْفَ عَرَّفَكَ نَفْسَهُ ؟!

قَالَ : لَا يُشْبِهُهُ صُورَةٌ وَلَا يُحَسُّ بِالحَوَاسِّ وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ. قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ. فَوْقَ كُلِّ شَيءٍ وَلَا يُقَالُ : شَيءٌ فَوْقَهُ، أَمَامَ كُلِّ شَيءٍ وَلَا يُقَالُ : لَهُ أَمَامٌ.

دَاخِلٌ فِي الأَشْيَاءِ لَا كَشَيءٍ دَاخِلٍ فِي شَيءٍ ؛ وَخَارِجٌ مِنَ الأَشْيَاءِ لَا كَشَيءٍ خَارِجٍ مِنْ شَيءٍ.

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٨٥ ، باب أنّه لا يعرف إلّا به ، حديث رقم ١.

سُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا غَيْرُهُ وَلِكُلِّ شَيءٍ مُبْتَدِئٌ.[١]

وروى بسنده أيضاً عن منصور بن حازم أنّه قال :

قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنِّي نَاظَرْتُ قَوْماً فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ أَجَلُّ وَأَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ بِخَلْقِهِ، بَلِ العِبَادُ يُعْرَفُونَ بِاللهِ.

فَقَالَ : رَحِمَكَ اللهُ.[٢]

وروى الشيخ هادي كاشف الغطاء قائلاً :

سَأَلَهُ سَائِلٌ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! خَبِّرْنِي عَنِ اللهِ تَعَالَى؛ أَرَأَيْتَهُ حِينَ عَبَدْتَهُ ؟!

فَقَالَ لَهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ : لَمْ أَكُ بِالَّذِي أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ !

فَقَالَ لَهُ : فَكَيْفَ رَأَيْتَهُ حِينَ رَأَيْتَهُ ؟!

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَيْحَكَ ! لَمْ تَرَهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الأَبْصَارِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ. مَعْرُوفٌ بِالدِّلَالَاتِ ، مَنْعُوتٌ بِالعَلَامَاتِ، لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ وَلَا تُدْرِكُهُ الحَوَاسُّ.[٣]

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٨٦ ، حديث رقم ٢.

٢ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٨٦ ، حديث رقم ٣.

٣ـ «مستدرك نهج البلاغة» ص ١٥٧ ، الباب الثالث ، منشورات مكتبة الأندلس ـ بيروت، واستند عبدالعليّ كارنغ مستشهداً بذلك في كتاب «اثبات وجود خدا» (=إثبات وجود الله) في التعليقة في ص ٥، خلال ترجمة مقالة : «هل للعالم خالق ؟» بقلم الدكتور دمرداش عبدالمجيد سرحان أخصّائي العلوم التربويّة.

وذُكر الحديث أعلاه في «مفاتيح الإعجاز» شرح «گلشن راز» ص ٥٧ ، طبعة منشورات المحموديّ ، على الصورة التالية : سأل ذعلب اليمانيّ الإمام عليّ المرتضى عليه السلام: **أَفَرَأَيْتَ رَبَّكَ ؟!** فأجاب : **أَفَأَعْبُدُ مَا لَا أَرَى ؟** ثمّ قال : **رَأَيْتُهُ فَعَرَفْتُهُ فَعَبَدْتُهُ ؛ لَمْ أَعْبُدْ رَبّاً لَمْ أَرَهُ !** «**فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**. (الآية ⇦

وروى الكلينيّ هذا المضمون بسند متّصل عن سنان أنّه قال : حضرتُ أبا جعفر عليه السلام فدخل عليه رجل من الخوارج فقال له : يا أبا جعفر ! **أَيَّ شَيءٍ تَعْبُدُ ؟!**

قال : **اللَهَ تَعَالَى .**

قال (الخارجيّ) : **رَأَيْتَهُ ؟!**

قَالَ : بَلْ لَمْ تَرَهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الأَبْصَارِ ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإيمَانِ. لَا يُعْرَفُ بِالقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِالحَوَاسِّ وَلَا يُشْبِهُ بِالنَّاسِ.

مَوْصُوفٌ بِالآيَاتِ ، مَعْرُوفٌ بِالعَلَامَاتِ ، لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ؛ ذَلِكَ اللَهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ.

قَالَ : فَخَرَجَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ : «اَللَهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ».[1]

ورأيتُ في بعض الكتب إضافة ما يلي في ذيل هذه الرواية : إنّ الله لا يجور في حكمه . ذلك **الله** لا معبود إلّا هو .

يقول الشيخ نجم الدين الرازيّ : وأمّا الطائفة التي تنأى بوجهها عن الأغراض البشريّة والمقاصد النفسانيّة وتقع في حبائل جذبات الأُلوهيّة وتصل إلى عالم الربوبيّة خلال سيرها في طريق العبوديّة فتكون مستعدّة لقبول الفيض دون واسطة فهي على صنفين :

الأوّل هو الذي كان في الصفّ الأوّل في عالم الأرواح من صفوف **الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ** ، فأصبح مستعدّاً لتقبّل فيض الأُلوهيّة دون واسطة ، والأنبياء عليهم السلام هم من هذا الصنف فهم مستقلّون هنا في قبول نور

⇦ الأخيرة، من السورة ١٨ : الكهف).

١ـ «أُصول الكافي» ج ١ ، ص ٩٧ ، بابٌ فى إبطال الرؤية ، الرواية رقم ٥ . وأمّا الآية التي ذكرها الخارجيّ فهي الآية ١٢٤ ، من السورة ٦ : الأنعام.

الهداية .

وأمّا الصنف الثاني فيمثّل أرواح الأولياء الذين كانوا هناك مستعدّين لقبول فيض الحقّ من سماء أرواح الأنبياء عليهم السلام ، وهم مستعدّون لتقبّل ذلك الفيض هناكذلك في ظلّ اتّباعهم عليهم السلام ، ولأنّه رُشّ على طينة روحانيّتهم خميرته ، **ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ** ، فلمّا أعرضوا بوجههم عن الزخارف الدنيويّة بفعل حبائل الجذبة ، فهم هناكذلك يشاهدون ذلك النور من وراء آلاف الحُجُب من حجب عزّة جمال الوحدانيّة ،كما قال أمير المؤمنين عليّ رضوان الله عليه : **لَا أَعبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ** ، وهنا تكمن مبادئ الحبّ .

اصل همه عاشقی ز دیدار افتد چون دیده بدید آنگهی کار افتد[1]

روى الشيخ الصدوق بسند متّصل عن عبد الله بن يونس ، عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال :

بَيْنَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْطُبُ عَلَى مِنْبَرِ الكُوفَةِ ، إِذْ قَامَ إِلَيهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : ذِعْلَبٌ ، ذَرِبُ اللِسَانِ بَلِيغٌ فِي الخِطَابِ شُجَاعُ القَلْبِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟!

فَقَالَ : وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ ! مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ !

قَالَ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! كَيْفَ رَأَيْتَهُ ؟!

قَالَ : وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ ! لَمْ تَرَهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الأَبْصَارِ ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ

١ـ «رسالهٔ عشق وعقل» (=رسالة العشق والعقل) ص ٥٨ و٥٩ ، طبعة بنگاه ترجمه ونشر كتاب.

يقول : «إنّ أساس الحبّ وبدايته تكون من نظرة ، فإذا رأت العين واكتسبت تلك النظرة وقع ما هو مُقَدَّرٌ ومكتوب».

القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيـمَانِ . وَيْـلَكَ يَـا ذِعْـلِبُ ! إنَّ رَبِّـي لَـطِيفُ اللَـطَافَةِ فَلَا يُوصَفُ بِاللُطْفِ، عَظِيمُ العَظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِـالعِظَمِ ، كَـبِيرُ الكِـبْرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالكِبَرِ، جَلِيلُ الجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالغِلَظِ.

قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ فَلَا يُقَالُ : شَيءٌ قَبْلَهُ ؛ وَبَعْدَ كُلِّ شَيءٍ فَلَا يُقَالُ : شَيءٌ بَعْدَهُ. شَائِي الأَشْيَاءِ لَا بِهِمَّةٍ ، دَرَّاكٌ لَا بِـخَدِيعَةٍ . هُـوَ فِـي الأَشْـيَاءِ كُـلِّهَا غَـيْرُ مُـتَمَازِجٍ بِـهَا وَلَا بَـائِنٍ عَـنْهَا . ظَـاهِرٌ لَا بِـتَأْوِيلِ المُـبَاشَرَةِ، مُـتَجَلٍّ لَا بِاسْتِهْلَالِ رُؤْيَةٍ ، بَائِنٌ لَا بِمَسَافَةٍ ، قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَاةٍ ، لَطِيفٌ لَا بِتَجَسُّمٍ ، مَوْجُودٌ لَا بَعْدَ عَدَمٍ ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ ، مُقَدِّرٌ لَا بِحَرَكَةٍ ، مُرِيدٌ لَا بِهَمَامَةٍ ، سَمِيعٌ لَا بِآلَةٍ ، بَصِيرٌ لَا بِأَدَاةٍ.

لَا تَحْوِيهِ الأَمَاكِنُ ، وَلَا تَصْـحَبُهُ الأَوْقَاتُ ، وَلَا تَحُـدُّهُ الصِّـفَاتُ ، وَلَا تَأْخُذُهُ السِّنَاتُ. سَبَقَ الأَوْقَاتَ كَوْنُهُ ، وَالعَدَمَ وُجُودُهُ ، وَالِابْتِدَاءَ أَزَلُهُ.

بِتَشْعِيرِهِ المَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَبِتَجْهِيرِهِ الجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَـيْنَ الأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ.

ضَادَّ النُّورَ بِالظُّلْمَةِ ، وَالجَسْوَ بِالبَلَلِ ، وَالصَّرْدَ بِالحَرُورِ.

مُؤَلِّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا ، مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا ، دَالَّـةٌ بِـتَفْرِيقِهَا عَـلَى مُفَرِّقِهَا، وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلِّفِهَا ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَمِـن كُـلِّ شَـيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».[1]

فَفَرَّقَ بِهَا بَيْنَ قَبْلٍ وَبَعْدٍ ؛ لِـيُعْلَمَ أَنْ لَا قَـبْلَ لَـهُ وَلَا بَـعْدَ، شَـاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا عَلَى أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغَرِّزِهَا ، مُخْبِرَةً بِتَوْقِيتِهَا أَنْ لَا وَقْتَ لِمُوَقِّتِهَا.

حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ ؛ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِـجَابَ بَـيْنَهُ وَبَـيْنَ خَـلْقِهِ

١ـ الآية ٤٩ ، من السورة ٥١ ، الذاريات.

غَيْرُ خَلْقِهِ.

كَانَ رَبّاً إِذْ لَا مَرْبُوبٌ ، وَإِلَـهاً إِذْ لَا مَأْلُـوهٌ ، وَعَـالِماً إِذْ لَا مَـعْلُومٌ، وَسَمِيعاً إِذْ لَا مَسْمُوعٌ.

ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَلَمْ يَـزَلْ سَـيِّدِي بِالحَـمْـدِ مَــعْـرُوفَا
وَلَمْ يَـزَلْ سَـيِّدِي بِالجُـودِ مَــوْصُـوفَا
وَكُنْتَ[1] إِذْ لَـيْـسَ نُـورٌ يُـسْـتَضَـاءُ بِهِ
وَلَا ظَـلَامٌ عَـلَـى الآفَــاقِ مَــعْـكُـوفَا
وَرَبُّـنَـا بِـخِــلَافِ الـخَـلْـقِ كُــلِّـهِـم
وَكُلِّ مَا كَـانَ فِـي الأَوْهَـامِ مَـوْصُـوفَا
فَـمَـنْ يُـرِدْهُ عَلَى التَّـشْـبِيـهِ مُـمْتَـثِـلاً
يَرْجِـعْ أَخَـا حَصَـرٍ بِالعَـجْـزِ مَكْتُـوفَا
وَفِي المَـعَـارِجِ يَلْقَـى مَـوْجُ قُـدْرَتِـهِ
مَوْجاً يُعَارِضُ طَـرْفَ الرُّوحِ مَكْفُـوفَا
فَاتْـرُكْ أَخَا جَـدَلٍ فِي الدِّيـنِ مُنْعَمِقـاً
قَدْ بَاشَـرَ الشَّـكُّ فِـيـهِ الرَّأْيَ مَـأْوُوفَـا
وَاصْـحَـبْ أَخَـا ثِقَـةٍ حُـبّـاً لِـسَـيِّـدِهِ
وَبِالـكَـرَامَـاتِ مِـنْ مَـوْلَاهُ مَـحْـفُـوفَا
أَمْسَى دَلِيلَ الهُدَى فِي الأَرْضِ مُنْتَشِراً
وَفِي السَّـمَـاءِ جَمِيلَ الحَـالِ مَـعْـرُوفَا

١ـ يقول في التعليقة : جاء في «بحار الأنوار» وفي نسختين من نسخ «التوحيد» للصدوق لفظة «**وَكَانَ**».

قَالَ : فَخَرَّ ذِعْلَبٌ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ ، وَقَالَ : مَا سَمِعْتُ بِهَذَا الكَلَام ، وَلَا أَعُودُ إِلَى شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ .

قَالَ مُصَنِّفُ هَذَا الكِتَابِ : فِي هَذَا الخَبَرِ أَلفَاظٌ قَدْ ذَكَرَها الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبَتِهِ ،[1] وَهَذَا تَصْدِيقُ قَوْلِنَا فِي الأَئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ : إِنَّ عِلْمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَأْخُوذٌ عَنْ أَبِيهِ حَتَّى يَتَّصِلَ ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .[2]

١ـ كتاب «التوحيد» للصدوق ، ص ٣٤ إلى ٤١ ، الحديث الثاني من باب التوحيد ونفي التشبيه.

٢ـ «التوحيد» لابن بابويه ، ص ٣٠٨ و ٣٠٩ ؛ الباب ٤٣ ، حديث ذعلب ، الخبر رقم ٢ ، منشورات مكتبة الصدوق وروى العلّامة المجلسيّ هذا الخبر في «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ٢٠٠ و ٢٠١ ، طبعة الكمبانيّ ، في كتاب جوامع التوحيد ، بنفس هذه العبارات عن «التوحيد» للصدوق.

ونقله العلّامة الطباطبائيّ في تفسير «الميزان» ج ٦ ، ص ١٠٤ و ١٠٥ ، عن «التوحيد» للصدوق.

وروى العلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ١٢٠ و ١٢١ عن نصّ «الكفاية» بسنده عن هشام أنّه قال : كنتُ عند الإمام جعفر الصادق عليه السلام فدخل عليه معاوية بن وهب وسأل أسئلة تخصّ الرؤية فأجاب الإمام على ذلك قائلاً : **يَا مُعَاوِيَةُ ! مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ يَأْتِي عَلَيْهِ سَبْعُونَ سَنَةً أَوْ ثَمَانُونَ سَنَةً ، يَعِيشُ فِي مِلْكِ اللَهِ وَيَأْكُلُ مِنْ نِعَمِهِ ، ثُمَّ لَا يَعْرِفُ اللَهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ .**

ثمّ استشهد الإمام برواية عن أبيه ، عن الإمام السجّاد ، عن الإمام الحسين بحديث أمير المؤمنين عليه السلام : **سُئِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ : يَا أَخَا رَسُولِ اللَهِ ! هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟! فَقَالَ : وَكَيْفَ أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ ! لَمْ تَرَهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ العِيَانِ ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ .** وللإمام الصادق عليه السلام هنا بيان مسهب في أن الله لا يُرى بالعين الباصرة:

وروى المجلسيّ قدّس سرّه رواية مفصّلة في ج ٤ ، ص ١١٨ و ١١٩ من طبعة الكمبانيّ أيضاً في باب : ما تفضّل صلوات الله عليه به على الناس بقوله : **سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي ،** ⇦

نعم ، فمضافاً إلى أنّ هذه الحديث المبارك يدلّ على أنّ رؤية الله بعين القلب أمر ممكن بل ولازم ، فإنّه كذلك وبعد التمحيص جيّداً في عباراته يمكن أن نتحسّس من خلاله وحدة وجود الحقّ تعالى بشكل واضح ومبرهن ، وخصوصاً تلك العبارة التي يقول فيها :

حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ غَيْرُ خَلْقِهِ.

فإذا كان المقصود من هذه العبارة أنّ العلّة في حجب بعض الخلائق عن بعضها هي أن يُعلَم أن لا حجاب بينه وبين مخلوقاته ، فعبارة **غَيْرُ خَلْقِهِ** تبدو زائدة ، لأنّه كما قال : بتشعيره المشاعر (للخلق) عُرف أنّ الله لا مشعر له ، وبتجهيره الجواهر عُرف أن لا جوهر له ، وخلق الغرائز شاهدة على أن لا غريزة للّه (**بِتَشْعِيرِهِ المَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ ، وَبِتَجْهِيرِهِ الجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ. ...شَاهِدَةً بِغَرَائِزِهَا عَلَى أَنْ لَا غَرِيزَةَ لِمُغَرِّزِهَا**) ، فكان لزاماً أن يقول هناكذلك : **حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنْ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ.**

إلّا أنّنا نشاهد هنا أنّه أضاف عقيب تلك الكلمة قائلاً : **غَيْرُ خَلْقِهِ** ، والغرض من ذلك تفهيم السامع أنّ لا توجد بين الحقّ المتعال وبين مخلوقاته فاصلة أو بعد أو حجاب غير نفس تعيّن المخلوقات . فإذا أزلت التعيّن من وجود المتعيّن فلن يبقى هنالك شيء غير الوجود المطلق ، وهو

⇦ **وَفِيهِ بَعْضُ جَوَامِعِ العُلُومِ وَنَوَادِرِهَا** ، عن «التوحيد» و«الأمالي» للصدوق بسند آخر عن أصبغ بن نُباتة، حتّى يصل إلى سؤال ذعلب وجواب الإمام.

وقد أشار المرحوم المحدّث القمّيّ إلى هذه الأحاديث ومواضعها في «بحار الأنوار» وذلك في «سفينة البحار» في ج ١ ، ص ٤٨٤ ، في كلمة : **ذعلب** ، وفي ص ٤٩٣ ، في كلمة **رؤية**.

عبارة عن وجود الحقّ سبحانه وتعالى .

ولأنّ مرجع التعيّن أمر عدميّ واعتباريّ لهذا : **لَـيْسَ فِـي العَـالَم إلَّا الوُجُودُ المُطْلَقُ وَالبَسِيطُ وَالبَحْتُ وَالصِّرْفُ وَهُوَ الحَقُّ تَعَالَى شَأْنُهُ وَعَلَا مَجْدُهُ.**

وجود اندر همه اشياء ساری است

تـــعيّنها امـــور اعـــتبارى است[1]

وقد بيّن الملّا الرومي مسألة رؤية أمير المؤمنين عليه السلام الله تعالى ومشاهدته بعين الوحدانيّة والفناء في ذاته واسمه وصفته والنظر إلى جميع العوالم باعتبارها ظهوراً له تعالى من خلال قصّة مشوقّة موضّحاً حقيقة ذلك .

فمن خلال عرض الملّا الروميّ لبيان توحيد مولانا أمير المؤمنين عليه السلام يقوم بوصف حالة إشهاره السيف بوجه الكافر لقتله ، وقيام الكافر بالبصق على وجهه وإعراضه عليه السلام عن قتله في تلك اللحظة ، وسؤال الكافر عن علّة ذلك ، وإسلامه دونما حاجة إلى السيف والقتال والمبارزة ، في الأبيات التالية :

از عـــلیّ آمـــوز اخـــلاص عـمل

شـــير حـــقّ را دان مـــنزّه از دغـل

در غـزا بـــر پـــهلوانـــی دست يـافت

زود شـــمشيری بـــر آورد وشـــتافت[2]

١ـ يقول : «إنّ الوجود سارٍ في كلّ الأشياء ، وأمّا التعيُّنات فهي أُمور اعتباريّة».

٢ـ يقول : «تعلَّم الإخلاص في العمل من عليّ الذي عرف ربّه ونزّهه من كلّ دنس. عليٌّ هذا ظفر بُمحاربٍ خلال معركة له معه فسارع إلى إخراج سيفه من غمده».

او خـــدو انـــداخت بـــر روی عـــلیّ
افـــــتخار هـــــر نـــــبیّ وهـــــر ولیّ
او خـــدو انـــداخت بـــر روئـــی کـــه مـــاه
ســـجده آرد پـــیش او در ســـجده گـــاه
در زمـــان انـــداخت شـــمشیر آن عـــلی
کـــــرد او انـــــدر غـــــزایش کـــــاهلی
گشت حـــیران آن مـــبارز زیـــن عـــمل
از نـــمودن عـــفو ورحـــم بـــی مـــحل
گـــفت بـــر مـــن تـــیغ تـــیز افـــراشـــتی
از چـــــه افکـــــندی مـــرا بگـــذاشـــتی
آن چـــه دیـــدی بـــهتر از پـــیکار مـــن
تـــا شـــدی تـــو سست در اشکـــار مـــن
آن چه دیدی که چنین خشمت نشست
تـــا چـــنین بـــرقی نـــمود وبـــاز جست[1]

١ـ يقول : « فتفل (الملعون) بوجـه الإمـام على الرغـم مـن كـونه فـخر كـلّ نـبيّ ووصـيّ .

لقد تفل اللعين على وجهٍ يسجد القمر لجلاله وعظم شأنه.

فأرجع الإمام سيفه إلى غمده على أثر ذلك وكأنّ اللعين قد ألزمه حجّة.

فأحتار ذلك المقاتل من هذا التصرُّف ، ورحمة الإمام وعفوه دونما سببٍ يعقله.

فساءله : لِمَ أغمدتّ سيفك البتّار بعد أن شهرته عَلَيَّ وكنت في موضع القوّة والسيطرة؟

فما الذي رأيت فكان أفضل من محاربتك لي وصار سبب تراجعكَ عن قتلي ؟

وما الذي رأيتَ حتّى سكن غضبك عَلَيّ وسخطكَ تجاهي وخفتا بعد أن كانا كالبرق الخاطف ؟».

آن چه دیدی کـه مـرا ز آن عکس دیـد
در دل وجـــان شــعله‌ای آمــد پــدید
آن چــه دیــدی بـهتر از کـون ومکـان
کـه بـه از جـان بـود وبـخشیدیم جـان
در شـــــجاعت شـــیر ربّـــانیستی
در مــروّت خــود کــه دانــد کــیستی
در مـــروّت ابـــر مــوسائی بــه تــیه
کــامد از وی خــوان ونـان بـی شـبیه[1]

ثمّ يواصل الملّا رحمة الله عليه شعره على هذا المنوال ، حتّى يصل إلى حيث يقول :

ای عــلی کــه جــمله عـقل ودیـده‌ای
شـــمّه‌ای واگــو از آن چــه دیــده‌ای
تــیغ حــلمت جــان مـا را چـاک کـرد
آب عــلمت خــاک مــا را پــاک کـرد
بــازگو دانــم کــه ایـن اسـرار هـوست
زانکــه بـی‌شمشیر کشـتن کـار اوست[2]

١ـ يقول : «لقد تلظّت النار في قلبي وروحي بفعل عملك هذا؛ أنت حقّاً أسـدالله الذي حاز على كلّ مراتب الشجاعة ؛ وأنت من انفرد بالمروءة ولم‌يُشرك معه أحداً؛ مثلك في المروءة كمثل غمامة موسى التي كانت تُغدق النِّعم الكثيرة على قومه».

٢ـ يقول : «يا عليّ ! يا كلّ العقل ومجموع النواظر ، حدِّث ولو قليلاً بما رأيتَ .
إنّ حسام حلمك قطّعنا إرباً إرباً ، وطهّرَ ماء علمك هذا ترابنا وطينتنا.
قُل لي ! أكان ذلك من أسرار الله ، إذ القتل بدون سيف دأبه وديدنه؟».

صـــانع بـــى آلت وبـــى جـارحـه
واهب ايـــن هـــديه‌ها بـــى رابـحه
صـــد هـــزاران مـــى‌چشاند روح را
كـــه خـــبر نـــبود دل مـجروح را
صـد هـزاران روح بـخشد هـوش را
كـه خـبر نـبود دو چشـم وگـوش را[1]

يقول الملّا : سأل الكافر عليّاً : يا علي المرتضى ! يا أمير المؤمنين ! يا من يفيض وجوده بالعقل والدراية ، أُناشدك أن تبيّن لي قليلاً ممّا حصل وجعلك تعرض عن قتلي والذي منحني الحياة الخالدة ومُنّ عَلَيّ بالإسلام . أنت ذلك الشخص الذي قتل بصبره وحلمه اللذين هما أمضى من السيف البتّار شركي ووثنيّتي وأحييتني على عالم التوحيد واليقين والعرفان ووهبتني حياة جديدة ! أنت ذلك الشخص الذي أسجد لنا الملائكة بماء حياته وعلمه ومعرفته ، وطهّر طينة خلقتنا من دنس الشرك والجهل وسار بنا نحو النور وضياء العلم بـ **عَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** منتشلاً إيّانا من دياجير الظلمة وشوائب الجهل !

والآن قل لي أليس قتل نفسي الأمّارة بالسوء من دون حسام أو سيف هو من عمل الله علّام الغيوب ، فهو الذي يُحدث الأُمور بلا أسباب ووسائل ومقدّمات ومعدّات ولا يحتاج إلى مساعد ومعين ورفيق .

١ـ يقول : «أعلَم أنّ الذي وهبك هذا إنّما هو الخالق (لكلّ شيء) دون آلة أو جوارح.
هو الذي يسقي الروح آلاف الكؤوس (من المعاني) ، لكن القلوب المجروحة لاتحسّ بذلك.
وهو الذي يمنح الإدراك آلاف الأرواح والمعاني التي تجهلها العين والأُذن».

هو الذي يعمل دون آلة أو جوارح ، ويسخّر لنا كلّ هذه العطايا والهبات مجّاناً ودون مقابل ولا يبتغى من وراء ذلك منفعة أو فائدة .

هو الذي يسقي أرواحنا آلافاً مؤلّفة من المعاني السامية والمسائل الرفيعة دون أن تطّلع على ذلك قلوبنا ومهجنا التي تمسك الروح بزمامها .

هو الذي يوصل إلى فهمنا وإدراكنا آلافاً من الأُمور الغامضة والمشاكل المستعصية ، والتي لا سبيل إلى إدراكها بحواسّنا الظاهرة من سمع أو بصر ، ومنافذ درك هذه العلوم بوساطة هذه الحواسّ مغلقة .

باز گو ای باز عرش خوش شکار
تا چه دیدی این زمان از کردگار
چشم تو ادراک غیب آموخته
چشمهای حاضران بر دوخته[1]
آن یکی ماهی همی بیند عیان
و آن یکی تاریک می‌بیند جهان
و آن یکی سه ماه می‌بیند بهم
این سه کس بنشسته یک موضع نَعَم[2]

١ـ جاء في «لغت نامهٔ دهخدا» ج ٢٢ ، كتاب «دال» ، لفظ «دوخته» ص ٣٢٩، العمود الأيسر: «بر دوخته» بمعنى الذي خِيط . واستشهد بقول النظاميّ:

دهی چون بهشتی برافروخته بهشتی صفت حُلّه بر دوخته

يقول : «قريةٌ مُضيئة متلالئة كالجنّة ، ترفل في حُلّةٍ (جميلة) كأصحاب الجنّة».

٢ـ يقول في الأبيات : «أخبرني ، يا صقر العرش الماهر في الصيد ، ما الذي رأته عيناك من الغيب ولم تره عيون الحاضرين.

فلقد تعلّمت عيونك إدراك الطيب ، بينما أعين الحاضرين قد خيطت وأُغلقت.

فمنهم من يرى القمر عياناً وباستمرار ، ومنهم من يرى العالم مظلماً.

وثالثٌ يرى القمر وكأنّه ثلاثة أقمار ؛ وكلُّهم جالسون معاً في مكان واحد».

چشـــم هـــر سـه بـاز وچشـم هـر سـه تـيز
در تـــو آمـــيزان[1] واز مـــن در گـــريز
سحر عين است اين عجب لطف خفى است
بـر تـو نـقش گـرگ وبـر مـن يـوسفى است
عـــالم ار هـــجده هـــزار است وفـزون
هـــر نـــظر را نـــيست ايـــن هـــجده زبـون[2]

يا عليّ المرتضى ، أيّها الباز الصيّاد الماهر الأثير عـند عـرش اللـه ،

١ـ جاء في «لغت نامهٔ دهـخدا» ج ٢ ، كـتاب «آ» ص ١٨٣ ، العـمود الأ وسـط، لفـظ «آويزان»: يعني حال الامتزاج والاختلاط.

٢ـ جاء في «لغت نامهٔ دهخدا» ج ٢٥ ، كتاب «زاء» ص ٢٠٢ ، العمود الأ يـمن، لفـظ «زبون»: المُطيع المنقاد . وأورد عدّة شواهد ، منها بيت شعر للعطّار يقول فيه:

زبون عشق شو تـا بـر كشـندت كه هر گاهى كه كم گشتى فزونى

يقول : «كُن مطيعاً للعشق حتّى تُقتل ، فإن أنت تنزّلتَ رَفَعَك وزادَك (مقاماً)».

كما أورد شاهداً من المولويّ :

ما چو مـصنوعيم وصـانع نـيستيم جـز زبـون وجـز كـه قـانع نـيستيم

يقول : «نحن مصنوعون لا صانعون ، لذا لسنا إلّا قانعين صاغرين مُنقادين».

كما ذكر شاهداً من الملّا حسين الكاشفيّ :

براى يک دمه شهوت كه خاک بر سر آن زبون زن شدن آئين شـيرمردان نـيست

يقول : «إنّ شيم أُسد الرجال لا تـرتضي الخـضوع لامـرأة مـن أجـل لحـظة شـهوة تعيسة!».

يقول في أبيات المتن : «فالثلاثة يمتلكون عيوناً مفتوحة وحادّة النظر، مُحدقين بكَ وفارّين مِنّي.

أهذا سِحر أم لُطف خفيّ حيث أُعطيتَ دَور الذئب وأُعطيتُ دَورَ يوسف.

ولو كان عدد العوالم ثمانية عشر ألفاً أو أكثر فهي لن تكون مطيعة أو منقادة لرأي أيّ منها؛ لأنّ رأيك وأمرك وحده هو الذي جعلها مُنقادة ومطيعة».

يا مَن أوقع أفضل وأسمى النفوس في حبائل محبّته وفتوّته وعدله ، فأخرجها من نفسها الشهوانيّة وأدخلها في عالم الروح المعنويّة والحياة السرمديّة ، فأخرجتها من ذاتها وألحقتها بربّها ! والآن أخبرني ما الذي رأيتَ من ربّك حتّى انصرفت عن قتلي وأخذت بيدي عند ربّي ؟!

فعينا سرّك وباطنك استقتا علم الغيب في حين أنّ عيون الآخرين قد خيطت وسُدّت .

ببين تفاوت ره ازكجاست تا بكجا ؟[1]

إنّه لأمرٌ عجب ، أن يجلس ثلاثة أنفار في مكان واحد : أحدهم موحّد يُبصر الله بالوحدانيّة ويرى جميع العوالم متجلّية في ظهور وطلوع وجهه ، والثاني مشرك يعبد الأوثان ويُنكر خالق الأكوان مقضيّاً حياته في عبادة المادّة والانتماء إلى الطبيعة ، وثالث يقول بالتثليث (الذات والعلم والروح) . ويؤمن ويعتقد بأنّ الأب والأبن والروح القدس هم ثلاثة أقانيم . فهؤلاء الثلاثة لهم أعين وبصر حادّ ولكنّ القمر الذي في السماء له شكل مختلف في عين كلّ منهم . الأوّل يعترف بوحدة القمر والثاني ينكره بالمرّة ويراه الثالث بعينه الرمداء ثلاثاً ، والثلاثة هم في حالة تفاعل مع الحقيقة العلويّة التي تمثّل جوهر الوحدة وفي نفس الوقت يعيشون حالة الفرار من ذاتهم وأنانيّتهم ، فعجباً : هل ما حدث كان سحراً وخداعاً أغشى أعين الناظرين أم هو من فعل ألطافه الخفيّة سبحانه عليك يا علي إذ كان بإمكانك أن تعاملني معاملة الذئب لفريسته وتقطّعني بسيفك إرباً إرباً ، لكن صنيعك هذا معي أنقذني كما أُنقِذ يوسف من غيابت الجبّ ورُفع إلى القمر ، ومنحني سلطان الدنيا والآخرة . يا علي ! الحقّ أنّك سيفٌ ذو حدّين : حدّه الأوّل

١ـ يقول : «انظر إلى البون الشاسع بين هذا وذاك!».

غضب وسطوة وطوفان ، وحدّه الآخر حياة خالدة وتوحيد وعرفان .

فأيّ شخص أنت ! أفعالك إلهيّة يعجز عنها الآخرون ، وكلّ عوالم الملك والملكوت هذه مطيعة لك مؤتمرة بأمرك . فعل إيمانك يسخّر له القلوب ويترك آثاره عليها ، إنّه سلطان توحيدك وعرفانك الذي تسلّط على قلبي ، أنا الكافر القادم لمبارزتك وقتالك ، والذي صيّرني مسلماً في لحظة واحدة .

نعم ، فالعوالم المادّيّة والمثاليّة والعقليّة كلّها لك مطيعة بحول الله وقوّته ، فلو أن عدد العوالم كان ثمان عشرة ألف أو أكثر فإنّها لا تأتمر بأمر أحد إلّا بأمرك أنت ولا تنقاد إلى رأي إلّا رأيك .

راز بگشـــا ای عـــلیّ مـــرتضی
ای پس از سوءُ القَضا حُسْنُ القَضا
یا تو واگو آنچه عقلت یافته است
یا بگویم آنچه بر من تافته است
از تو بر من تافت چون داری نهان
می‌فشانی نور چون مه بی‌زبان
لیک اگر در گفت آید قرص ماه
شـــبروان را زودتـــر آرد بـــه راه[1]

١ـ يقول :

«اكشف الأسرار يا عليّ المرتضى ، يا مَن منَّ بحسن قضائه بعد أن جوبِهَ بسوء القضاء.

فإمّا أن تقول أنت كلّ ما احتواه عقلك وأحاط به ، وإمّا أذكر أنا ما حَلّ بي .

فقد سطع من نورك عَلَيّ ما يشبه نور القمر وضيائه.

ولا يغرّنّكم ذلك فإنّ ضياء القمر هَدى الكثير في ظلمات الليل وأسعفهم بالوصول».

از غـلط ايـمن شـوند واز ذهـول
بانگ مه غالب شود بر بـانگ غـول
مـاه بـی‌گفتن چـو بـاشد رهـنما
چـون بگـويد شـد ضـيا انـدر ضـيا
چـون تـو بـابی آن مـدينهٔ عـلم را
چـون شـعاعی آفـتاب حـلم را
باز باش ای بـاب بـر جـويای بـاب
تـا رسـند از تـو قُشـور انـدر لُـباب
بـاز بـاش ای بـاب رحـمت تـا ابـد
بـارگاه مـا لَـهُ كُـفْوًا أحَـدْ[1]

يا علي ، أيّها المرتضى ، أزح الستار واكشف الأسرار ! يا من أبدلت سوء عاقبتي وشركي وهلاكي في سبيل الطاغوت ، إلى حسن العاقبة والإيمان والحياة الخالدة في سبيل الله ! ويا من استردّ حقّه في الخلافة وأصبح ملاذاً لجميع خلق الله في حسن القضاء الإلهيّ ، بعد أن غصبه الخليفة الثالث مقامه ومنزلته ! والآن تفضّل عَلَيّ وأخبرني ما الذي تناهى إلى عقلك ، وجعلك تنصرف عن قتلي وقتالي ، أم هل أُخبرك أنا بالذي

١ـ يقول : «فآمنهم (ضياء القمر) من الوقوع في المحذور وطغى سلطانه على بطش الغيلان في جوف الصحراء.
فالقمر هادٍ وقائد مع أنّه لا ينطق ، فإذا ما نطق كان نوراً على نور.
فلأنّكَ باب مدينة العلم ، ولأنّكَ شعاع شمس الحلم والرأفة.
فلتبقَ مفتوحاً يا باب العلم بوجه مَن يبحثون عن تلك الباب حتّى ينفذون من قشرك إلى لبّك.
ولتبقَ مفتوحاً يا باب الرحمة إلى الأبد ؛ يا ملاذاً ، ما له كفواً أحد».

غمرني من فيض النفحات السبحانيّة والسبحات الرحمانيّة فملأ قلبي بالإيمان وصبّ على روحي اليقين ؟!

إنّ هذه الفيوضات القدسيّة والألطاف القدّوسيّة التي أُغدقت عَلَيّ كلّها نابعة من قلبك المبارك ، فكيف لك والحال هذه أن تكتم كلّ ذلك ؟ كالبدر المنير في ليلة تمامه ينير الطريق للناس في ظلمة الليل الحالك دون بيان . فكيف بنا إذا كان هذا البدر يهدي بالبيان مع ما له من نور وضياء ، فذاك نور على نور وسيُحيل العالم المظلم إلى دنيا مضيئة بنور الهداية ، بفعله وقوله وتكوينه وتشريعه .

يا باب مدينة علم النبيّ ، وبوّابة معرفتها . فبحقّ ما لك من المنزلة الرفيعة ، وما تتّصف به من حلم رسول الله وصبره وجلده دمتَ ذخراً للباحثين عن العلم وطالبي طريق السلامة والعقل والمعرفة ، حتّى تنضج الألباب ، وتنفذ من القشور إلى اللب والجوهر وينتقل العالم المجرّد والقدرة المحضة إلى الفعليّة الصرفة .

دامت باب مدينة علمك مفتوحة إلى الأبد ولا أُغلقت مطلقاً ، فأنت الملاذ الذي لا ندّ له ولا نظير ، ووحيد معركة الفضيلة والرسالة هذه ، وحارس ساحة الواحد الذي لا شريك له فأنت الكفء لهذه الحراسة !

هر هوا وذرّه‌ای خود منظری است
ناگشاده کی بود کآنجا دری است
تا نبگشاید دری را دیده‌بان
در درون هرگز نجنبد این گمان[1]

١ـ يقول : «إنّ لكلّ ذرّة ونَسمة منظرها الخاصّ وشكلها المُمَيَّز.
فإن لم تُفتَح باب من الأبواب لا يمكن تصوّر ما خلف تلك الباب أبداً».

چون گشاده شد دری حیران شود
مرغ امیّد وطمع پرّان شود
غافلی ناگه به ویران گنج یافت
سوی هر ویرانه زان پس می‌شتافت
تا زدرویشی نیابی تو گهر
کی گهر جوئی ز درویش دگر
سالها گر ظنّ دود با پای خویش
نگذرد زاشکاف بینی‌های خویش
تا ببینی نایدت از غیب بوی
غیر بینی هیچ می‌بینی بگوی[1]

یا علی أیّها المرتضی ! أنت شیخ الطریقة ! أنت معلّم الأُمّة ودلیلها أنت السیّد والمرشد إلی سبل الله ! افتح لقلبي باباً ! وخذ بیديّ فإنّي لا استطیع الوقوف علی قدمي .

فما أكثر المناظر الخلّابة الموجودة بين السماء والأرض ، ولكن أنّى

١ـ يقول : «فإذا فُتحت باب من تلك الأبواب تحيّر طائر الأمل وصار يطمع في التحليق والطيران.

وقد وجد غافل كنزاً في خربة ، فصار يهرع إلى كلّ خربة يراها (فيفتّشها).

وإذ لم يتمكّن المرء من اغتنام جوهرة من درويش صادفه ، فإنّه بالتأكيد لن يحصل على ذلك من درويش غيره.

ولو سعى الظنّ إلى الجري برجليه سنوات طوال ما خطا أبعد من أنفه.

ولو لم يأتك من الغيب شيء ؛ ما كنت تستطيع النظر أبعد من أنفكَ».

«مثنوي معنوي» للملّا محمّد البلخيّ الروميّ ، أواخر الجزء الأوّل ، ص ٩٦ و٩٧، طبعة علاء الدولة ؛ وص ٩٦ و٩٧ ؛ طبعة الميرزا المحموديّ ؛ وص ٩٧ و٩٨، طبعة الميرخاني.

للسجين الذي أُوصدت عليه أبواب السجن أن يُمتّع ناظريه بها ؟!

فإن لم يفتح السجّان باباً على قلوب الأتقياء فلن يستعر أمل اللقاء ورجاء الوصول في قلوب النجباء ، وأمّا إذا فتح وليّ الله والسيّد باباً من الحبّ على قلب السالك ، قُدحت في الفؤاد شرارة ونشر طائره جناحيه استعداداً للتحليق نحو عوالم القدس .

فلا يصحّ القول بأنّ البعض قد وصل إلى غايته دونما حاجة إلى معلّم وحاز على كنزه المنشود ، هذا ما يقوله الغافلون وينطق به الجاهلون فيكون كمن عثر بالصدفة على كنز في خربة فيقضي عمره كلّه يجول في الخرائب بحثاً عن كنوز أُخرى ، فهو مسكين لا يعلم أن ليس كلّ خربة تحوي كنزاً .

فلا مناص من اتّخاذ المعلّم وفتح نافذة من فضائله على قلوبنا من عالم الغيب حتّى يتيسّر فتح الطريق ،كالدراويش والعارفين الذين سلكوا الطريق وغنموا ، فإن نهلتَ من منهلهم فتوجّه نحو مسحوقي الفؤاد والدراويش ، لتنهل منهم كذلك .

إذا انطلق السالك نحو هدفه سنوات طوال معتمداً فكره وتصوّره واختياره وظنّه ، فقد استند على رجليه هو لا رجلي معلّم محنّك . وعلى هذا فهو لا يستطيع التقدّم خطوة أبعد من أنانيّته أو التحرّك خارج نطاق نفسه ، مادمتَ لا ترى إلّا نفسك فلا أثر لعالم الغيب ، ولا أمل في حصولك على نفحة منه . ففي هذه الحالة ، فإنّك سترى دوماً الأغيار وليس الأخيار ، فإن كنت قد وصلت بذلك إلى أحبابك فبيّن لنا ذلك حتّى نتّبع طريقتك دونما حاجة إلى إرشاد معلّم أو ولاية شيخ !

واعلم أنّ ما أورده الملّا الروميّ في هذه الأبيات له نفس محتوى ومضمون تلك الرواية التي ذكرناها في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في

جوابه على ذعلب ، برواية عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام والتي رواها الشيخ الصدوق في «التوحيد» بسند متّصل عن عبد الله بن يونس . وقد بدا من كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الرواية أنّه لم يشأ أن يقول بأنّي أنا وحدي الذي رأيت ربّي ولهذا أعبده ، بل من الواجب أن يكون هذا حال جميع عباد الله . فإذا دقّقنا في عبارة : **مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبّاً لَمْ أَرَهُ** ، لظهر جليّاً أنّه عليه السلام إنّما أراد أن يُشعر كلّ العابدين بأنّ هذا هو واجبهم تجاه معبودهم ، واستخدامه لفظة **مَا كُنْتُ** إنّما كان مثالاً رائعاً في بيانه لتلك الحقيقة المسلّم بها .

ودليلنا على أنّ وجوب **لقاء الله** ورؤيته بعين القلب وحقيقة الإيمان واجب على جميع البشر يقومون بعبادة وتقديس الله ، معبودهم ، هو رواية جليلة وغنية ، التي ذكرها شيخنا الأقدم : **الشيخُ السعيد عليّ بن محمّد بن عليّ الخَزّاز القمّيّ** في كتابه القيّم والنفيس الموسوم بـ «كفاية الأثر في النصوص على الأئمّة الاثني عشر» ورواها عنه كذلك العلّامة المجلسيّ رضوان الله عليه في «بحار الأنوار» .

فقد رواها المجلسيّ نقلاً عن الكتاب المذكور عن الحسين بن عليّ ، عن هارون بن موسى ، عن محمّد بن الحسن ، عن الصفّار ، عن يعقوب بن يزيد ، عن ابن أبي عمير ، عن هشام أنّه قال : كنتُ عند الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام فدخل عليه **معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعيَن** .

فقال معاوية بن وهب :

يَابْنَ رَسُولِ اللَهِ ! مَا تَقُولُ فِي الخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ رَأَى رَبَّهُ عَلَى أَيِّ صُورَةٍ رَآهُ ؟ وَعَنِ الحَدِيثِ الَّذِي

رَوَوْهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الجَنَّةِ عَلَى أَيِّ صُورَةٍ يَرَوْنَهُ !

فَتَبَسَّمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاوِيَةُ ![1] مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ يَأْتِي عَلَيْهِ سَبْعُونَ سَنَةً أَوْ ثَمَانُونَ سَنَةً يَعِيشُ فِي مُلْكِ اللَهِ وَيَأْكُلُ مِنْ نِعَمِهِ، ثُمَّ لَا يَعْرِفُ اللَهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ !

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا مُعَاوِيَةُ ! إِنَّ مُحَمَّداً صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ يَرَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُشَاهَدَةِ العِيَانِ . وَأَنَّ الرُّؤْيَةَ عَلَى وَجْهَيْنِ : رُؤْيَةُ القَلْبِ وَرُؤْيَةُ البَصَرِ ؛ فَمَنْ عَنَى بِرُؤْيَةِ القَلْبِ فَهُوَ مُصِيبٌ ، وَمَنْ عَنَى بِرُؤْيَةِ البَصَرِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَهِ وَبِآيَاتِهِ ؛ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : مَنْ شَبَّهَ اللَهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ .

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنِ الحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ، قَالَ : سُئِلَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقِيلَ : يَا أَخَا رَسُولِ اللَهِ ! هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟!

فَقَالَ : وَكَيْفَ أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ ؟! لَمْ تَرَهُ العُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ العِيَانِ ؛ وَلَكِنْ رَأَتْهُ القُلُوبُ بِحَقَائِقِ الإِيمَانِ .

فَإِذَا كَانَ المُؤْمِنُ يَرَى رَبَّهُ بِمُشَاهَدَةِ البَصَرِ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ جَازَ[2] عَلَيْهِ البَصَرُ وَالرُّؤْيَةُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ ، وَلَابُدَّ لِلْمَخْلُوقِ مِنَ الخَالِقِ ؛ فَقَدْ جَعَلْتَهُ إِذاً مُحْدَثاً مَخْلُوقاً ! وَمَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ فَقَدِ اتَّخَذَ مَعَ اللَهِ شَرِيكاً .

وَيْلَهُمْ ! أَوَلَمْ يَسْمَعُوا يَقُولُ اللَهُ تَعَالَى : «لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَطِيفُ ٱلْخَبِيرُ»[3] . وَقَوْلَهُ :

«لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى

١ـ وفي «الكفاية» جاء بلفظ : «**يَا فُلَانُ**» .

٢ـ جاءت في «الكفاية» كلمة **حَازَ** ، با الحاء المهملة.

٣ـ الآية ١٠٣ ، من السورة ٦ : الأنعام .

فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا».[1]

وَإِنَّمَا طَلَعَ مِنْ نُورِهِ عَلَى الجَبَلِ كَضَوْءٍ يَخْرُجُ مِنْ سَمِّ الخِيَاطِ؛ فَدُكْدِكَتِ الأَرْضُ وَصَعَقَتِ الجِبَالُ فَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً أَيْ مَيِّتاً. فَلَمَّا أَفَاقَ وَرُدَّ عَلَيْهِ رُوحُهُ قَالَ: سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّكَ تُرَى، وَرَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ أَنَّ الأَبْصَارَ لَا تُدْرِكُكَ، وَأَنَا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ وَأَوَّلُ المُقِرِّينَ بِأَنَّكَ تَرَى وَلَا تُرَى، وَأَنْتَ بِالمَنْظَرِ الأَعْلَى!

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ أَفْضَلَ الفَرَائِضِ وَأَوْجَبَهَا عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ وَالإِقْرَارُ لَهُ بِالعُبُودِيَّةِ. وَحَدُّ المَعْرِفَةِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ قَدِيمٌ مُثْبَتٌ مَوْجُودٌ[2] غَيْرُ فَقِيدٍ مَوْصُوفٌ مِنْ غَيْرِ شَبِيهٍ وَلَا مُبْطَلٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ.

وَبَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الرَّسُولِ وَالشَّهَادَةُ بِالنُّبُوَّةِ، وَأَدْنَى مَعْرِفَةِ الرَّسُولِ الإِقْرَارُ بِنُبُوَّتِهِ وَأَنَّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ كِتَابٍ أَوْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ فَذَلِكَ مِنَ اللَهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَبَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الإِمَامِ الَّذِي بِهِ تُؤْتَمُّ [يُؤْتَمُّ] بِنَعْتِهِ وَصِفَتِهِ وَاسْمِهِ فِي حَالِ العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَأَدْنَى مَعْرِفَةِ الإِمَامِ أَنَّهُ عِدْلُ النَّبِيِّ إِلَّا دَرَجَةَ النُّبُوَّةِ، وَوَارِثُهُ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةُ اللَهِ وَطَاعَةُ رَسُولِ اللَهِ، وَالتَّسْلِيمُ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَالرَّدُّ إِلَيْهِ، وَالأَخْذُ بِقَوْلِهِ.

وَيَعْلَمَ أَنَّ الإِمَامَ بَعْدَ رَسُولِ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعْدَهُ الحَسَنُ ثُمَّ الحُسَيْنُ ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ثُمَّ أَنَا، ثُمَّ بَعْدِي مُوسَى ابْنِي، وَبَعْدَهُ عَلِيٌّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ

١ـ قسم من الآية ١٤٣، من السورة ٧: الأعراف.

٢ـ جاء في «الكفاية» مُثْبِتٌ بِوُجُودٍ.

مُحَمَّدٌ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلِيٌّ ابْنُهُ ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ الحَسَنُ ابْنُهُ؛ وَالحُجَّةُ مِنْ وُلْدِ الحَسَنِ.

ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاوِيَةُ ! جَعَلْتُ لَكَ أَصْلاً فِي هَذَا فَاعْمَلْ عَلَيْهِ، فَلَوْ كُنْتَ تَمُوتُ عَلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ لَكَانَ حَالُكَ أَسْوَأَ الأَحْوَالِ ! فَلَا يَغُرَّنَّكَ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَهَ تَعَالَى يُرَى بِالبَصَرِ !

قَالَ : وَقَدْ قَالُوا أَعْجَبَ مِنْ هَذَا ؛ أَوَلَمْ يَنْسِبُوا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى المَكْرُوهِ ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ الطَّيْرِ ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا يُوسُفَ الصِّدِّيقَ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زُلَيْخَا ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنَ القَتْلِ ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا رَسُولَ اللَهِ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زَيْدٍ ؟! أَوَلَمْ يَنْسِبُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ القَطِيفَةِ ؟!

إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ تَوْبِيخَ الإِسْلَامِ لِيَرْجِعُوا عَلَى أَعْقَابِهِم ! أَعْمَى اللَهُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَعْمَى قُلُوبَهُمْ ، تَعَالَى اللَهُ عَن ذَلِكَ عُلُوّاً كَبِيرًا.[1]

وقد أنشد عالمنا الجليل : المرحوم الشيخ محمود الشبستريّ أعلى الله درجته أبياتاً بهذا الخصوص :

حكيم فلسفى چون هست حيران

نمى‌بيند ز اشيا غير امكان[2]

١ـ «بحار الأنوار» ج ٢ ، ص ١٢٠ و ١٢١ ، باب نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها، طبعة الكمبانيّ وطبعة المكتبة الحيدريّة ، ج ٤ ، ص ٥٤ إلى ٥٦ ؛ و«كفاية الأثر» ص ٢٥٦ إلى ٢٦٠ ، منشورات بيدار.

٢ـ «ديوان گلشن راز» بخطّ النستعليق للعماد الأردبيليّ ص ٩ إلى ١١.

يقول : «احتار الحكيم الفيلسوف الذي لا يرى من الأشياء إلّا الإمكان».

ز امکـــان مـی‌کند اثـبات واجب وزین حیران شده در ذات واجب
گهی از دور دارد سیر مـعکوس گهی اندر تسلسل گشته محبوس
چو عقلش کرد در هستی تـوغّل فـــرو پـیچید پـایش در تسـلسل
ظهور جملهٔ اشـیا بـه ضـدّ است ولی حقّ را نه مانند ونه نِدّ است
چو نبود ذات حقّ را شبه وهـمتا نـــدانـــم تـــا چگـونه دانـد آن را
نـــدارد مـمکن از واجب نـمونه چگـــونه دانـــدش آخـر چگـونه
زهی نادان که او خورشید تـابان بـه نـور شـمع جـوید در بـیابان
اگر خورشید بر یک حال بـودی شـــعاع او بـه یک مـنوال بـودی
ندانستی کسی کـین پـرتو اوست نبودی هیچ فرق از مغز تا پوست
جهان جمله فروغ نـور حـقّ دان حق اندر وی ز پیدائیست پـنهان
چه نور حقّ ندارد نقل وتـحویل نـــیاید انـــدرو تـــغییر وتـــبدیل
تو پنداری جهان خود هست دائم بـــذات خـــویشتن پـیوسته قـائم
کسی کـو عـقل دورانـدیش دارد بسـی سـرگشتگی در پـیش دارد
ز دورانـــدیشی عـــقل فـــضولی یکی شد فـلسفی دیگـر حـلولی
خرد را نیست تاب نور آن روی برو از بهر او چشم دگـر جـوی[1]

١ـ يقول : «فهو يقوم بإثبات الواجب بالإمكان فاحتار بذلك في ذات الواجب تعالى؛ فتارة يرى الأشياء على عكس ما يجب أن تُرى ، وتارة يكون أسيراً للتسلسل؛ فلمّا تـوغّل عقله في الوجود صار مُقيَّدا في التسلسل ؛إنّ ظهور الأشياء كلّها تكون بمقارنتها بضدّ ها، لكنّ الحقّ تعالى ليس له نظير أو ندٌّ يمكن مقارنته به ؛ وعلى هذا فكيف يمكن معرفة الحـقّ ؛ فمنهم من يبحث عن الشمس الساطعة في الصحراء مستعيناً بضوء شـمعة ؛ فـي حـين أنّ الشمس لو كانت على حال ثابتة لكان شعاعها على حال ثابت أيضاً؛ وأعلم أنّ العالَم بأسره إنّما هو شعاع نور الحقّ تعالى ، وهو تعالى ظاهر باحتجابه في ذلك العالَم؛ ولمّا كان نـور الحقّ لايطرأ عليه نقل ولا تحوُّل ، فإنّه لا يتعرّض إلى التغيير أو التبديل؛ فهل تظنّ أنّ ⇦

وقد شرح العالم الخبير والعارف البصير الشيخ محمّد اللاهيجيّ هذه الأبيات في «شرح گلشن راز» قائلاً :

تلك هي جماعة اختُصّت بالعناية الأزليّة من لدن الله ، وانتشلتهم توفيقات الهداية الإلهيّة من حضيض مقام استدلال الأثر بالمؤثّر إلى أوج درجات شهود المؤثّر بالأثر ، وذابوا في تجلّي وحدانيّة الذات ، وبعد البقاء والإحساس بعين الحقّ رأوا أنّ ما نزل من عالم الغيب إلى مراتب الأسماء والصفات والآثار إنّما هو ذات الواحد المطلق متجلّيةً في كلّ مكان ومظهر بظهور ما ، وكلّ الأشياء إنّما هي قائمة بوجود الحقّ تعالى ، وإنّ الحقّ القيّوم هو كلّ تلك الأشياء .

گنج پنهانست زیر هر طلسم پیش عارف شد مسمّی عین اسم
دیدهٔ حقّبین اگر بودی ترا او رخ از هر ذرّه بنمودی ترا[1]

إنّها النخبة الحقيقيّة من العارفين الذين أدركوا كلّ الأشياء من خلال النور الإلهيّ ، ورأوا الحقّ متجلّياً في صور المظاهر جميعاً وهم الوارثون للقائل **عَرَفْتُ الأَشْيَاءَ بِاللَهِ**[2]

وجماعة أُخرى لم تَخْطُ خطوة أبعد من طور التقليد ، وبسبب

⇦ العالَم قائمٌ ودائمٌ بذاته؟ إنّ من يمتلك عقلاً بعيد الفكرة سيواجه الحيرة والضياع كثيراً؛ فلقد سبّب العقل الفضوليّ بتفكّره الزائد أن يصبح امرؤ فلسفيّاً ويُضحي الآخر حلوليّاً؛ فليس للعقل القدرة على تحمّل نور تلك الطلعة ، فابحث له عن عين أُخرى (يُبصر بها)».

١ـ يقول : «إنّ الكنز مدفون تحت أيّ طلّسم ، وصار الاسم والمسمّى سواء لدى العارف.

فلو نظر المرء إلى الأشياء بعين البصيرة والعقل لرأى وجه الحقّ ونوره من خلال كلّ ذرّة من ذرّات تلك الأشياء».

٢ـ القائل لهذه العبارة هو الرسول الأكرم ، بناء على قول المؤلّف في الصفحة التالية.

افتقارهم للقابليّة الفطريّة لم يتمكنوا من الوصول إلى مرتبة الشهود الحقيقيّ التي مرّ ذكرها ، فهم يحاولون إثبات مبدأ الواحد الذي هو منشأ الكثرات ، بالاستدلال ؛ ولا يعلمون من الأشياء إلّا (عالم) الإمكان ، ويستدلّون على وجود الواجب من خلال وجود الممكنات . ولأنّ برهانهم على إثبات واجب الوجود ممكناً (أي من عالم الإمكان) ، فقد قال :

ز امكان مى‌كند اثبات واجب
ازين حيران شد اندر ذات واجب[1]

فقد أُثبت عن طريق هذا الاستدلال بأنّه يجب أن يكون هناك واجب الوجود ، لكنّ المعرفة الحقيقيّة التي هي العلم بحقيقة الحال لم تحصل هنا ؛ لأنّ هذا المعنى أنّما يحصل بنفي الغير وليس بالإثبات .

وكلّما أوغلوا في إثبات الموجودات ابتعدوا عن حقيقة التوحيد ، فمن أراد معرفة الحقّ بوساطة الأشياء ، فهو ، في الواقع ، يجهل الحقيقة . وأمّا من يعرف الأشياء بالحقّ فهو عارف .

سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم **بِمَا عَرَفْتَ اللَهَ ؟!** قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : **عَرَفْتُ الأَشْيَاءَ بِاللَهِ** . أي عرفتُ الحقّ بالحقّ وعرفتُ الأشياء كذلك بالحقّ .

خويش را عريان كن از فضل اى فضول
ترک خود كن تا كند رحمت نزول
زيركى ضدّ شكست است ونياز
زيركى بگذار وبا گولى بساز[2]

١ـ مَرَّ شَرحه.

٢ـ «المثنوى» ج ٦ ، ص ٦٠٨ ، س ١٢ . طبعة آقا ميرزا المحموديّ ، وورد في ⇦

ولأنّه من المستطاع معرفة شيء بشيء، أو بما يشاكله في الذات، أو بما يشاكله في الصفات، فقد قال:

ظهور جملهٔ اشـيا بـه ضـدّ است ولی حقّ را نه مانند ونه نِدّ است[1]

أي أنّه لا وجود لضدّ ونظير للحقّ في الأُلوهيّة؛ بل ليس شريك في الوجود، بل لا موجود سواه حتّى يكون سبباً لظهور الحقّ بواسطة التضادّ والتماثل؛ بل إنّ نور وجود الواجب قد غمر جميع ذرّات الكائنات، والأجلى والأظهر من كلّ المفاهيم والبديهيّات هو وجود الواحد المطلق، والذي اختفى واستتر من شدّة الظهور والوضوح.

ای تو مخفی در ظهور خویشتن

وی رخت پنهان به نور خویشتن[2]

وليس هناك غير في الحقيقة فيكون سبباً وواسطة لظهور الحقّ؛ **وَالأَشْيَاءُ إِنَّمَا يَتَبَيَّنُ بِأَضْدَادِهَا** فلولا وجود الليل، ما استُدِلّ على وجود النهار، ولولا الفقر ما عُرف الغنى، ولولا الظلمة ما استبان النور، وقس على ذلك؛ لذا فإنّ عدميّة ذاتنا، هي مرآة وجود الحقّ.

جام گیتی نمای او مائیم که به ما هر چه هست پیدا شد[3]

⇦ المعجم اللغويّ «لغت نامهٔ دهخدا» ج ٦، ص ٥٧١، كتاب حرف «گ»، العمود الأيسر: «گول» بمعنى الأبله والجاهل والأحمق والذي يسهل خداعه.

يقول: «تَجَرّد ـ أيُّها الفضوليّ ـ عن الفضل وعن ذاتك وأنانيَّتك حتّى تنزل عليك الرحمة.

ذلك أنّ الذكاء والفطنة هما نقيض الحاجة والعوز، فاترك الذكاء والفطنة وعاشر البُلْه».

١ـ مرّت ترجمته.

٢ـ يقول: «يا مَن هو محجوب بظهوره، ويا مَن ستر وجهه بنور ذاته».

٣ـ يقول: «نحن مرآة وجوده وبنا ظهر كلّ شيء».

وعجزنا وافتخارنا هما مرآة قدرة الحقّ وغناه .

هستی اندر نیستی بتوان نمود مالداران بر فقیر آرند جود
خواجهٔ اشکسته بند آنجا رود که در آنجا پای اشکسته بود
نقصها آیینهٔ وصف وکمال و آن حقارت آینهٔ عزّ وجلال[1]

وقالوا : إنّ الضدّ والشِّبه شريكان في الصفات ، والندّ والمثل شريكان في الذات . وقال بعضهم : إنّما الضدّ والندّ والمثل هي ألفاظ مترادفة ؛ أي لا شريك للحقّ في الذات والصفات ، بل إنّ ذات جميع المخلوقات وصفاتها هي عكس ذاته تعالى وصفاته ، والتي تجلّت في مجالات كثرات العالم ومراياه وظهرت فيها .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ بَدَتْ بِمَظَاهِرٍ فَظَنُّوا سِوَاهَا وَهْيَ فِيهَا تَجَلَّتِ[2]

* * *

مهر رخسار تو می‌تابد ز ذرّات جهان
هر دو عالم پر ز نور ودیده نابینا چه سود[3]

١ـ «المثنوي» ، ج ١ ، ص ٨٥ ، من س ٢ إلى ٦ ، طبعة آقا ميرزا المحموديّ .
يقول : «لا يمكن العثور على الوجود إلّا بالعدم والفناء كما لا يمكن أن يجود على الفقراء إلّا الأغنياء.
وجابر العظام لا يرتاد إلّا على مَن كُسِرَ له عظم.
فالنقائص والثلمات إنّما هي مرآة الوصف والكمال ، وما هذه الحَقارة إلّا مرآة ذلك العِزّ والجلال».

٢ـ البيت ٢٤٦ من تائيّة ابن الفارض الكبرى ، حيث يليه البيت التالي :
بَدَتْ بِاحْتِجَابٍ وَاخْتَفَتْ بِمَظَاهِرٍ عَلَى صِيَغِ التَّلْوِينِ فِي كُلِّ بَرْزَةِ
من طبعة دار العلم للجميع (سنة ١٣٧٢ هـ ، ص ١٠٤ ؛ وطبعة دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٨٢ هـ ، ص ٧٠ ؛ وقد وردت بلفظة «ما ذاك» في النسختين.

٣ـ يقول : «إنّ نور وجهك يشعّ من كلّ ذرّة من ذرّات العالَم ، فإذا كان كلا العالمينِ ⇦

وبرهان وجود الحقّ لا يكون إلّا بالحقّ نفسه حيث لا سبيل للكثرة إلى وجوده مطلقاً ؛ ولا مفرّ من استنباط البرهان من الوجود .

هم به چشم دوست ديدم چون جمالش جلوه‌گر
كافتاب از مشرق هر ذرّه تابان گشته بود[1]

إلى أن قال :

ولأنّ عدم وجود الضدّ والندّ للشيء يوجب اختفاء ذلك الشيء وعدم ظهوره فقد قال :

چو نبود ذات حقّ را ضدّ وهمتا ندانم تا چگونه دانم او را[2]

أي لا وجود للمشابه والمماثل لذات الحقّ ؛ فكلّ ما هو موجود يدلّ عليه ، ولا وجود لموجود سواه ، والطالب لبرهان على وجود ذات الحقّ ، كمن يطلب برهاناً على وجود الماء مع وجود السمك . وقد سئل الشيخ **جنيد البغداديّ : مَا الدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ ؟!**

فقال : **أَغْنَى الصَّبَاحُ عَنِ المِصْبَاحِ !**

روز را نيست حاجتى به چراغ روز خود دارد از چراغ فراغ[3]

وَهَيْهَاتَ ! لا حاجة للبصر إلى الاستدلال بالحاسّة اللامسة في إدراك الألوان (لا حاجة لأثر بعد عين) . **أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ؟**[4]

گر دو چشم حقّ شناس آمد ترا دوست پُر بين عرصهٔ هر دو سرا

⇦ مليء بالنور وكانت العين عمياء ، فما الفائدة؟».

١ـ يقول : «لقد رأيتُ جماله في عين الحبيب كالشمس المشرقة يشعُّ على كلّ ذرّة».

٢ـ مرّت ترجمته .

٣ـ يقول : «لا حاجة للنهار بالضوء ، فهو عن نور الضوء غنيّ».

٤ـ إشارة إلى الآية ١٠ ، من السورة ١٤ : إبراهيم : **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ .**

غرق دريائيم اگر چه قطره‌ايم جملگی شمسيم اگر چه ذرّه‌ايم[١]

فَسُبْحَانَ مَنْ لَيْسَ لِذَاتِهِ خِفَاءٌ إلَّا الظُّهُورُ ، وَلَا لِوَجْهِهِ حِجَابٌ إلَّا النُّورُ.

حجاب روی تو هم روی تست در همه حال

نهان ز چشم جهانی ز بس که پيدائی[٢]

وقال أيضاً : يقول الخواجة عبد الله الأنصاريّ :

اللَهُمَّ تَلَطَّفْتَ بِأَوْلِيَائِكَ فَعَرَفُوكَ ؛ وَلَوْ تَلَطَّفْتَ بِأَعْدَائِكَ لَمَا جَحَدُوكَ !

ولأنّه لا مشاركة بين ذات الواجب والممكن حتّى تصبح وسيلة لمعرفته ، فهو يقول :

ندارد ممكن از واجب نمونه چگونه دانيش آخر چگونه ؟[٣]

فواجب الوجود مطلق لكنّ ذات الممكن عدم ، ومحال معرفة شيء دون أن يكون له مثال في النفس ، ووجود الممكن إنّما هو مجرّد إضافة لا غير ، وذات الأشياء وصفاتها وأفعالها كلّها انعكاس للذات الإلهيّة وصفاتها وأفعالها والمتجلّية في مرايا التعيّنات ، وكلّ مرآة تتجلّى بلون مختلف في أيّ مرآة أُخرى ، وإذا نظرت بعين العيان ، فإنّ ما تتصوّره دليلاً هو عين المدلول ، وأن يُعزى شيء إلى عين دليل نفسه هو فهو الجهل

١ـ يقول : «لو أنّك تسلّحت بنور الحقّ والبصيرة لرأيت وجود مطلوبك ومرادك يملأ وجود العالمينِ.

فنحن هائمون في بحر لُجّيّ وإن كنّا نشبه القطرة ، وكلّنا شموسٌ وإن كنا نشبه الذرّة».

٢ـ يقول : «إنّ حجابك يحجبك في كلّ الأحوال ، فأنت مستور عن عيون العالَمينَ من شدّة تجلّيك وظهورك».

٣ـ مرّت ترجمته .

بعينه ، لأنّه يلزم أن يكون الدليل أجلى وأظهر من المدلول . والعارف الحقّ هو من فني وجوده الإضافيّ والمجازيّ في سطوة نور الوحدة الإلهيّة فناءً مطلقاً ، وبقي ببقاء الحقّ ، ورأى الحقّ بالحقّ وعرفه ، إذ :

لَا يَرَى اللَهَ إلَّا اللَهُ ، وَلَا يَعْرِفُ اللَهَ إلَّا اللَهُ.

عارف آن باشد كه از عين العيان

هر چه بيند حقّ درو بيند عيان

حقّ چو جان وجمله عالم چون تن است

همچو خور در كاينات اين روشن است[1]

قال : لمّا لم يكن للممكن مثال وعلامة وأثر من الواجب ، فلا يمكن في الحقيقة إذاً معرفة الواجب بالممكن ، ذلك أنّ معرفة الشيء تستلزم شيئاً مشتركاً بينهما وإلّاكانت معرفة ذلك الشيء بصفاته السلبيّة ، ولن يكون هناك وجود لليقين الذي يوجب المعرفة التامّة . ومن هذا يتبيّن أنّ علم أرباب الاستدلال ليس بالعلم الذي يقود إلى اليقين ، **وَمِنْ هَذَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ عِنْدَ وَفَاتِهِ:**

يَمُوتُ وَلَيْسَ لَهُ حَاصِلٌ سِوَى عِلْمِهِ أَنَّهُ مَا عَلِمْ

وَفِي هَذَا قَالَ الإمَامُ الرَّازِيُّ:

نِهَايَةُ إدْرَاكِ العُقُولِ عِقَالُ وَغَايَةُ سَعْيِ العَالَمِينَ ضَلَالُ[2]

١ـ يقول : «إنّما العارف (الحقيقيّ) هو مَن يرى الحقّ تعالى من خلال جميع الأشياء. فإنّ الحقّ كالروح وكلّ العالم كالجسد ، وهو كالشمس التي تسطع على الكائنات، فافَهم!».

٢ـ نقل الشيخ البهائيّ في «الكشكول» ج ١ ، ص ٦٢ ، طبعة مصر ، عن الزمخشريّ أنّه قال:

العِلْمُ لِلرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ وَسِوَاهُ فِي جَهَلَاتِهِ يَتَغَمْغَمُ ⇦

.....

⇦ **مَـا لِلتُّـرَابِ وَلِلْـعُـلُـومِ وُإِنَّـمَـا يَـسْـعَـى لِيَـعْـلَـمَ أَنَّـهُ لَا يَعْـلَـمُ**

(ذكرت هذه الأبيات كذلك منسوبة للزمخشريّ في كتاب «معجم الأُدباء» ج ١٩، ص ١٢٩).

ويقول الإمام الرازيّ:

نِـهَـايَـةُ إِقْـدَامِ الـعُـقُـولِ عِـقَـالُ وَغَـايَـةُ سَـعْيِ العَالَمِـيـنَ ضَـلَالُ
وَلَمْ نَسْـتَفِدْ مِنْ سَعْيِنَا طُولَ عُمْرِنَا سِـوَى أَنْ جَمَعْنَـا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
وَأَرْوَاحُنَا مَحْبُوسَـةٌ فِي جُسُـومِنَا وَحَـاصِـلُ دُنْـيَـانَـا أَذىً وَوَبَـالُ

ويقول الخيّام:

اسـرار ازل را نـه تـو دانـیّ ونـه مـن وين خطّ معمّی نه تو خوانیّ ونه من
هست از پس پرده گفتگوی مـن وتـو چون پرده برافتد نه تو مانیّ ونه مـن

يقول: «كِلانا لا يعرف أسرار الأزل ولا يستطيع قراءة هذا اللُّغز.

فكلامنا كلّه من وراء ستار، فإن رُفِعَ هذا الستار لن يبقى هناك لا أنت ولا أنا».

وقال أيضاً:

مـی خـوردن مـن نـه از بـرای طـرب است
نـز بـهر نشـاط وتـرک ديـن وادب است
خـواهـم كـه دمـی ز خـويشتن بـاز رهـم
می خوردن ومست بودنم زين سبب است

يقول: «ليس شُربي للخمرة من جهة الطَرب أو للحصول على القوّة والنشاط أو ترك الدين والأدب.

بل أريد بذلك التحرّر من نفسي للحظة، هذا هو السبب وراء شربي الخمر وسكري».

وذُكرت الرباعيّة التالية من «ديوان الخيّام» ص ٩٧، طبعة برلين:

از جرم حضيض خاک تا اوج زحل كردم همه مشكلات گردون را حل
بيرون جستم ز بند هر مكر وحـيل هر بند گشاده شـد مگـر بـند اجـل

يقول: «لقد تمكّنتُ من حلّ المشاكل والمعضلات كلّها.

فخرجتُ بذلك من قيد كلّ مكر وحيلة، وبهذا انفكّ كلّ قيد إلّا قيد الأجل».

وقيل في «ريحانة الأدب» ج ١، ص ٤٣٣ في شرح حال الجنيد: «نُقل عن «الخزائن» ⇦

.....

⇦ للنراقيّ أنّ بعضهم قال إنّه رأى الجنيد في منامه بعد وفاته ، وسأله عن أحوال الموت وكيفيّة معاملة الله له ، فقال : **طَارَتْ تِلْكَ الإِشَارَاتُ وَغَابَتْ تِلْكَ العِبَارَاتُ وَفُنِيَتْ تِلْكَ العُلُومُ وَانْدَرَسَتْ تِلْكَ الرُّسُومُ وَمَا نَفَعنَا إِلَّا رَكَعَاتٌ كُنَّا نَرْكَعُهَا فِي السَّحَرِ**.

وذُكر فيما ذُكر من أحوال نصير الدين الحلّيّ في «ريحانة الأدب» ج ٦ ، ص ١٨٨ : وكان يداوم على تدريس العلوم الدينيّة والمعارف اليقينيّة في بغداد والحلّة . وقد أثنى عليه كذلك الشهيد الأوّل ونقل عنه بعض المسائل ، وقد بيّن عجزه عن إدراك حقيقة التوحيد بالرغم من تبحّره العلميّ ، حيث قال:

غاية ما علمتُ طوال ثمانين سنة من عمري أنّ هذا المصنوع يحتاج إلى صانع وحسب! ومع ذلك فما زال يقين عجائز الكوفة أكثر من يقيني.

وقال ابن سينا:

تا بدانجا رسيد دانش من كه بدانم همى كه نادانم

يقول : «لقد وصل علمي إلى حيث علمتُ أنّي ما علمتُ شيئاً».

ويقول الفارابيّ :

اسرار وجود خام وناپخته بماند وآن گوهر بس شريف ناسفته بماند
هر كس به دليل عقل چيزى گفتند وآن نكته كه اصل بود ناگفته بماند

يقول : «ستظلّ أسرار الوجود مخفيّة ومطويّة ، وستظلّ تلك الجوهرة العريقة في الشرف مصونة لم تثقب. فكلّ واحد قال ما أراد كما أملاه عليه عقله ، لكن ما زالتْ النكتة الأصليّة غير مطروقة». («ريحانة الأدب» ج ٤ ، ص ٢٦٥).

وقال حافظ الشيرازيّ:

افسوس كه مرغ عمر را دانه نماند اميّد به هيچ خويش وبيگانه نماند
دردا ودريغا كه در اين مدّت عمر از هر كه بگفتيم جز افسانه نماند

يقول : «أسفي على طائر العمر الذي استنفد حَبَّه ولم يَبقَ أيّ أمل في قريب أو صديق.

ويا أسفي على ما قُلناه طول مدّة عمرنا ، حيث إنّ كلّ ما قلناه لم يكن إلّا مجرّد خيال وأُسطورة».

وقال ابن سينا أيضاً: ⇦

.....

⇦ دل گرچه در این بادیه بسیار شتافت یک موی ندانست ولی موی شکافت
انـدر دل مـن هـزار خـورشید بـتافت آخـر بـه کـمال ذرّه‌ای راه نـیافت

يقول : «بالرغم من سعي قلبي وجهده في هذه الصحراء إلّا أنّه لم يتمكّن من إحراز شيء أبداً. مع أنّه بحث ودقّق النظر.

ولقد أشرقت داخل قلبي ألف شمس لكنّه لم يخطو في طريق الكمال ولا حتّى خطوة واحدة».

ولابن سينا كذلك:

کس را به کمال وکنه ذاتت ره نیست بر فعل تو می‌کنند ذات تـو قـیاس

يقول : «لا سبيل لأحد للوصول إلى كمال ذاتكَ وكنهها ، فالكلّ يقيس ذاتك حسب ما يراه من فعلك».

وله أيضاً:

در معرفت چه نیک فکری کردم معلومم شد که هیچ معلوم نشد

يقول : «ما أروع ما توصّلتْ إليه معرفتي ؛ حيث علمتُ أنّني لم أعلم شيئاً».

وأيضاً:

معشوق جمال مـی‌نماید شب و روز کو دیده که تـا بـرخـورد از دیـدارش

يقول : «إنّ معشوق الجمال في تجلٍّ كلّ صباح ومساء ؛ ولكن أين تلك العيون التي تكتحل برؤيته؟».

ولَهُ أيضاً بالعربيّة:

اعْتِـصَـامُ الـوَرَى بِـمَـعْـرِفَـتِك عَجَـزَ الوَاصِـفُـونَ عَنْ صِـفَتِك
تُـبْ عَـلَـيـْنَـا فَـإنَّـنَـا بَـشَـرٌ مَـا عَـرَفْـنَـاكَ حَـقَّ مَـعْـرِفَـتِك

(«روضات الجنّات» ج ٣ ، ص ١٧٥ ، طبعة بيروت).

وقال الخيّام أيضاً:

در پـردهٔ اسـرار کسـی را ره نـیست زین تعبیه جان هـیچکس آگـه نـیست
جز در دل خاک هـیچ مـنزلگه نـیست می خور که چنین فسانه‌ها کوته نیست

يقول : «لا سبيل لأحد للوصول إلى الأسرار ، فلا عِلمَ لأحد عن ما تحويه الروح أبداً. ولا مكان أو ملاذ إلّا جوف الثرى ، فاشرب الخمر فهذه الحكايا ليست بقصيرة». ⇦

ولأنّ ظهور جميع الأشياء الموجودة إنّما يتمّ بنور وجود الواحد المطلق الحقّ ، فهو يقول :

زهی نادان که او خورشید تابان به نور شمع جوید در بیابان[1]

ذلك أنّ وجود الممكن هو شعاع من نور الشمس المضيئة لذات واجب الوجود ، حيث يتجلّى ذلك في صورة كلّ فرد من أفراد التعيّنات وذلك بقدر القابليّات والاستعدادات الفطريّة للمظاهر الممكنة ، ويظهر في كلّ مكان بما يناسب نوعه وخصوصيّة شأنه ، فجميع الأشياء تتّضح وتبين بنوره تعالى . ومثل من يريد معرفة وجود الواجب بالممكن كمثل من يريد الاستدلال على وجود الشمس المضيئة في البريّة ، حيث لا حجاب ولا ستار ، بالشمعة ، وعلى الأخصّ حين تستمدّ تلك الشمعة أيضاً نورها

⇦ وقال أيضاً:

آنانکه محیط فضل و آداب شدند — در جمع کمال شمع اصحاب شدند
ره زین شب تاریک نبردند برون — گفتند فسانهایّ و در خواب شدند

يقول : «إنّ أُولئك الذين أضحوا بحراً من الفضل والأدب ، صاروا في جمع الكمال شموعاً لجموع الأصحاب.

فقد عجزوا عن إيجاد مخرج من هذا الليل الأدهم ، وقالوا : خرافة ؛ ثمّ غطّوا في نوم عميق».

وقال أيضاً:

از تن چو برفت جان پاک من و تو — خشتی دو نهند بر مغاک من و تو
و آنگاه برای خشت گور دگران — در کالبدی کشند خاک من و تو

يقول : «ما أن تغادر الروح بدنينا ، سيضعون بعدها حجرين في حُفرتينا.

وإذا أُريدَ وضع حجر في حفرة آخرين غيرنا ، ستوزن أجسادنا (التي أضحت تراباً) في القالب لصنع ذلك الحجر».

١ـ مرّت ترجمته .

من تلك الشمس .

همه عالم پر است ازين منظور همه آفاق را گرفت اين نور
گنج در پيش چشم وما مفلس يار در دستگاه وما مهجور[1]

إلى أن قال :

هر كس به ترانه‌ای در اين كوی دستان تو می‌زند بهر روی
انديشه به تو چه ماند آخر يا جز تو ترا كه داند آخر
زنهار به حجّت قياسی غرّه نشوی به حقّ شناسی[2]

ذلك أنّ نسبة الاثنينيّة إلى وجود الواجب ووجود الممكن أضحى سبباً لضلال العقل الفضوليّ ، فهو يقول :

ز دورانديشی عقل فضولی يكی شد فلسفی ديگر حلولی[3]

ومعلوم أنّ طلب المطلوب الحاضر أمام الطالب يقيناً يوجب غياب ذلك المطلوب عن الطالب وابتعاده عنه .

حقّ همی گويد مرا من با توام من بهر ره گِرد عالم می‌دوم[4]

إنّه لمن بعد نظر العقل الفضوليّ تصوّر وجود الأشياء بمعزل عن

١ـ يقول : «إنّ العالم مليء بهذه الأمثلة والظواهر ، وهذا النور قد طغى على الآفاق بشعاعه.

فالكنز أمام ماثل أعيننا ونحن فقراء مفلسون ، والحبيب قربنا ونحن وحيدون».

٢ـ يقول : «كلٌّ يُنشد ويتلو حكايتك.

فما عاقبة التفكير بك والخوض في كنهك ، أم من سيتعرَّف عليك في النهاية؟

فحذارِ من إجراء القياس عليه والتشبّث في ذات الحقّ دونما هدى».

٣ـ مرّت ترجمته .

٤ـ يقول : «يقول الحقّ تعالى على الدوام إنّي معك وإنّي أهرع لاستقبال كلّ سالك في هذا العالم».

وجود الحقّ ، والاعتقاد بوجودين جنباً إلى جنب أدّى إلى الاختلاف في الآراء ، واستناداً إلى خصوصيّة الأقوال وظروفها ، فقد تسمّت كلّ طائفة باسمها الخاصّ ؛ فالطائفة التي قالت بعلّيّة وجود الواجب ومعلوليّة وجود الممكن دُعوا **بالفلاسفة** . ويأتي اشتقاق كلمة فلسفة من **فيلا وسوف** ، وتعني كلمة **فيلا** مُحبّ ، و**سوف** الحكمة ؛ فيكون معنى الكلمة محبّ الحكمة .

وقالت جماعة إنّ الحقّ ، بالذات والصفات يحلّ في نشأة الإنسان الكامل ،كما قال النصارى في قصّة عيسى عليه السلام وطائفة النصيريّة **مع عليّ المرتضى عليه الصلاة والسلام** وبعض جهلاء الصوفيّة الذين يدعون **بالحلوليّة**.

والحقيقة أنّ السبب في اختلاف هذه المذاهب هو توهم الغيريّة في وجود الواجب والممكن . ولا يتيسّر إدراك التوحيد الحقيقيّ إلّا بالكشف والشهود ، ونسبة العقل إلى المكشوفات كنسبة الحواسّ إلى المعقولات ؛ فكما أنّ الحواسّ لا يمكنها إدراك المعقولات ، فليس بإمكان العقل كذلك إدراك المكشوفات .

ای برتر از آنکه عقل گوید بالاتر از آنکه روح جوید
ای آنکه ورای این وآنی کیفیّت خویش را تو دانی
کس واقف تو به هیچ‌رو نیست آنکس که ترا شناخت او نیست[1]

١ـ يقول : «يا مَن هو أسمى ممّا يقوله عن العقل وأغلى ممّا تبحث عنه الروح.
ويا مَن هو وراء هذا وذاك ، أنت وحدك تعلم هويّتك وحقيقتك.
فلا أحد عرفك بأيّ وجه من الوجوه ؛ أمّا الذي عرفك فإنّه لم يعد «هو» (بل أضحى فانياً فيك)».

فمن أراد أن يكون عارفاً بالله بواسطة الأدلّة ، لا جرم أنّه سيبتعد عن الحقّ أكثر فأكثر ويزداد في حيرته ويوغل في ضلاله ، مهما ازدادت أدلّته وكثرت براهينه .

المولويّ:

ترک این سَخته کمانی[1] گو بگو
در کمان نه تیر وپرّیدن مجو
چونکه حقّ است اقرب از حبل الورید
تو فکنده تیر فکرت را بعید
علم تیراندازیت آمد حَجیب
زانکه مطلوب تو بُد حاضر به جیب
ای کمان تیرها برساخته
صید نزدیک تو دور انداخته
هر که دور اندازتر او دورتر
و ز چنین گنج است او مهجورتر[2]

١ـ جاء في «لغت نامهٔ دهخدا» (وهو معجم لغويّ فارسيّ) ج ٢٦ ، ص ٣٥١، كتاب «سين»، العمود الأوسط: **سَختَه** بفتح السين والتاء بمعنى الموزون . وفي العمود الأيسر: **سَختَه كمان** بمعنى سخت كمان.

٢ـ «المثنوي» ج ٦ ، من طبعة آقا ميرزا المحموديّ ، ص ٦٠٨.

يقول : «اترُك القوس والسهام وفنّ الرمي والمحاججة.

لأنّ الحقّ أقرب إليك من حبل الوريد وأنت تصوّب بذهنك إلى البعيد.

إنّ فنّك ومهارتك في الرمي حجبا عنك مطلوبك الذي هو في جيبك.

أيّها الماهر في الرمي ! صيدك قريب منك وأنت ترمي بسهامك بعيداً.

فاعلم إذاً أنّ مَن يرمي أبعد هو في الواقع أبعد كذلك عن الحقيقة وأنأى عن الكنز المنشود».

هــر كــه او دور است دور از روی تـو
كـــار نـــايد قـــوّت بـــازوی تـــو
ای بســـا عـــلم و ذكـــاها و فـطن
گشـته رهـرو را چـو غـول راه زن[1]

ولأنّ العقل عاجز عن إدراك نور الوحدة الحقيقيّة ، قال :

خرد را نيست تاب نور آن روی برو از بهر او چشمی دگر جوی[2]

وللشيخ العراقيّ : فخر الدين إبراهيم الهمدانيّ مضامين جميلة جدّاً فيما يخصّ هذا الموضوع في إحدى ترجيعاته المؤلّفة من أحد عشر بنداً ، حيث نكتفى هنا لمراعاة الاختصار بذكر ثلاثة بنود منها :

يقول :

أَكُـؤُوسٌ تَـلَأْلَأَتْ بِـمُـدَامْ أَمْ شُـمُوسٌ تَهَـلَّـلَـتْ بِغَمَـامْ ؟

از صـفای مـی و لطـافت جـام درهم آميخت رنگ جام و مـدام
همه جام است و نيست گوئی می يا مدام است و نيست گوئی جام[3]

١ـ يقول : «واعلم أنّ الذي تراه بعيداً إنّما هو بعيد عـن بـصرك ونـظرك ، ولا يـمكن الوصول إليه بقوّة ذراعك وسطوة ساعدك.

فما أكثر من كان يحمل علماً في جنباته وذكاءً وفطنة ومع هذا فقد تاه في صـحراء الجهل والحيرة».

٢ـ «مفاتيح الإعجاز في شرح گلشن راز» ص ٤٨ إلى ٥٦ ، من الطبعة الحجريّة، سنة ١٣٠١ هـ، و: ص ٦٣ إلى ٧٦ من الطبعة الحروفيّة ، مع مقدّمة لكيوان سميعي . وقد مـرّت ترجمة البيت.

٣ـ يقول : «اختلط لون الخمرة والكأس معاً من صفاء الخمرة ولطافة الكأس.

فكأنّ كلّ ما موجود إنّما هي كؤوس ولا وجود للخمرة فيها ؛ أو أنّ كلّ ما موجود إنّما هو خمرة ولا وجود للكؤوس.».

چـــون هــوا رنگ آفــتاب گــرفت
هـر دو يكسـان شـدند نـور و ظـلام
روز و شب بــا هــم آشــتی كــردند
كـــار عـــالم از آن گــرفت نــظام
گر ندانی كه اين چه روز و شب است
يــا كــدام است جــام و بــاده كـدام
ســـــــريان حـــــيات در عـــالم
چون می و جـام فـهم كـن تـو مـدام
انكشـــاف حـــجاب عــلم يــقين
چون شب و روز فرض كن و سـلام
ور نشـــد ايــن بــيان تــرا روشــن
جـــمله ز آغـــاز كــار تــا انــجام
جــام گــيتی نــمای را بــه كــف آر
تــا بــبينی بــه چشــم دوست مـدام
كه همه اوست هـر چـه هست يـقين
جان و جـانان و دلبـر و دل و ديـن[1]

١ـ يقول : «ولأنّ الجوّ اصطبغ بلون الشمس ، فقد تساوى الظلام والنور.
وتصالح الليل والنهار واتّخذ الكون نظامه مِن ذلك.
فإن تجهل أي ليل هذا أو أيّ نهار ، أو اشتبه عليك الكأس والخمرة.
فاعلم أنّ جريان الحياة في الكون شأنه شأن الخمرة والكأس.
وافترض أنّ انكشاف حجاب علم اليقين مثله كمثل الليل والنهار.
وإذا لم يتّضح لك هذا الأمر.
فخُذ بيدكَ مرآة سحريّة حتّى ترى من خلالها الحبيب على الدوام.
فهو كلّ ما موجود يقيناً ، هو الروح والمحبوب والقلب والدين».

ای به تو روز و شب جهان روشن
بی رخت چشم عاشقان روشن
به حدیث تو کام دل شیرین
به جمال تو چشم جان روشن
شد به نور جمالِ روشنِ تو
عالم تیره ناگهان روشن
آفتاب رخ جهانگیرت
می‌کند دمبدم جهان روشن
ز ابتدا عالم از تو روشن شد
کز یقین می‌شود گمان روشن
می‌نماید ز روی هر ذرّه
آفتاب رخت عیان روشن
کی توان کرد در خَم زلفت
خویشتن را ز خود نهان روشن
ای دل تیره ، گر نگشت ترا
سرّ توحید این بیان روشن[1]

١ـ يقول : «يا من أضاء الليل والنهار بنوره ، وهنأً العاشقون حتّى دون رؤية وجهه.
بحديثك يصفو القلب وبجمالك تسعد العين.
صار العالَم المظلِم منيراً بنور جمالك.
يُضي نور وجهك الوضّاح العالَم باستمرار.
لقد تنوَّر العالَم منذ البدء منك ، والشكّ لا يتّضح إلّا باليقين.
ويتجلّى نور وجهك الساطع من خلال كلّ ذرّة.
أيّها الوضّاء ، متى سيمكن الاختباء منك تحت (ظلّ) استدارة ذؤابتك؟
فيا أيّها القلب المُظلِم ! إذا لم يتبيّن لك سرّ التوحيد من هذا البيان».

انـــــدر آئـــينهٔ جـــهان بـــنگر
تـــا بـــبينى هـــمان زمـــان روشـــن
که همه اوست هر چه هست يـقين
جان و جانان و دلبـر و دل و ديـن[1]
يا رب ! آن لعل شكّرين چـه خـوشست
يا رب ! آن روى نازنين چه خوش است
بـــا لبش ذوق هـــم نـفس چـه نكـوست
با رخش حُسن هم‌قرين چه خوش است
از خـــــطِ عـــــنبرين او خـــــوانـــــدن
سـخن لعـل شكّـرين چـه خـوش است
ور ز مـــــــن بـــــاورت نـــــمى‌افـــــتد
بوسه زن بر لبش ببين چـه خـوش است
مـــهر جـــانان بـــه چشـــم جـــان بـــنگر
در ميان گـمان يـقين چـه خـوش است[2]

١ـ يقول : «فانظر في مرآة العالَم حتّى ترى جليّاً أنّه.
هو كلّ ما موجود يقيناً ، هو الروح والمحبوب والقلب والدين».

٢ـ يقول :
«ياربّ ! ما أحلى هذا الياقوت وما أجمل ذلك المُحَيّا.
وما أجمـل تـذوّق مخـالطـة أنفـاسـه عـنـد شـفتيـه ، وحُـسـن مـجـاورة طـلعتـه (البديعة).
وما أجمل قراءة الخطّ العنبريّ (في حاجبيه) ، وأروع حديث الياقوت السكّريّ (من شـفاهه).
ولو لم تصدّق كلامي ، فانظر ما أجمل طبع قُبلة على شفتيه!
وانظر إلى طلعة الحبيب بعين الروح ، إذ ما أجمل اليقين بين الظنّ والحدس!».

مــن ز خــود گشــته غـائب ، او حـاضر
عشق با يـار هـمچنين چـه خـوش است
آنكـــه انـــدر جـــهان نـــمی‌گنجد
در مــيان دل حــزين چـه خـوش است
تـــــا فشـــاند بـــر آســـتان درش
عاشقی جان در آستين چه خـوش است
در جـــــهان غـــــير او نـــمی‌بينم
دلم امـروز هـم بـرين چـه خـوش است
كــه هــمه اوست هـر چـه هست يـقين
جــان و جــانان و دلبــر و دل و ديــن[1]

وتنعش الأبيات التالية للعارف القدير : أبي حفص بن أبي الحسن بن المرشد الحمويّ المعروف بابن الفارض المصريّ ، فـي هـذا الخـصوص ، قلب كلّ قارئ وتبعث النشاط في روحه لما تـحويه مـن حـقائق عـرفانيّة جليلة ، حيث يقول :

وَإِسْرَاءُ سِـرِّي عَنْ خُصُـوصِ حَقِيقَةٍ
إِلَيَّ كَـسَـيْـرِي فِي عُـمُـومِ الشَّـرِيعَةِ

١ـ يقول : «لقد تهتُ في غيابة التيه وأنت الحاضر الهادي فما أروع الحبّ مع الحبيب. الذي لا يسعه العالَم لكنّه كالبلسم في قلب الحزين.
وما أحلى أن ينثر عاشق على أعتاب بابه روحه التي يحملها على راحة يده!
أنا لا أرى غيره في هذا العالَم ، فما أسعدني اليوم بذلك.
فهو كلّ ما موجود يقيناً ، هو الروح والمحبوب والقلب والدين».
(«كلّيّات عراقي» ص ١٢٣ إلى ١٢٧ ، منشورات السنائيّ).

وَلَمْ أَلْهُ بِاللَاهُوتِ عَنْ حُكْمِ مَظْهَرِي
وَلَمْ أَنْسَ بِالنَّاسُوتِ مَظْهَرَ حِكْمَتِي
فَعَنِّي عَلَى النَّفْسِ العُقُودُ تَحَكَّمَتْ
وَمِنِّي عَلَى الحِسِّ الحُدُودُ أُقِيمَتِ[١]
وَقَدْ جَاءَنِي مِنِّي رَسُولٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّ عَزِيزٌ بِي حَرِيصٌ لِرَأْفَةِ[٢]
فَحُكْمِيَ مِنْ نَفْسِي عَلَيْهَا قَضِيَّةٌ
وَلَمَّا تَوَلَّتْ أَمْرَهَا مَا تَوَلَّتِ[٣]
وَمِنْ عَهْدِ عَهْدِي قَبْلَ عَصْرِ عَنَاصِرِي
إِلَى دَارِ بَعْثٍ قَبْلَ إِنْذَارِ بَعْثَةِ[٤]

١ـ إشارة إلى الآية الشريفة ١٧٢ ، من السورة ٧ : الأعراف : **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ** .

٢ـ إشارة إلى الآية الشريفة ١٢٨ ، من السورة ٩ : التوبة : **لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** . والتي مفادها ، بلسان تلك الحقيقة المحمّديّة التي أنا ترجمانها ، : لقد ظهر بالفعل من صورتي التفصيليّة هذه التي تمثّل العالم، جزء وحصّة على صورة رسول كامل ومكمّل وإنسان كلّيّ وحقيقيّ ، وما ذلك إلّا ظهور الصورة العنصريّة المحمّديّة في سائر هذه الأجزاء التفصيليّة لي والتي تمثّل أفراد البشر.

٣ـ ولمّا جاء دور اكتمال أجزاء صورتي العنصريّة الإنسانيّة الإ جماليّة ، لم تتّخذ نفسي اللجاجة والعناد سبيلاً بدلاً من الطاعة ، ولم تسلك طريق التمرّد والتجرّأ ، وتحقّق مصداق الحديث القائل **أَسْلَمَ شَيْطَانِي عَلَى يَدَيَّ** ، إشارة إلى الحديث الوارد عن الرسول الكريم صلّى‌الله عليه وآله الوارد في موضعين في كتاب «مشارق الدراريّ» بهذا اللفظ ، في ص ٣٧٨ و ٤٩٩ .

٤ـ هذا البيت والبيت الذي يليه يشيران إلى كلام رسول الله صلّى الله عليه وآله ⇦

إِلَـيَّ رَسُـولاً كُـنْـتُ مِـنِّـي مُـرْسَـلاً
وَذَاتِـي بِـآيَـاتِـي عَـلَـيَّ اسْـتَـدَلَّـتِ
وَلَمَّا نَقَلْتُ النَّفْـسَ مِـنْ مِلْكِ أَرْضِـهَا
بِحُكْـمِ الشِّـرَى مِنْهَـا إِلَى مُلْـكِ جَنَّةِ
وَقَدْ جَاهَدَتْ وَاسْتَشْهَدَتْ فِي سَبِيلِهَا
وَفَازَتْ بِبُشْـرَى بَيْعِهَـا حِـيـنَ أَوْفَتِ
سَمَتْ بِي لِجَمْعِي عَنْ خُلُودِ سَـمَائِهَا
وَلَمْ أَرْضَ إِخْـلَادِي لِأَرْضِ خَلِيفَتِي[1]

⇦ **كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ المَاءِ وَالطِّينِ**. وهذا المعنى شاهد على كلام رسول الله **أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ!** وأشار إلى السبّابة والوسطى.

١ـ وخلّدتها في سماء جنّة آدم المتّصف بالخلود ؛ ولهذا فقد صارت أفضل من تلك الجنّة وسمت بي من التعيّنات إلى الإطلاق ، ومن التركيب إلى التجرّد ، ومن الوحدة إلى الكثرة؛ وتحقّق معراجي نحو علياء الذات والفناء المطلق.

وتشير الأبيات الثلاثة (٨ و٩ و ١٠) بمجموعها إلى حكم البيعة **إِنَّ ٱللَهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ**. (الآية ١١١ ، من السورة ٩ : التوبة).

وتنفيذاً لحكم الآية المذكورة «**يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَهِ** فقد أعطت نفسي الجهاد حقّه. وأدّت واجبها في الجهاد الأكبر مع الهوى والشيطان بمقتضى **فَيَقْتُلُونَ**. وأوفت بعهدها في طريق تحقّق مستلزمات وموجبات السير والسلوك بالانقطاع عن المألوفات ، وفناء الذات، وفناء جميع الصفات باستيفائها حقّ الشهادة بشرط السعادة والشرف وذلك بمقتضى **وَيُقْتَلُونَ**.

وخُتمت بختام **وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ**. ودخلت في ظلّ **وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**. (الآية ١١١، من السورة ٩: التوبة).

وعلى هذا الأساس ، فقد تجاوزت مقام الخطاب إلى آدم : **وَقُلْنَا يَـٰٓـَادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ** (صدر الآية ٣٥ ، من السورة ٢ : البقرة) وفازت بالدوام والخلود في ⇦

وَلَا فَـلَـكٌ إلَّا وَمِـنْ نُـورِ بَـاطِـنِـي
بِهِ مَلَـكٌ يُهْـدِي الهُـدَى بِمَـشِـيئَتِي[١]
وَلَا قُطْـرَ إلَّا حَـلَّ مِنْ فَيْـضِ ظَاهِرِي
بِهِ قَـطْـرَةٌ عَنْهَـا السَّـحَـائِبُ سَـحَّتِ
وَمِنْ مَطْلَعِـي النُّـورُ البَـسِـيطُ كَلَمْعَةٍ
وَمِنْ مَشْـرَعِي البَحْرُ المُحِيطُ كَقَطْرَةِ[٢]

⇦ **مَادَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ** (الآية ١٠٨، من السورة ١١: هود): **وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.**

وقد اتّخذ (الله) آدم خليفة له لجهتين: الأُولى، لقوله تعالى: **إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** (قسم من الآية ٣٠، من السورة ٢: البقرة). والثانية، على لسان النبيّ محمّد صلّى الله عليه وآله، منشد أشعاره وترجمانه، وبتقرير منه صلّى الله عليه وآله، بأنّ آدم، في حالتَي الدعوة والخلافة، نائبه وخليفته، والأنبياء والرسل جميعاً هم خلفاء هذه الحقيقة ونوّابها.

١ـ وعلى هذا فليس هناك من فلك إلّا وهو ظاهر ومعيّن بصورة مَلَك من النور الباطن والتجلّي من ذاتي بحكم **أَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا**، (قسم من الآية ١٢، من السورة ٤١: فصّلت)، حيث يقوم ذلك الملك بالإشراف هناك على دقائق وحقائق كلّ عمل مأمور بأدائه أيّ ملك في أيّ فلك، ويقتصر منتهى علم ذلك الملك وغاية معرفته في إطار إدراكه لذلك الفلك، وينعم على كلّ منهم بالهداية، ويدعوهم إلى غاية كماله.

وقد تحدّث ابن عبّاس عن حقيقة هذا السرّ المكنون واللغز المدفون بقوله:

حَتَّى إنَّ فِي كُلِّ سَمَاءٍ ابْنُ عَبَّاسٍ مِثْلِي.

وعلى هذا فإنّ حاصل معنى هذا البيت يكون: مع وجود صورة جزئيّة لي في كلّ فلك تستمدّ وجودها من نوري الباطن، وهي على صورة ملك في ذلك الفلك، حيث إنّ سكّانه من الملائكة، وهي مسؤولة عن حقائق ودقائق كلّ منهم، فكيف بي أن أخضع وأنا على هذه الصورة والصفة الكلّيّة التي لي تحت حكم سماء الجنّة؟!

٢ـ أي أنّ كلّ النور البسيط والذي يشكّل الشمس، والمشعّ على العالم، والحياة، والبقاء، والنشوء، والنماء، إنّما هو وهج من محلّ طلوعي وظهوري وشعلة منه، أي حضرة عالم الوجود، حيث إنّ كلّ الأنوار هي من آثاره، ويستند إليه حكم مبدئيّة وظهور وإظهار ⇦

فَكُلِّي لِكُلِّي طَالِبٌ مُتَوَجِّهٌ
وَبَعْضِي لِبَعْضِي جَاذِبٌ بِالأَعِنَّةِ[١]
وَمَنْ كَانَ فَوْقَ التَّحْتِ وَالفَوْقُ تَحْتَهُ
إِلَى وَجْهِهِ الهَادِي عَنَتْ كُلُّ وِجْهَةِ[٢]

⇦ وحياة وتقوية كلّ العالم ؛ وما هذا البحر المحيط بالمعمورة إلّا كقطرة من مشرب بحر علمي المحيط اللامحدود وغير المتناهي.

١ـ فالجميع هو ظاهر صورتي الإجماليّة والتفصيليّة هذه ، وصولاً إلى جميع القوى وأجزاء تلك القوى وكلّيّاتها وجزئيّاتها وأعراضها وجواهرها وأجسامها وأسمائها وأوصافها التي هي كلّها طالبة ومتوجّهة لكلّ باطنيّ والذي هو مقام أحديّة الجمع لذاتي. ففي الأحديّة الكلّ يشمل الكلّ وتزول عندها المغايرة والغيريّة . وهذا الظاهر موصوف بهذه الصفة كذلك؛ فكلّ شأن من شؤوني وكلّ اسم من أسمائي الباطنة يمسك بزمام كلّ جزء من أجزاء صورتي الظاهرة هذه ، وكلّ قوّة من قواها ، جاذبة إيّاها إلى ذلك المقام الباطن حتّى يصهره في كلّيّته.

فهو يبيّن في هذين البيتين الأخيرين نوعيّة الإحاطة الذاتيّة والحكميّة ؛ فالبيت الأوّل يشير إلى الإحاطة الذاتيّة ، في حين يشير البيت الثاني إلى الإحاطة الحكميّة.

٢ـ يشير هذا البيت إلى معنى الإحاطة المذكورة في الآية الشريفة **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ** (الآية ٢٠ ، من السورة ٨٥ : البروج) . وكذلك يوضّح هذا البيت معنى ومفاد العبارة **لَوْ دَلَّيْتُمْ بِحَبْلٍ لَهَبَطَ عَلَى اللهِ** ، ورد هذا الحديث في ص ٣١ من هذه السلسلة من «الكلمات المكنونة» للملّا محسن الفيض الكاشانيّ.

وذلك لأنّ مرتبة المحاط تحت المحيط وأنزل منه . وأنّ كمال كلّ موجود نازل يكمن في ترقّيه حتّى يصل إلى مرتبة عالية وأنّ هداية النازل وقيادته إلى مرتبة عالية وإدراك تلك المرتبة لا يتيسّر إلّا بمعونة صاحب المرتبة العالية ذاك ؛ وعلى هذا فمن كان سمو مرتبته وإحاطته على هذه الصورة وهو أن يكون سامياً على كلّ تحتيّ وكان كلّ فوقيّ تحته، فيلزم أن يكون كلّ محاط له خاضعاً وخاشعاً له بجميع جهاته.

وهذا هو مفاد الآية الشريفة : **وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ**. (صدر الآية ١١١، من السورة ٢٠ : طه).

فَتَحْتُ الثَّرَى فَوْقَ الأَثِيرِ لِرَتْقِ مَا
فَتَقْتُ وَفَتْقُ الرَّتْقِ ظَاهِرُ سُنَّتِي[١]
وَلَا شُبْهَةٌ وَالجَمْعُ عَيْنُ تَيَقُّنٍ
وَلَا جِهَةٌ وَالأَيْنُ بَيْنَ تَشَتُّتِي[٢]

١ـ وبناء على هذا ، فإنّ ما تحت الثرى والكرة الأرضيّة هو في الأعلى وفوق كرة الأثير، وذلك بسبب رتق وسدّ ما فتقته وفتحته ؛ أي قبض ما بسطتُ . وأنّ فتح الأشياء المسدودة والمقفلة هو ظاهر سنّتي ودأبي وديدني.

وذلك لأنّ جميع عالم المادّة والطبيعة الذي يسمّونه بعالم الكون والفساد، حسبما تفيد به الآية الشريفة **أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا**، (صدر الآية ٣٠، من السورة ٢١ : الأنبياء) ، كانتا منضمّتين ومتّصلتين عند بدء خلقتهما على هيئة حقيقة واحدة يسمّونها بالعنصر . ثمّ شكّل الله تعالى من هذه المادّة البسيطة كلّ هذه الصور والأشكال والكيفيّات ، وشقّ منها الدخان والنار والتراب وغير ذلك وفصلها عن بعضها، وألبس كلّ واحد منها طبيعته الخاصّة به.

وعلى هذا ، يكون حاصل كلام ابن الفارض هو : لمّا كانت تلك الأجرام المتكاثفة لم تزل في مرحلة الرتق والالتحام ، كانت عبارة عن كلّاً واحداً فوق فلك الأثير وتحت الكرة الأرضيّة؛ فلم يكن هناك للفوقيّة والتحتيّة معنى ولا وجود.

ولقد كان هذا الفتق والبسط والتمييز لذلك الموجود المقبوض المجتمع غير المتميّز بناء على حكمتي ، حتّى يتمّ حصول التمييز والفصل بين أصحاب القبض ؛ ويحصل كمال التفصيل، الذي هو تحقيق المطلوب ، والقصد الأوّل الذي هو كمال الأسماء المتوقّف عليه. فالتعيّن وتمييز الجهات من فوق ومن تحت إنّما هما نتيجة لفتقي له (أي للعنصر الأعظم). ولاجرم أنّ الجميع ، من فوق ومن تحت ، يخضع لحكمي ، وكلٌّ خاضع وخاشع لي ، على مبدأ و أساس خضوع وخشوع كلّ جزء لكلّه وكلّ فرع لأصله.

٢ـ أي لا وجود للشبهة في أيّ جزء من أجزاء صورتي الإجماليّة والتي هي عنصري أنا، أو في الكلّيّة ونفي الغيريّة وكمال الجمعيّة لمرتبة أحديّة جمعي ، لأنّ التأمّل في هذه المرتبة يبعث على اليقين ، بل إنّ حقيقة مرتبة الجمع هذه الخاصّة بي هي عين اليقين والمزيلة لجميع الشبهات، فلا جهة مبيَّنة ولا بعد معيّن بالنسبة إلى حقيقتي ومرتبتي ، ⇦

وَلَا عِـدَّةٌ وَالـعَـدُّ كَالـحَـدِّ قَـاطِـعٌ
وَلَا مُـدَّةٌ وَالـحَـدُّ شِـرْكُ مُـوَقِّـتِ[١]
وَلَا نِدَّ فِي الدَّارَيْـنِ يَقْضِي بِنَقْضِ مَا
بَنَيْتُ وَيَمْضِـي أَمْـرُهُ حُكْـمَ إِمْـرَتِي[٢]
وَلَا ضِدَّ فِي الكَوْنَيْنِ وَالخَلْقُ مَا تَرَى
بِهِمْ لِلتَّسَـاوِي مِـنْ تَفَـاوُتِ خِلْقَتِـي[٣]

⇦ حيث إنّ الفوق والتحت والقرب والبعد هم سواء من منظار الجمع ، وأمّا كلمة **أين** المعيِّنة والمحدِّدة للجهة المكانيّة إنّما هي لاقتضاء الفصل ولزوم التفريق ؛ وعلى هذا، فـلامـحلّ للفظة (مكان) في مرتبة جمعيّتي .

١ـ أي لا وجود للعدد عندي ذلك أنّ العدّ قـاطع ومـميّز كـما أنّ الحـدّ كـذلك بـين المحدود وغيره . وعليه وبالمقارنة مع هذا ، فإنّ أعداد اثنين وثـلاثة وأربـعة هـي كـالعدد (واحد) وذلك في مقام حقيقة جمعيّتي ، وبحكم سريان الوحدة الحقيقيّة لذلك وجمعيّته من مقام أحديّة جمعي ، وشمول كلّ واحد على الكلّ من المقام المذكور ؛ ولا جرم أنّ حكم القطع والفصل والهجر والوصل التي هـي فـي رتـبة الأعـداد والمـعدودات لا يـرقى إليّ ؛ ولا يشملني في مقامي وحالي هذين حكم الزمان والوقت واللذان يُستدلّان عليهما بكلمة **متى** .

لأنّ متى والزمان هما في مقامي بمثابة شرك في حقّ من يُعيّن الوقت ويحدّده. ونسبة الزمان إليّ تفصلني عمّا هو قبل وبعد.

٢ـ أي لا مثيل ولا نظير لي في العالمينِ (الدنيا والآخرة) يقوى على هدم ما بنيت؛ أو تنفيذ أمر لي بإذنه.

وإذا كان هناك شريك لي في الجوهر والحكم والمرتبة يوافقني على أحكام الإيجاد أو يخالفني فيها فذلك يوجد الافتقار ، فيكون وجود أكثر من واحد غير ممكن ، وأنّ الغـنى الحقيقيّ هو من موجبات ذاته ؛ فأنّى للافتقار أن يجد طريقه إليه؟

٣ـ أي لا ضدّ ولا معاند لي في العالمينِ ، الظاهر والباطن ، ولا تجد تفاوت في الخلقة بين المخلوقات! **مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِـن تَـفَـٰوُتٍ** ، أي أنّـه مـبدئيّاً، لافـرق بـين الموجودات في إيجادها ومنحها الوجود. ⇦

وَمِنِّـي بَـدَا لِـي مَـا عَلَـيَّ لَـبَسْـتُـهُ
وَعَـنِّـي البَـوَادِي بِـي إلَـيَّ أُعِيـدَتِ[١]
وَفِيَّ شَـهِدْتُ السَّـاجِدِينَ لِمَظْهَـرِي
فَحَقَّقْـتُ أَنِّـي كُنْتُ آدَمَ سَـجْدَتِـي[٢]
وَعـايَنْـتُ رُوحَـانِيَّـةَ الأَرَضِـيـنَ فِي
مَـلَائِـكِ عِلِّيِّـيـنَ أَكْفَـاءَ سَـجْـدَتِـي[٣]

⇦ **فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**، (الآيتان ٣ و٤ ، من السورة ٦٧ : الملك).

١ـ وبان منّي ومن مقام جمعيّتي ما وضعتُ عَلَيّ ، وألبستُ وجودي ما خلعتُ عَليّ من خلعة ورجعتْ إليّ بدايات جميع الأُمور فكنتُ غاية الأمر ومنتهاه وآخره.

وظهر عَلَيّ كلّ مظهر وصورة ممّا ألبسته على باطني ، وظهرتُ بتلك الصور في مظاهر المثال والحسّ ، أي أنّ الصور والمظاهر الحسّيّة هي منّي كذلك ، ولا يمكن للمظهر أن يكون إلّا الظاهر. وعاد إليّ كلّ ما هو ابتدائي ؛ فكنتُ **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ** (صدر الآية ٣، من السورة ٥٧ :الحديد) و**مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ** (مقتبس من الآية ٢٩ ، من السورة ٧: الأعراف: **وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**).

٢ـ وشاهدتُ في ذاتي سجود الملائكة لآدم (و هو عنوان مظهري وصورتي الكلّيّة) وخضوعهم وخشوعهم له بمقتضى الآية : **ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوا** (الآية ٣٤ ، من السورة ٢: البقرة).

فعلمتُ علم اليقين أنّني أنا آدم ، وأنّ سجودهم إنّما كان لي أنا ، والساجدون أيضاً هم أنا.

وسجدتُ سجدة صوريّة لصوري الكلّيّة وجمعيّتي وذلك على أساس بعض من صور صفاتي وجزئيّتي ، من حيث إنّ المظاهر هي عين الظاهر في شهود وجودي الأتمّ والأكمل ذاك.

٣ـ وشاهدتُ عياناً ملائكة الأرض الروحانيّين والقوى السفليّة في عين الروحانيّة، ونظرت من على العرش والكرسيّ أنّ ملائكة السماوات وأعلى علّيّين قد تساووا كلّهم معي في الرتبة والمقام ، من حيث إنّ الصور والمظاهر ليست إلّا ذاتاً واحدة؛ وهم جميعاً ⇦

وعموماً ، فإنّ هذه الأبيات هي خلاصة ما نظمه الشاعر وهو يخوض غمار السلوك إلى الله ، وهو يشرح كذلك بعضاً من مقامات العارفين الفانين في ذات الله والباقين ببقائه . وباختصار ، يمكن القول إنّ كلّ ماكتبه يمكن أن يلخّص في بيت واحد له :

فَلَمْ تَهْوَنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِياً
وَلَمْ تَفْنَ مَا لَا تُجْتَلَى[1] فيكَ صورَتي[2]

ومن جملة الأدعية المقروءة في شهر رجب المرجّب (والذي نحن فيه) دعاء رواه الشيخ الطوسي قدّس سرّه :

يَا مَنْ سَمَا فِي العِزِّ فَفَاتَ خَوَاطِرَ [نَوَاظِرَ ـ خ ل] الأَبْصَارِ ؛ وَدَنَا فِي اللُّطْفِ فَجَازَ هَوَاجِسَ الأَفْكَارِ . يَا مَنْ تَوَحَّدَ بِالمُلْكِ فَلَا نِدَّ لَهُ فِي مَلَكُوتِ سُلْطَانِهِ ، وَتَفَرَّدَ بِالآلَاءِ وَالكِبْرِيَاءِ فَلَا ضِدَّ لَهُ فِي جَبَرُوتِ شَأْنِهِ .

⇦ متساوون وأكفّاء على أساس المظهريّة.

«ديوان ابن الفارض المصريّ» ، ص ١١٩ إلى ١٢١ ، من التائيّة الكبرى ، ٢٣ بيتاً (من البيت رقم ٤٥٥ إلى البيت ٤٧٧) ، الطبعة الأُولى ، دار العلم للجميع ؛ ومجموع أبيات التائيّة المذكورة في هذه الطبعة هو ٧٦٨ بيتاً. والطبعة الثانية ، دار صادر ـ بيروت ، ص ٨٩ و ٩٠ ، (من البيت رقم ٤٥٥ إلى ٤٧٦) ومجموع أبيات هذه الطبعة هو ٧٦١.

والجدير بالذكر أنّ شرح أبيات ابن الفارض هذه بالعربيّة والفارسيّة قد وردت في كتاب «منتهى المدارك» لسعيد الدين الفرغانيّ ، المطبوع في مصر ، سنة ١٢٩٣هـ ، بتصحيح محمّد شكري أوفى. ووردت هذه الأبيات في ج ٢ ، ص ٢٩ إلى ٤٣ منه ، من رقم ٤٥١ إلى ٤٧٤.

وقد ورد شرح هذه الأبيات بالفارسيّة في كتاب «مشارق الدراريّ» المطبوع سنة ١٣٩٨هـ من قبل منشورات «انجمن فلسفه وعرفان اسلامى» (مجمع الفلسفة والعرفان الإسلامي). وقد تضمّنت الصفحات من ٣٧٤ إلى ٣٩٣ شرح هذه الأ بيات.

١ـ جاء في «أقرب الموارد» : **اجْتَلَى الشَّيءَ اجْتلَاءً : نَظَرَ إلَيْهِ.**

٢ـ البيت ٩٩ ، من نظم السلوك.

يَا مَنْ حَارَتْ فِي كِبْرِيَاءِ هَيْبَتِهِ دَقَائِقُ لَطَائِفِ الأَوْهَامِ، وَانْحَسَرَتْ دُونَ إِدْرَاكِ عَظَمَتِهِ خَطَائِفُ أَبْصَارِ الأَنَامِ.

يَا مَنْ عَنَتِ الوُجُوهُ لِهَيْبَتِهِ، وَخَضَعَتِ الرِّقَابُ لِعَظَمَتِهِ، وَوَجِلَتِ القُلُوبُ مِنْ خِيفَتِهِ.[1]

يَقُولُونَ لِي صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا
خَبِيرٌ أَجَلْ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمُ
صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوا
وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمُ
تَقَدَّمَ كُلَّ الكَائِنَاتِ حَدِيثُهَا
قَدِيماً وَلَا شَكْلٌ هُنَاكَ وَلَا رَسْمُ
وَقَامَتْ بِهَا الأَشْيَاءُ ثَمَّ لِحِكْمَةٍ
بِهَا احْتَجَبَتْ عَنْ كُلِّ مَنْ لَا لَهُ فَهْمُ
وَهَامَتْ بِهَا رُوحِي بِحَيْثُ تَمَازَجَا اتِّـ
ـحَاداً وَلَا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْمُ
فَخَمْرٌ وَلَا كَرْمٌ وَآدَمُ لِي أَبٌ
وَكَرْمٌ وَلَا خَمْرٌ وَلِي أُمُّهَا أُمُّ
وَلُطْفُ الأَوَانِي فِي الحَقِيقَةِ تَابِعٌ
لِلُطْفِ المَعَانِي وَالمَعَانِي بِهَا تَنْمُو

إلى أن قال فى آخره :

فَلَا عَيْشَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ عَاشَ صَاحِياً
وَمَنْ لَمْ يَمُتْ سُكْراً بِهَا فَاتَهُ الحَزْمُ

١ـ «مصباح المتهجّد» ص ٥٥٨ ، الطبعة الحجريّة.

عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ ضَاعَ عُمْرُهُ
وَلَيْسَ لَهُ فِيهَا نَصِيبٌ وَلَا سَهْمُ[1]

١ـ «ديوان ابن الفارض» القصيدة الميميّة ، في الطبعة الأُولى : ص ٤٣ و ٤٤ ؛ وفي الطبعة الثانية : ص ١٤٢ و ١٤٣.

الدخان التاسع عشر والعشرون

إنَّ مَنْطِقَ القُرآنِ

هُوَ جَعْلُ أَيِّ نَوْعٍ مِنَ الوُجُودِ وَآثَارِ الوُجُودِ مُقْتَصِرًا عَلَى اللهِ

وتفسير الآية المباركة

وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمَ

بِسْـم اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحيم

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قَالَ اللَهُ الحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيم :

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ.

(الآية ٨٤، من السورة ٤٣ : الزخرف)

ينفي القرآن الكريم أيّ نوع من أنواع الذات والأثر الوجوديّين من أيّ موجود بتمام أنحائه وأقسامه ؛ ويحصر صفة الوجود الملازمة للوحدة والوجوب وجميع الآثار والأطوار الوجوديّة في الذات المقدّسة للباري تعالى شأنه العزيز ويجعلها مقتصرة عليه .

وتعني كلمة الإله المعبود والمألوه ؛ أي الشيء الذي يُعبد والذي تأله إليه أرواح الموجودات وتعشقه وتسلك الطريق المؤدّية إليه . بمعنى أنّه هو المعبود والمقصود من عالم الخلق كلّه الذي بدأه ويدعوه إليه ، وعلى هذا يكون مرجعه وعوده إليه كذلك .

إنّ عالم الوجود لايملك في ذاته مثقال ذرّة من الكينونة والوجود المستقلّ ، سواء في الذات أم في الصفات أو الأفعال . ولا يمكن للخلق أن يعني إيجاد الوجود والاستقلال في العمل والصفة وذات الوجود ؛ وإلّا

فسيكون معنى هذه الولادة، أي أن يُخرج الله شيئاً منه، لكنّنا نرى أنّ الآية الشريفة **لَمْ يَلِدْ** ترفع هذه الصفة عنه كلّياً.

وذلك لأنّنا نعلم أنّ: مفاد الآية والمراد من **لَمْ يَلِدْ** ليس بمعنى الولادة بالمعنى المتعارف لدينا، أي أن نفرض والعياذ بالله له بطناً، وأنّ الموجودات تنمو وتترعرع في داخله ثمّ يدفع الله بها إلى الخارج؛ بل إنّ ما هو محقّق وثابت ويمكن اعتباره برهاناً مسلّماً به أنّ هذه الألفاظ إنّما وُضعت للمعنى العامّ ولا تخصّ المصاديق الخارجيّة المتعارفة.

وعلى هذا، يكون معنى الآية **لَمْ يَلِدْ** أنّ الله سبحانه لم يخلق الموجودات على نحو **التولُّد والإيلاد والاستيلاد**؛ بل إنّ الموجود الذي يريده ويشاء له أن يكون سيكون بمجرّد تحقّق إرادته ومشيئته القاهرة في الخارج، بحيث تكون معه في جميع مراحل الوجود من ذات الله وصفته واسمه وفعله، ولا انفكاك ولا انفصام بينها وبين ذلك الموجود المخلوق من البداية وحتّى النهاية. ولا يمكن أن يكون لهذا معنى ومفهوم غير معنى التجلّي ومفهوم الظهور.

ولا يمكن أن يكون خلق الأشياء، سواء أكانت الأشياء الخارجيّة المادّيّة الطبيعيّة، أم الموجودات المثاليّة المشكّلة والمصوّرة بصور غير مادّيّة، أم الموجودات العقليّة، وفوق كلّ هذا الحجاب الأعظم والأقرب نفسه، إلّا **التجلّي والظهور**.

إنّ الله واحد وأحد **قُلْ هُوَ ٱللَّهَ أَحَد**. وفي هذه الحال، تكون الأشياء والخلائق من الملائكة المقرّبين والأرواح الملكوتيّة والنفوس الإنسانيّة والأجنّة ونفوس النباتات والجماد، وبصورة كلّيّة كلّ عالم الخلق، يعني الظهور والتجلّي في القوالب المادّيّة والروحانيّة المختلفة؛ فالعالم كلّه هو مرآة وآية. فإذا تجلّى سبحانه «و هو المبدأ الأوّل» فيها، فإنّه سينعكس من

خلالها كلّاً حسب سعته وقابليّته .

وعلى هذا ، فإذا افترضنا وجود أيّ أثر في أيّ موجود من الموجودات منفصلاً عن وجود الحقّ تعالى وأثره وفعله ووصفه ، فإنّنا بذلك سنعتبر الله الوالد ، وذلك الموجود مولوده وبنفس المقدار ، في حين تنفي الآية الشريفة **لَمْ يَلِدْ** ذلك تماماً .

وقد قال الله سبحانه في الآيات الثلاث التي تسبق هذه الآية موضوعة البحث :

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ .

ثمّ يقول :

سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

وقال سبحانه بعد ذلك :

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ .

ثمّ يقول تعالى بعد تلك الآية :

وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

فكما لاحظنا في الآيات الشريفة المذكورة أنّها تعتبر أصل الوجود والصفات وآثار الوجود سواء من الناحية التكوينيّة أم التشريعيّة مختصّة بالله جلّ وعلا ؛ وتعدّ عالم الكون والوجود كلّه فيضاً لوجوده المقدّس .

وعلى هذا الأساس فإنّ أيّة فكرة أو فلسفة أو مذهب أو مدرسة تحمل في طيّاتها معنى يستشفّ منه اعتقاد يُشرك غير الله في الأُمور أو المسائل الإلهيّة فهو مرفوض ؛ سواء في مذهب التثليث ، أم مذهب الثنويّة ،

أو جميع أنواع وأقسام الشرك في الخلقة والعبادة (الشرك في الذات والصفات والأفعال) والطاعة والعبوديّة والتضرّع والخضوع ، فإنّ كلّ ذلك مرفوض ومنبوذ ، وهو مدان من منظار هذا الكتاب المُنزل ، القرآن الكريم .

وفي معرض ردّه على العقيدة المسيحيّة القائلة بوجود ثلاثة مبادئ قديمة أو أُصول وهي الأقانيم الثلاثة ، يقول القرآن الكريم في سورة المائدة بعد رفضه لمعتقدات اليهود والنصارى وعدم اتّباعهم تعاليم التوراة والإنجيل وانقيادهم وراء الأهواء والوساوس النفسانيّة :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ .

لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ .

كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .[1]

١ـ الآيات ٧٣ إلى ٧٩ ، من السورة ٥ : المائدة.

قال سماحة آية الله العلّامة وأُستاذنا العزيز الطباطبائيّ تغمّده الله برضوانه وبحبوحة جنانه ورحمته في تفسير الآية الشريفة :

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ :

وهذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانيّة والانتساب إلى المسيح عليه السلام عن تعلّق الكفر بهم إذ أشركوا بالله ولم يؤمنوا به حقّ إيمانه حيث قالوا : إنّ الله هو المسيح ابن مريم .

والنصارى وإن اختلفوا في كيفيّة اشتمال المسيح ابن مريم على جوهرة الأُلوهيّة بين قائل باشتقاق أُقنوم المسيح وهو العلم من أُقنوم الربّ تعالى وهو الحياة ، وذلك الأُبوّة والبنوّة ، وقائل بأنّه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب ، وقائل بأنّه حلّ فيه كما تقدّم بيان ذلك تفصيلاً في الكلام على عيسى ابن مريم عليهما السلام في تفسير سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب .

لكنّ الأقوال الثلاثة جميعاً تقبل الانطباق على هذه الكلمة : **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ** ، فالظاهر أنّ المراد بالذين تفوّهوا بهذه الكلمة جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب .

وتوصيف المسيح بابن مريم لايخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم وهو نسبة الأُلوهيّة إلى إنسان ابن إنسان مخلوقين من تراب ، **وَأَيْنَ ٱلتُّرَابُ وَرَبُّ ٱلْأَرْبَابِ** ؟

وقال في تفسير الآية الشريفة : **وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ** إلى آخر الآية :

احتجاج على كفرهم وبطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه ؛ فإنّ قوله : **ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ** ، يدلّ على أنّه عبد مربوب مثلهم ،

وقوله : **إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ** ، يدلّ على أنّ من يجعل للّه شريكاً في أُلوهيّته فهو مشرك كافر مُحرّم عليه الجنّة .

وفي قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام : **فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ، عناية بإبطال ما ينسبونه إلى المسيح من حديث التفدية ، وباختياره عليه السلام الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكاليف الإلهيّة ومصيرهم إلى الجنّة ، ولا يمسّون ناراً كما تقدّم نقل ذلك عنهم في تفسير سورة آل عمران في قصة عيسى عليه السلام ، فقصّة التفدية والصلب إنّما سيقت لهذا الغرض .

وما تحكيه الآية من قوله عليه السلام موجود في متفرّقات الأبواب من الأناجيل كالأمر بالتوحيد [١]، وإبطال عبادة المشرك [٢] والحكم بخلود الظالمين في النار .[٣]

وفي تفسير الآية الشريفة **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ** ، قال :

أي أحد الثلاثة : **الأب والابن والروح** ، أي هو ينطبق على كلّ واحد من الثلاثة ، وهذا لازم قولهم : إنّ **الأب** إله و**الابن** إله و**الروح** إله ، وهو ثلاثة ، وهو واحد يضاهئون بذلك نظير قولنا : إنّ زيد بن عمرو إنسان ، فهناك أُمور ثلاثة هي : **زيد وابن عمرو** والإنسان ، وهناك أمر واحد وهو المنعوت بهذه النعوت ، وقد غفلوا عن أنّ هذه الكثرة إن كانت حقيقيّة غير اعتباريّة أوجبت الكثرة في المنعوت حقيقة ، وأنّ المنعوت إن كان واحداً

١ـ «إنجيل مرقس» الإصحاح ١٢ : ٢٩ ، (التعليقة).

٢ـ «إنجيل متّي» الإصحاح ٦ : ٢٤ ، (التعليقة).

٣ـ «إنجيل متّى» الإصحاح ١٣ : ٥٠ ، ٢٥ : ٣١إلى ٤٧ ، (التعليقة).

حقيقة أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتباريّة غير حقيقيّة ، فالجمع بين هذه الكثرة العدديّة والوحدة العدديّة في زيد المنعوت بحسب الحقيقة ممّا يستنكف العقل عن تعقّله ، ولذا ربّما ذكر بعض الدعاة من النصارى أنّ مسألة التثليث من المسائل المأثورة من مذاهب الأسلاف التي لا تقبل الحلّ بحسب الموازين العلميّة ، ولم يتنبّه أنّ عليه أن يطالب الدليل على كلّ دعوى يقرع سمعه سواء من دعاوي الأسلاف أم من دعاوي الأخلاف .

وفي تفسير الآية **وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ** إلى آخر الآية ، قال :

ردّ منه تعالى لقولهم **إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ** ، بأنّ الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعالية الكثرة بوجه من الوجوه ، فهو تعالى في ذاته واحد ، وإذا اتّصف بصفاته الكريمة وأسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحدة شيئاً ، ولا الصفة إذا أُضيفت إلى الصفة أورث ذلك كثرة وتعدداً ، فهو تعالى **أَحَدِيُّ الذَّاتِ** لا ينقسم لا في خارج ولا في وهم ولا في عقل .

فليس الله سبحانه بحيث يتجزّأ في ذاته إلى شيء وشيء قطّ ، ولا أنّ ذاته بحيث يجوز أن يضاف إليه شيء فيصير اثنين أو أكثر ، كيف ؟ وهو تعالى مع هذا الشيء الذي يراد إضافته إليه تعالى في وهم أو فرض أو خارج .

فهو تعالى واحد في ذاته لكن لا بالوحدة العدديّة التي لسائر الأشياء المتكوّن منها الكثرات ، ولا منعوت بكثرة في ذات أو اسم ، أو صفة ، كيف ؟ وهذه الوحدة العدديّة والكثرة المتألّفة منها كلتاهما من آثار صنعه ، وإيجاده فكيف يتّصف بما هو من صنعه ؟

وفي قوله تعالى **وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ** من التأكيد في إثبات التوحيد ما ليس في غيره حيث سيق الكلام بنحو النفي والاستثناء ، ثمّ أُدخل «مِنْ» على النفي لإفادة تأكيد الاستغراق ، ثمّ جيء بالمستثنى وهو

قوله **إِلَهٌ وَاحِدٌ** بالتنكير المفيد للتنويع ولو أُورد معرفة كقولنا **إِلَّا الإِلَهُ الوَاحِدُ**، «**إِلَهٌ وَاحِدٌ**» لم يفد ما يرام من حقيقة التوحيد.

فالمعنى: ليس في الوجود شيء من جنس الإله أصلاً إلّا إله واحد نوعاً من الوحدة لا يقبل التعدّد أصلاً لا تعدّد الذات ولا تعدّد الصفات، لا خارجاً ولا فرضاً، ولو قيل: **وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَهُ الوَاحِدُ**، لم يدفع به قول النصارى **إِنَّ ٱللَهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ**، فإنّهم لا ينكرون الوحدة فيه تعالى، وإنّما يقولون: إنّه ذات واحدة لها تعيّن بصفاتها الثلاث، وهي واحدة في عين أنّها كثيرة حقيقة.

ولا يندفع ما احتملوه من المعنى إلّا بإثبات وحدة لا تتألّف منه كثرة أصلاً، وهو الذي يتوخّاه القرآن الكريم بقوله **وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ**.

وهذا من لطائف المعاني التي يلوح إليها الكتاب الإلهيّ في حقيقة معنى التوحيد، وسنغور في البحث المستوفي عنه في بحث قرآنيّ خاصّ ثمّ في بحث عقليّ وآخر نقليّ إيفاء لحقّه.

وقال في تفسيره للآية الشريفة: **وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**: تهديد لهم بالعذاب الأليم الأُخرويّ الذي هو ظاهر الآية الكريمة.

ولمّا كان القول بالتثليث الذي تتضمّنه كلمة **إِنَّ ٱللَهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ** ليس في وسع عقول عامّة الناس أن تتعقّله فأغلب النصارى يتلقّونه قولاً مذهبيّاً مسلّماً بلفظه من غير أن يعقلوا معناه، ولا أن يطمعوا في تعقّله كما ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلاً صحيحاً، وإنّما يتعقّل كتعقّل الفروض المحالة كالإنسان اللا إنسان، والعدد الذي ليس بواحد ولا كثير ولا زوج ولا فرد فلذلك تتسلّمه العامّة تسلّماً من غير بحث عن معناه، وإنّما يعتقدون في النبوّة والأُبوّة شبه معنى التشريف، فهؤلاء في الحقيقة ليسوا من أهل

التثليث وإنّما يمضغون الكلمة مضغاً وينتمون إليها انتماء بخلاف غير العامّة منهم ، وهم الذين ينسب الله سبحانه إليهم اختلاف المذاهب ويقرّر أنّ ذلك ببغيهم ،كما قال الله تعالى :

أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ـإلى أن قال **وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ**.[1]

فالكفر الحقيقيّ الذي لاينتهي إلى استضعاف ـ وهو الذي فيه إنكار التوحيد والتكذيب بآيات الله ـإنّما يتمّ في بعضهم دون كلّهم ، وإنّما أوعد الله الذين كفروا وكذّبوا بآيات الله بالخلود بالنار ، قال : **وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ**.[2] إلى غير ذلك من الآيات ، وقد مرّ الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : **إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ**.[3]

ولعلّ هذا هو السرّ في التبعيض الظاهر من قوله : **لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ**.

أو أنّ المراد به أنّ من النصارى من لا يقول بالتثليث ، ولا يعتقد في المسيح إلّا أنّه عبد الله ورسوله كما كان على ذلك مسيحيّو الحبشة وغيرها

١ـ الآيتان ١٣ و ١٤ ، من السورة ٤٢ : الشورى:

شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوٓا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ.

٢ـ الآية ٣٩ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ٩٨ ، من السورة ٤ : النساء .

على ما ضبطه التأريخ ، فالمعنى : لئن لم ينته النصارى عمّا يقولون (نسبة قول الجماعة إلى جميعهم) ليمسّنّ الذين كفروا منهم ـ وهم القائلون بالتثليث منهم ـ عذاب أليم .

وفي معرض تفسيره للآية الشريفة : **مَا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ** :

ردّ لقولهم : **إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ** ، أو لقولهم هذا وقولهم المحكيّ في الآية السابقة : **إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ** ، جميعاً ومحصّله اشتمال المسيح على جوهرة الأُلوهيّة بأنّ المسيح لا يفارق سائر رسل الله الذين توفّاهم الله من قبله كانوا بشراً مرسلين من غير أن يكونوا أرباباً من دون الله سبحانه .

وكذلك أُمّه مريم كانت صدّيقة تصدّق بآيات الله تعالى ، وهي بشر ، وقد كان هو وأُمّه جميعاً يأكلان الطعام وأكل الطعام مع ما يتعقّبه مبني على أساس الحاجة التي هو أوّل أمارة من أمارات الإمكان والمصنوعيّة .

فقد كان المسيح عليه السلام ممكناً متولّداً من ممكن وعبداً ورسولاً مخلوقاً من أُمّه ، كانا يعبدان الله ويجريان في سبيل الحاجة والافتقار من دون أن يكون ربّاً .

وما بِيَدِ القوم من كتب الإنجيل معترفة بذلك تصرّح بكون مريم فتاة كانت تؤمن بالله وتعبده وتصرّح بأنّ عيسى تولّد منها كالإنسان من الإنسان وتصرّح بأنّ عيسى كان رسولاً من الله إلى الناس كسائر الرسل ، وتصرّح بأنّ عيسى وأُمّه مريم كانا يأكلان الطعام .

فهذه أُمور صرّحت بها الأناجيل وهي حجج على كونه عليه السلام عبداً رسولاً . ويمكن أن تكون الآية مسوقة لنفي أُلوهيّة المسيح وأُمّه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى : **ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ**

إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ،[1] أنّه كان هناك من يقول لأُلوهيّتها كالمسيح أو أنّ المراد به اتّخاذها إلهاً ،كما يُنسب إلى أهل الكتاب أنّهم اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله وذلك بالخضوع لها ولهم بما لا يخضع لبشر بمثله .

وكيف كان فالآية على هذا التقدير تنفي عن المسيح وأُمّه معاً الأُلوهيّة بأنّ المسيح كان رسولاً كسائر الرسل وأُمّه كانت صدّيقة وهما معاً كانا يأكلان الطعام وذلك كلّه ينافي الأُلوهيّة .

وفي قوله تعالى : **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ** ، حيث وصف الرسل بالخلوّ من قبله وهو الموت تأكيد للحجّة لكونه بشراً يجوز عليه الموت والحياة كما جاز على الرسل من قبله .

وقال في تفسيره للآية الشريفة : **ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**:

الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله وهو في مقام التعجيب ، أي التعجّب من كيفيّة بياننا لهم الآيات وهو أوضح بيان لأظهر آية في بطلان دعواهم أُلوهيّة المسيح وكيفيّة صرفهم عن تعقّل هذه الآيات ، فإلى أيّ غاية يُصرفون عنها ولا تلفت إلى نتيجتها ـ وهي بطلان دعواهم ـ عقولهم ؟

وقال في تفسيره للآية الشريفة : **قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**:

كان الخضوع لأمر الربوبيّة إنّما انتشر بين البشر في أقدم عهوده وخاصّة بين العامّة منهم ـ وعامّتهم كانوا يعبدون الأصنام ـ طمعاً في أن يدفع الربّ عنهم الشرّ ويوصل إليهم النفع كما يتحصّل من الأبحاث

١ـ قسم من الآية ١١٦ ، من السورة ٥ : المائدة.

التأريخيّة ، وأمّا عبادة الله لأنّه الله عزّ اسمه فلم يكن يعدو الخواصّ منهم كالأنبياء والربّانيّين من أُممهم .

فأمر الله سبحانه رسوله أن يخاطبهم خطاب البشر الساذج الجاري على ما تلهمه فطرته الساذجة في عبادة الله كما خاطب الوثنيّين وعبّاد الأصنام بذلك فيذكّرهم أنّ الذي يضطرّ الإنسان بعبادة الربّ هو أنّه يرى أزمّة الخير والشرّ والنفع والضرّ بيده ، فيعبده لأنّه يملك الضرّ والنفع طمعاً في أن يدفع عنه الضرّ ويوصل إليه الخير لعبادته له .

وكلّ ما هو دون الله تعالى لا يملك شيئاً من ضرّ ولا نفع لأنّه مملوك للّه محضاً مسلوب عنه القدرة في نفسه ، فكيف يسوغ تخصيصه بالعبادة وإشراكه مع ربّه الذي هو المالك له ولغيره ؟ وقد كان من الواجب أن يخصّ هو تعالى بالعبادة ولا يتعدّى عنه إلى غيره ، لأنّه هو الذي يختصّ به السمع والإجابة فيسمع ويجيب المضطرّ إذا دعاه وهو الذي يعلم حوائج عباده ولا يغفل عنها ولا يغلط فيها بخلاف غيره تعالى فإنّه إنّما يملك ما ملكه الله ويقوى على ما قوّاه الله سبحانه . فقد تبيّن بهذا البيان :

أوّلاً : أنّ الحجّة التي تشتمل عليها هذه الآية غير الحجّة التي تشتمل عليها الآية السابقة ، وإن توقّفتا معاً على مقدّمة مشتركة وهي كون المسيح وأُمّه ممكنين محتاجين ، فالآية السابقة حجّتها أنّ المسيح وأُمّه كانا بشرين محتاجين عبدين مطيعين للّه سبحانه ، ومن كان حاله هذا الحال لم يصحّ له أن يكون إلهاً معبوداً .

وحجّة هذه الآية : أنّ المسيح ممكن محتاج مملوك بنفسه لا يملك ضرّاً ولا نفعاً ، ومن كان حاله هذا الحال لم يستقم أُلوهيّته وعبادته **مِن دُونِ اللهِ** .

وثانياً : أنّ الحجّة مأخوذة ممّا يدركه الفهم البسيط والعقل الساذج من

جهة غرض الإنسان البسيط في عبادته ، فإنّه إنّما يتّخذ ربّاً ويعبده ليدفع عنه الضرّ ويجلب إليه النفع ، وهذا إنّما يملكه الله تعالى دون غيره ، فلا غرض يتعلّق بعبادة غير الله ، فمن الواجب أن يرفض عبادته .

وثالثاً : أنّ قوله : **مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** ، إنّما أُخذت فيه لفظة «مَا» دون لفظة «مِنْ» مع أنّ المسيح من أُولي العقل ، لأنّ الحجّة بعينها هي التي تقام على الوثنيّين وعبدة الأصنام التي لا شعور لها ، ولا دخل في كون المسيح عليه السلام من أُولي العقل في تمام الحجّة ، فهي تامّة في كلّ معبود مفروض دون الله سبحانه .

على أنّ غيره تعالى ـ وإن كان من أُولي العقل والشعور ـ لا يملكون شيئاً من العقل والشعور من عند أنفسهم كسائر ما ينسب إليهم من شؤون وجودهم ؛ قال تعالى : **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** .

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ.[1]

وكذلك تقديم الضرّ على النفع في قوله ؛ **ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** للجري على وفق ما تدركه وتدعو إليه الفطرة الساذجة كما مرّ ، فإنّ الإنسان بحسب الطبع يرى ما تلبس به النعم الموجودة عنده مادامت عنده مملوكة لنفسه لا تلتفت نفسه إلى إمكان فقدها ولا تتصوّر ألمه عند فقدها بخلاف المضارّ التي يجدها بالفعل ، والنعم التي يفتقدها ويجد ألم فقدها .

فإنّ الفطرة تنبّهها إلى الالتجاء إلى ربّ يدفع عنها الضرّ والضير ،

١ـ الآيتان ١٩٤ و ١٩٥ ، من السورة ٧ : الأعراف.

ويجلب إليها النعمة المسلوبة ،كما قال تعالى : **وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ**[1] **[كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ]** . وقال تعالى : **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ**.[2]

فتحصّل أنّ مسّ الضرّ أبعث للإنسان إلى الخضوع للربّ وعبادته من وجدان النفع ، ولذلك قدّم الله سبحانه الضرّ على النفع في قوله : **مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا** . وكذا في سائر الموارد التي تماثله كقوله : **وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا**.[3]

ورابعاً : أنّ مجموع الآية : **أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ** إلى آخرها حجّة على وجوب قصر العبادة في **الله** سبحانه من دون إشراك غيره معه وهي منحلّة إلى حجّتين ملخّصهما : أنّ اتّخاذ الإله وعبادة الربّ إنّما هو لغرض دفع الضرّ وجلب النفع ، فيجب أن يكون **الإله المعبود** مالكاً لذلك ، ولا يجوز عبادة من لا يملك شيئاً ، والله سبحانه هو السميع المجيب للدعوة العليم بكنه الحاجة من غير جهل دون غيره ؛ فوجب عبادته من غير إشراك غيره .

وفي تفسيره الآية الشريفة : **قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ** يقول :

١ـ الآية ١٢ ، من السورة ١٠ : يونس .

٢ـ الآية ٥١ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٣ـ الآية ٣ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

خطاب آخر للنبيّ صلّى الله عليه وآله بأمره أن يدعو أهل الكتاب إلى عدم الغلو في دينهم ، وأهل الكتاب وخاصّة النصارى مبتلون بذلك . و**الغالي** المتجاوز عن الحدّ بالإفراط ، ويقابله **القالي** في طرف التفريط .

ودين الله الذي يفسّره كتبه المنزلة يأمر بالتوحيد ونفي الشريك وينهى عن اتّخاذ الشركاء للّه سبحانه ، وقد ابتلى بذلك أهل الكتاب عامّة اليهود والنصارى ، وإن كان أمر النصارى في ذلك أشنع وأفظع ، قال تعالى : **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .**

ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ .[1]

والقول بأنّ عزيراً ابن الله وإن كان غير ظاهر اليوم عند اليهود لكنّ الآية تشهد بأنّهم كانوا يقولون ذلك في عصر النزول .

والظاهر أنّ ذلك كان لقباً تشريفيّاً يلقّبونه به قبال ما خدمهم وأحسن إليهم في إرجاعهم إلى **أُورْشَلِيم** (بيت المقدس) بعد إسارة بابل ، وجمع لهم التوراة ثانياً بعد ضياعه في قصّة بخت نصّر ، وقد كانوا يعدّون بنوّة الله لقباً تشريفيّاً ، كما يتّخذ النصارى اليوم الأُبوّة كذلك ويسمّون **البابوات** و**البطارقة** و**القسّيسين** بالآباء (الباب والبابا : الأب) وقد قال تعالى : **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا ٱللَهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُ .**[2]

بل الآية الثانية أعني قوله : **ٱتَّخَذُوٓا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن**

١ـ الآيتان ٣٠ و ٣١ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ الآية ١٨ ، من السورة ٥ : المائدة .

دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ،[١] تدلّ على ذلك ، حيث اقتصر فيها على ذكر المسيح عليه السلام ، ولم يذكر عزيراً ، فدلّ على دخوله في عموم قوله : **أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ** ، وأنّهم إنّما كانوا يسمّونه ابن الله كما يسمّون أحبارهم أبناء الله ، وقد خصّوه بالذكر وحده شكراً لإحسانه إليهم كما تقدّمت الإشارة إليه .

وبالجملة ، وضعهم بعض أنبيائهم وأحبارهم ورهبانهم موضع الربوبيّة وخضوعهم لهم بما لا يخضع بمثله إلّا للّه سبحانه غلوّ منهم في دينهم ينهاهم الله عن ذلك بلسان نبيّه صلّى الله عليه وآله .

وتقييد الغلوّ في الدين بغير الحقّ ـ ولا يكون الغلوّ إلّا كذلك ـ إنّما هو للتأكيد وتذكير لازم المعنى مع ملزومه لئلّا يذهل عنه السامع وقد ذهل حين غلا أو كان كالذاهل .

وإطلاق الأب على الله سبحانه بتحصيل معناه وتجريده عن وسمة نواقص المادّة الجسمانيّة ، أي من بيده الإيجاد والتربية ، وكذلك الابن بمعناه المجرّد التحليليّ وإن لم يمنعه العقل لكنّه ممنوع شرعاً لتوقيفيّة أسماء الله سبحانه لما في التوسّع في إطلاق الأسماء المختلفة عليه تعالى من المفاسد ، وكفى مفسدة في إطلاق الأب والابن ما لقيته الأُمّتان : اليهود والنصارى ، وخاصّة النصارى ، من أولياء الكنيسة خلال قرون متمادية ولن يزال الأمر على ذلك .[٢]

ولسماحة الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه بحث شيّق في معنى التوحيد في القرآن الكريم في أحديّة الحقّ تعالى المطلقة . وما أروع

١ـ صدر الآية ٣١ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٦ ، مقتطفات من ص ٦٩ إلى ٧٧.

من أن ننقل هنا ذلك البحث بحذافيره ، وذلك لإحتوائه مضامين جدّ واسعة وحكم وبراهين استدلاليّة وفلسفيّة تستند في مجموعها إلى آي القرآن الكريم :

كلام في معنى التوحيد في القرآن

لا يرتاب الباحث المتعمّق في المعارف الكلّيّة أنّ مسألة التوحيد من أبعدها غوراً ، وأصعبها تصوّراً وإدراكاً ، وأعضلها حلّاً لارتفاع كعبها عن المسائل العامّة العامّيّة التي تتناولها الأفهام ، والقضايا المتداولة التي تألفها النفوس وتعرفها القلوب .

وما هذا شأنه تختلف العقول في إدراكه والتصديق به للتنوّع الفكريّ الذي فطر عليه الإنسان من اختلاف أفراده من جهة البنية الجسميّة وأداء ذلك إلى اختلاف أعضاء الإدراك في أعمالها ، ثمّ تأثير ذلك في الفهم والتعقّل من حيث الحدّة والبلادة ، والجودة والرداءة ، والاستقامة والانحراف .

فهذا كلّه ممّا لاشكّ فيه ، وقد قرّر القرآن هذا الاختلاف في موارد من آياته الكريمة كقوله تعالى : **قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَٰبِ.**[١]

وقوله تعالى : **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ.**[٢]

وقوله تعالى : **فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا.**[٣]

١ـ ذيل الآية ٩ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٣ـ ذيل الآية ٧٨ ، من السورة ٤ : النساء .

وقوله تعالى : وهي من جملة الآيات التي نحن فيها : **آنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ آنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ.**[١]

ومن أظهر المصاديق هذا الاختلاف الفهميّ ، اختلاف أفهام الناس في تلقّي معنى توحّده تعالى ، لما في أفهامهم من الاختلاف العظيم والاضطراب الوسيع في تقرير مسألة وجوده تعالى على ما بينهم من الاتّفاق على ما تعطيه الفطرة الإنسانيّة بإلهامها الخفي وإشارتها الدقيقة .

فقد بلغ فهم آحاد من الإنسان في ذلك أن جعل الأوثان المتّخذة ، والأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة حتّى من نحو الإقط والطينة المعمولة من أبوال الغنم شركاء للّه ، وقرناء له ، يُعبد كما تعبد هؤلاء ، ويُسأل كما تسأل هؤلاء ، ويخضع له كما يخضع لها ، ولم يلبث هذا الإنسان دون أن غلب هذه الأصنام عليه تعالى بزعمه ، وأقبل عليها وتركه ، وأمرها على حوائجه وعزله .

فهذا الإنسان قصارى ما يراه من الوجود له تعالى هو مثل ما يراه لآلهته التي خلقها بيده ، أو خلقها إنسان مثله بيده ، ولذلك كانوا يثبتون له تعالى من صفة الوحدة مثل ما يصفون به كلّ واحد من أصنامهم ، وهي الوحدة العدديّة التي تتألّف منها الأعداد ، قال تعالى : **وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ.**[٢]

١ـ ذيل الآية ٧٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ الآيتان ٤ و ٥ ، من السورة ٣٨ : ص .

جاء في «أقرب الموارد» : **العُجَابُ** بالضمّ : ما جاوز حدَّ العَجَبِ . أمرٌ **عَجَبٌ وعُجَابٌ وعُجَّابٌ** ـ بتخفيف الجيمِ وتشديدها ـ للمبالَغةِ : أي يُتعجَّبُ منه . و**عَجَبٌ عُجَابٌ** : مُبَالَغةٌ .

فهؤلاء كانوا يتلقّون الدعوة القرآنيّة إلى التوحيد ، دعوة إلى القول بالوحدة العدديّة التي تقابل الكثرة العدديّة ،كقوله تعالى : **وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ**،[1] وقوله تعالى : **هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**؛[2] وغير ذلك من الآيات الداعية إلى رفض الآلهة الكثيرة ، وتوجيه الوجه للّه الواحد .

وقوله تعالى : **وَإِلَـٰهُنَا وَإِلَـٰهُكُمْ وَٰحِدٌ** ،[3] وغيره من الآيات الداعية إلى رفض التفرّق في العبادة للإله ، حيث كانت كلّ أُمّة أو طائفة أو قبيلة تتّخذ إلهاً تختصّ به ، ولا تخضع لإله الآخرين .

والقرآن ينفي في عالي تعليمه الوحدة العدديّة عن الإله جلّ ذكره ، فإنّ هذه الوحدة لا تتمّ إلّا بتميّز هذا الواحد من ذلك الواحد بالمحدوديّة التي تقهره ، والمقدّريّة التي تغلبه .

مثال ذلك ماء الحوض إذا فرقناه في أواني كثيرة ،كان ماء كلّ إناء ماء واحداً غير الماء الواحد الذي في الإناء الآخر ، وإنّما صار ماء واحداً يتميّز عمّا في الآخر لكون ما في الآخر مسلوباً عنه غير مجتمع معه ، ولولا ذلك لم يأت للإنسانيّة الصادقة على هذا وذاك أن تكون واحدة بالعدد ولا كثيرة بالعدد .

فمحدوديّة الوجود هي التي تقهر الواحد العدديّ على أن يكون واحداً ، ثمّ بانسلاب هذه الوحدة من بعض الجهات تتألّف كثرة عدديّة كما عند عروض صفة الاجتماع بوجه .

١ـ صدر الآية ١٦٣ ، من السورة ٢ : البقرة .

٢ـ صدر الآية ٦٥ ، من السورة ٤٠ : غافر .

٣ـ من الآية ٤٦ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

وإذا كان الله سبحانه قاهراً غير مقهور، وغالباً لا يغلبه شيء البتة، كما يعطيه التعليم القرآنيّ، تتصوّر في حقّه وحدة عدديّة ولا كثرة عدديّة.

قال تعالى: **وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ**.[١]

وقال: **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم**.[٢]

وقال: **وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ**.[٣]

وقال: **لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ**.[٤]

والآيات بسياقها ـ كما ترى ـ تنفي كلّ وحدة مضافة إلى كثرة مقابلة لها سواء كانت وحدة عدديّة كالفرد الواحد من النوع الذي لو فرض بإزائه فرد آخر كانا إثنين فإنّ هذا الفرد مقهور بالحدّ الذي يحدّه به الفرد الآخر المسلوب عنه المفروض قباله.

أم كانت وحدة نوعيّة أم جنسيّة أم أيّ وحدة مضافة إلى كثرة من سنخها، كالإنسان الذي هو نوع واحد مضاف إلى الأنواع الكثيرة الحاصلة منه ومن الفرس والبقر والغنم وغيرها.

فإنّه مقهور بالحدّ الذي يحدّه به ما يناظره من الأنواع الأُخر، وإذ كان تعالى لا يقهره شيء في شيء البتة من ذاته ولا صفته ولا فعله وهو القاهر

١ـ ذيل الآية ١٦، من السورة ١٣: الرعد.

٢ـ ذيل الآية ٣٩، وصدر الآية ٤٠، من السورة ١٢: يوسف؛ وتتمّة الآية الأخيرة: **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**.

٣ـ ذيل الآية ٦٥، من السورة ٣٨: ص.

٤ـ الآية ٤، من السورة ٣٩: الزمر.

فوق كلّ شيء ، فليس بمحدود في شيء يرجع إليه ، فهو موجود لا يشوبه عدم ، وحقّ لا يعرضه بطلان ، وهو الحيّ لا يخالطه موت ، والعليم لا يدبّ إليه جهل ، والقادر لا يغلبه عجز ، والمالك والملك من غير أن يملك منه شيء ، والعزيز الذي لا ذلّ له وهكذا .

فله تعالى من كلّ كماله محضه ، وإن شئت زيادة تفهّم وتفقّه لهذه الحقيقة القرآنيّة فافرض **أمراً متناهياً** وآخر **غير متناه** ، تجد غير المتناهي محيط بالمتناهي بحيث لا يدفعه المتناهي عن كماله المفروض أيّ دفع فرضته ، بل غير المتناهي مسيطر عليه بحيث لا يفقده المتناهي في شيء من أركان كماله ، وغير المتناهي هو القائم على نفسه ، الشهيد عليه ، المحيط به .

ثمّ انظر في ذلك إلى ما يفيده قوله تعالى : **سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ** .[١]

وهذا هو الذي يدلّ عليه عامّة الآيات الواصفة لصفاته تعالى الواقعة في سياق الحصر أو الظاهر ؛كقوله تعالى : **ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ** .[٢]

وقوله : **وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ** .[٣]

وقوله : **هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ** .[٤]

١ـ الآيتان ٥٣ و ٥٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآية ٨ ، من السورة ٢٠ : طه .

٣ـ ذيل الآية ٢٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

٤ـ الآية ٦٥ ، من السورة ٤٠ : غافر .

وقوله : **وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ.**[١]

وقوله : **أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.**[٢]

وقوله : **لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ.**[٣]

وقوله : **إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا.**[٤]

وقوله : **ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ.**[٥]

وقوله : **أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَهِ وَٱللَهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ .**[٦] إلى غير ذلك من الآيات .

فالآيات ـ كما ترى ـ تنادي بأعلى صوتها أنّ كلّ كمال مفروض فهو للّه سبحانه بالأصالة ، وليس لغيره شيء إلّا بتمليكه تعالى له ذلك من غير أن ينعزل عمّا يملكه ويملّكه ، كما ننعزل نحن معاشر الخليقة عمّا ملّكناه غيرنا .

فكلّما فرضنا شيئاً من الأشياء ذا شيء من الكمال في قباله تعالى ليكون ثانياً له وشريكاً عاد ما بيده من معنى الكمال للّه سبحانه محضاً ؛ **وَهُوَ الْحَقُّ الَّذى يَمْلِكُ كُلَّ شَىْءٍ وَغَيْرُهُ البَاطِلُ الَّذى لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا .**

قال تعالى : **وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا.**[٧]

١ـ ذيل الآية ٥٤ ، من السورة ٣٠ : الروم .

٢ـ من الآية ١٦٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤ـ من الآية ١ ، من السورة ٦٤ : التغابن .

٤ـ من الآية ٦٥ ، من السورة ١٠ : يونس .

٥ـ صدر الآية ١٤٧ ، من السورة ٢ : البقرة .

٦ـ من الآية ١٥ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٧ ـ ذيل الآية ٣ ، من السورة ٢٥ : الفرقان . ⇦

وهذا المعنى هو الذي ينفي عنه تعالى الوحدة العدديّة ، إذ لو كان واحداً عدديّاً ، أي موجوداً محدوداً منعزل الذات عن الإحاطة بغيره من الموجودات ، صحّ للعقل أن يفرض مثله الثاني له سواء كان جائز التحقّق في الخارج أم غير جائز التحقّق ، وصحّ عند العقل أن يتّصف بالكثرة بالنظر إلى نفسه وإن فرض امتناعه في الواقع ، وليس كذلك .

فهو تعالى واحد ، بمعنى أنّه من الوجود بحيث لا يحدّ بحدّ حتّى يمكن فرض ثاني له فيما وراء ذلك الحدّ ، وهذا معنى قوله :

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ.[1] فإنّ لفظ أحد إنّما يُستعمل استعمالاً يدفع إمكان فرض العدد في قباله يقال : **مَا جَاءَنِي أَحَدٌ** ، وينفي به أن يكون قد جاء الواحد ، وكذا الاثنان والأكثر .

وقال تعالى : **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ [فَأَجِرْهُ]**.[1]

فشمل الواحد والاثنين والجماعة ولم يخرج عن حكمه عدد .

وقال تعالى : **أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ**.[2]

فشمل الواحد وما وراءه ولم يشذ منه شاذ .

فاستعمال لفظ أحد في قوله : **هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** . في الإثبات من غير نفي

⇦ وجاء في «أقرب الموارد» : **نَشَرَ** الثَّوبَ والكتابَ (ن) نشراً : بسطَهُ خِلافُ طَواهُ . و ـ اللهُ المَوتَى نَشراً ونُشوراً : أحياهم فكأنّهم خَرجوا ونُشروا بَعدَ ما طُووا . و ـ الموتى : حَيوا فهم **ناشرون** ؛ لازمٌ متعدٍّ .

١ـ بضميمة **بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ** في مطلعها : تمام السورة ١١٢ من القرآن الكريم.

١ـ صدر الآية ٦ ، من السورة ٩ : التوبة .

٢ـ من الآية ٤٣ ، من السورة ٤ : النساء .

ولا تقييد بإضافة أو وصف يفيد أنّ هويّته تعالى بحيث يدفع فرض مَن يماثله في هويّته بوجه ، سواء كان واحداً أم كثيراً ، فهو محال بحسب الفرض الصحيح مع قطع النظر عن حاله بحسب الخارج .

ولذلك وصفه تعالى بأنّه **صَمَد** وهو المصمت الذي لا جوف له ولا مكان خالياً فيه ، وثانياً بأنّه **لَمْ يَلِدْ** ، وثالثاً بأنّه **لَمْ يُولَد** ، ورابعاً بأنّه **لَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ** .

وتستلزم كلّ هذه الأوصاف نوعاً من المحدوديّة والانعزال . وهذا هو السرّ في عدم وقوع توصيفات غيره تعالى عليه حقّ الوقوع والاتّصاف .

قال تعالى : **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** .[1]

وقال تعالى : **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا** .[2]

فإنّ المعاني الكماليّة التي نصفه تعالى بها أوصاف محدودة وجلّت ساحته سبحانه عن الحدّ والقيد ، وهو الذي يرومه النبيّ صلّى الله عليه وآله في كلمته المشهورة :

لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ! أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ !

وهذا المعنى من الوحدة هو الذي يدفع به تثليث النصارى ، فإنّهم موحّدون في عين التثليث ، لكنّ الذي يذعنون به من الوحدة وحدة عدديّة لا تنفي الكثرة من جهة أُخرى ، فهم يقولون : إنّ **أقانيم** (الأب ، الابن ، الروح) (الذات ، العلم ، الحياة) ثلاثة ، وهي واحدة كالإنسان الحيّ العالم ، فهو شيء واحد لأنّه إنسان حيّ عالم ، وهو ثلاثة ، لأنّه إنسان وحياة وعلم .

١ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات ؛ وكذلك في الآية ١٨٠ ، من نفس السورة: **سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ** .

٢ـ ذيل الآية ١١٠ ، من السورة ٢٠ : طه .

لكنّ التعليم القرآنيّ ينفي ذلك ، لأنّه يثبت من الوحدة ما لا يستقيم معه فرض أيّ كثرة وتمايز ، لا في الذات ولا في الصفات ، وكلّ ما فرض من شيء في هذا الباب كان عين الآخر لعدم الحدّ ، فذاته تعالى عين صفاته وكلّ صفة مفرضة له عين الأُخرى ؛ **تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**.[١] **وَسُبْحانَهُ عَمّا يَصِفونَ**.[٢]

ولذلك ترى أنّ الآيات التي تنعته تعالى بالقهّاريّة تبدأ أوّلاً بنعت الوحدة ثمّ تصفه بالقهّاريّة ، لتدلّ على أنّ وحدته لا تدع لفارض مجال أن يفرض له ثانياً مماثلاً بوجه ، فضلاً عن أن يظهر في الوجود ، وينال الواقعيّة والثبوت .

قال تعالى : **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم**.[٣]

فوصفه بوحدة قاهرة لكلّ شريك مفروض لا تبقي لغيره تعالى من كلّ معبود مفروض إلاّ الاسم فقط .

وقال تعالى : **أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ**.[٤]

قال تعالى : **لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ**.[٥]

١ـ ذيل الآية ٦٣ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٢ـ اقتبس الأُستاذ من بعض الآيات ، لأنّ الآية : **سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ** هي الآية ١٠٠ ، من السورة ٦ : الأنعام . والآية ٩١ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون ، والآية ١٥٩ ، من السورة ٣٧: الصافّات: هي : **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** .

٣ـ ذيل الآية ٣٩ وصدر الآية ٤٠ ، من السورة ١٢ : يوسف .

٤ـ ذيل الآية ١٦ ، من السورة ١٣ : الرعد .

٥ـ ذيل الآية ١٦ ، من السورة ٤٠ : غافر .

إذ ملكه تعالى المطلق لا يخلي مالكاً مفروضاً غيره دون أن يجعله نفسه وما يملكه ملكاً للّه سبحانه .

وقال تعالى : **وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .**[١]

وقال تعالى : **لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ .**[٢]

فرتّب القهّاريّة في جميع الآيات على صفة الوحدة .[٣]

وقد بيّن سماحة أُستاذنا العلّامة قدّس الله سرّه سواء في التفسير أم في الحكمة القواعد الخاصّة للوجود الصرف للذات المقدّسة للحقّ تعالى ، وبرهن أُسسها على أكمل وجه .

وقد عرضتُ عليه أنا الحقير ، بأنّني أنوي تأليف بحث في التوحيد باسم «يكتا شناسى» في سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة . فلم يردّ بشيء ، ولكنّه كان واضحاً أنّه لم يُسرّ لذلك .

وبعد ذلك خطر في ذهني أنّ السبب في ذلك قد يعود إلى استخدامي كلمة (يكتا) التي تشير إلى مفهوم الوحدة العدديّة ، هذا في الوقت الذي سعى فيه العلّامة دوماً إلى إثبات مفهوم الوحدة الحقّة والحقيقيّة للّه والتي أطلق عليها الوحدة الصِّرفة ، وما أكثر ما ألّف من البحوث القيّمة حول ذلك !

لهذا ، طرأ على بالي أن أُسمّيه «يگانه شناسى» . ذلك أنّ كلمة (يگانه) تعطي في الحقيقة معنى «أحد» وهي أقرب إليه من غيرها .

١ـ ذيل الآية ٦٥ ، من السورة ٣٨ : ص .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٣ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ٦ ، ص ٨٦ إلى ٩١ .

وأخيراً توصّلتُ إلى أنّه من الأفضل تسمية الكتاب المذكور بـ «الله شناسى» ، وذلك لأنّ لفظ الجلالة (الله) اشتمل على جميع أُمور الباري عزّ اسمه وبحثَ شؤونه ، سواء من حيث الوحدة الحقّة الحقيقيّة أم الأسماء والصفات أم الظهور والأفعال ؛ فـ «الله» اسم جامع للساحة الأحديّة بما في ذلك جهات الوحدة والآثار والكثرات .

وعليه استقرّ الرأي بمشيئة الله على هذا الاسم وتمّ تحرير مواضيعه بالاستناد إلى هذه الأُمور وسيستمرّ ذلك إن شاء الله تعالى .

وقد أورد سماحة الأُستاذ قدّس الله سرّه في تفسيره بحثاً تحت عنوان «بحث تأريخيّ» فيما يلي نصّه :

القول بأنّ للعالم صانعاً ثمّ القول بأنّه واحد من أقدم المسائل الدائرة بين متفكّري هذا النوع تهديه إليه فطرته المركوزة فيه ، حتّى أنّ الوثنيّة المبنيّة على الإشراك ، إذا أمعنا في حقيقة معناها وجدناها مبنيّة على أساس توحيد الصانع ، وإثبات شفعاء عنده ؛ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰ** .[1] وإن انحرفت بعد عن مجراها ، وآل أمرها إلى إعطاء الاستقلال والأصالة لآلهة دون الله .

والفطرة الداعية إلى توحيد الإله وإن كانت تدعو إلى إله واحد غير محدود العظمة والكبرياء ذاتاً وصفة ـ على ما تقدّم بيانه بالاستفادة من الكتاب العزيز ـ غير أنّ أُلفة الإنسان وأُنسه في ظرف حياته بالآحاد العدديّة من جانب ، وبلاء الملّيين بالوثنيّين والثنويّين وغيرهم لنفي تعدّد الآلهة من جانب آخر سجّل عدديّة الوحدة وجعل حكم الفطرة المذكورة كالمغفول عنه .

١ـ من الآية ٣ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

ولذلك ترى المأثور من كلمات الفلاسفة الباحثين في مصر القديمة واليونان والإسكندريّة وغيرهم ممّن بعدهم يعطي الوحدة العدديّة حتّى يصرّح بها مثل الرئيس أبي عليّ ابن سينا في كتاب «الشفاء» ، وعلى هذا المجرى يجري كلام غيره ، ممّن بعده إلى حدود الألف من الهجرة النبويّة .

وأمّا أهل الكلام من الباحثين فاحتجاجاتهم على التوحيد لا تعطي أزيد من الوحدة العدديّة أيضاً ، في عين أنّ هذه الحجج مأخوذة من الكتاب العزيز عامّة ؛ فهذا ما يتحصّل من كلمات أهل البحث في هذه المسألة .

فالذي بيّنه القرآن الكريم من معنى التوحيد أوّل خطوة خطيت في تعليم هذه الحقيقة من المعرفة ، غير أنّ أهل التفسير والمتعاطين لعلوم القرآن من الصحابة والتابعين ثمّ الذين يلونهم أهملوا هذا البحث الشريف ، فهذه جوامع الحديث وكتب التفسير المأثورة منهم لا ترى فيها أثراً من هذه الحقيقة لا ببيان شارح ، ولا بسلوك استدلاليّ .

ولم نجد ما يكشف عنها غطاءها إلّا ما ورد في كلام الإمام **علي بن أبي طالب** عليه أفضل السلام خاصّة .

فإنّ كلامه هو الفاتح لبابها والرافع لسترها وحجابها على أهدى سبيل وأوضح طريق من البرهان ، ثمّ ما وقع في كلام الفلاسفة الإسلاميّين بعد الألف الهجريّ ، وقد صرّحوا بأنّهم إنّما استفادوه من كلامه عليه السلام .

وهذا هو السرّ في اختصارنا في البحث الروائيّ السابق على نقل نماذج من غرر كلامه عليه السلام الرائق ، لأنّ السلوك في هذه المسألة وشرحها من مسلك الاحتجاج البرهانيّ لا يوجد في كلام غيره عليه السلام .

ولهذا بعينه تركنا عقد بحث فلسفيّ مستقلّ لهذه المسألة ، فإنّ البراهين الموردة في هذا الغرض مؤلّفة من هذه المقدّمات المبيّنة في كلامه ، لا تزيد على ما في كلامه بشيء ، والجميع مبنيّة على صرافة الوجود

وأحديّة الذات جلّت عظمته . انتهى كلام الأُستاذ العلّامة .[١]

وللفيلسوف المسلم الملّا صدر الدين الشيرازيّ بحث تحت عنوان : **فِي أَنَّ وَاجِبَ الوُجُودِ تَمَامُ الأَشْيَاءِ كُلُّ المَوْجُودَاتِ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأُمُورُ كُلُّهَا.**

يقول فيه : هذا من الغوامض الإلهيّة التي يستصعب إدراكه إلّا على من آتاه الله من لدنه علماً وحكمة ، لكنّ البرهان قائم على أنّ كلّ : **بَسِيطُ الحَقِيقَةِ كُلُّ الأَشْيَاءِ الوُجُودِيَّةِ** ، إلّا ما يتعلّق بالنقائص والأعدام . والواجب تعالى بسيط الحقيقة ، واحد من جميع الوجوه ، فهو كلّ الوجود كما أنّ كلّه الوجود .[٢]

وقد أثبت سماحة الأُستاذ العلّامة الطباطبائيّ قدّس الله سرّه هذه المسألة وبرهن قواعدها ، وتعتبر من المسائل البديهيّة والأُصوليّة المبرهنة في علم الفلسفة والتوحيد عند تلامذته .

١ـ وقد قال الأُستاذ في تعليقة على ذلك :

وللناقد البصير والمتدبّر المتعمّق أن يقضي عجباً ممّا صدر من الهفوة من عدّة من العلماء الباحثين حيث ذكروا أنّ هذه الخطب العلويّة الموضوعة في «نهج البلاغة» موضوعة دخيلة. وقد ذكر بعضهم أنّها من وضع **الشريف الرضيّ** رحمة الله عليه، وقد تقدّم الكلام في أطراف هذه السقطة.

وليت شعري كيف يسع للوضع والدسّ أن يتسرّب إلى موقف علميّ دقيق لم يقو بالوقوف عليه أفهام العلماء حتّى بعد ما فتح عليه السلام بابه ورفع ستره قروناً متمادية إلى أن وُفّق لفهمه بعد ما سِيَر في طريق الفكر المترقّي مسير ألف سنة ، ولا أطاق حمله غيره من الصحابة ولا التابعون، بل كلام هؤلاء الرامين بالوضع ينادي بأعلى صوته إنّهم كانوا يظنّون أنّ الحقائق القرآنيّة والأُصول العالية العلميّة ليست إلّا مفاهيم مبتذلة عامّيّة وإنّما تتفاضل باللفظ الفصيح والبيان البليغ . («الميزان في تفسير القرآن» ج ٦ ، ص ١٠٣ إلى ١٠٥).

٢ـ «الأسفار الأربعة» ج ٦ ، ص ١١٠ ، الطبعة الحروفيّة .

وعلى أساس هذه القاعدة فقد نزّه الذات المقدّسة لساحة الواجب عزّ شأنه من الوحدة العدديّة ووصفه بالوحدة الحقّة الحقيقيّة التي تمثّل الوجود الصرف ووحدته الصرفة ، وبهذه الطريقة ردّ على شبهة ابن كمّونة .

وقد بيّن معنى الوحدة الصرفة بما يلي :

المراد من الشيء المتّصف بالوحدة هو ذلك الشيء الذي يكون على نحو من البساطة والمحوضة والصرافة ، ويشتمل على جميع معانيها ومفاهيمها ومصاديق محتوياتها ، بحيث لو نظرنا إلى أيّ معنى من معاني ذلك الشيء ومصاديقه ، لوجدنا أنّه لا يخرج عنه ، بل هو في داخله ، ويمكن القول بأنّه : **هُوَ هُو** ، خلافاً للشيء المتّصف بالوحدة العدديّة الذي يمكن تصوّر نظير وشبيه ومثيل له في خارجه .

فمثلا ، أنّ حقيقة معنى الإنسان ومفهومه ، وهي النفس الناطقة ، تحمل معنى الصرافة ، لأنّ كلّ ما يمكن أن نتصوّره من هذا المفهوم والمعنى والماهيّة يشير في ذاته إلى معنى الإنسانيّة المفروضة ، ولا يوجد شيء خارجه . إنّ ما يمكننا فهمه من معنى الحيوان الناطق ، والشيء العاقل المتحرّك بالإرادة ، والشيء المتعجّب الباكي ، وباختصار حقيقة الأفراد كما في زيد وعمرو ، عندما نتصوّر كلّاً منهم بادئ ذي بدء بصورة إنسان ، فسوف نرى أنّه تصوّر شامل ومستوعب وبسيط وهو ليس بخارج عن ذلك ، فأمّا وحدة زيد فهي وحدة عدديّة . لأنّه يمكن افتراض عمرو وخالد مقابل ذلك سواء كان موجوداً في الخارج أم لم يكن .

إنّ للوجود صرافة ، وذلك لأنّ كلّ معنى من معانيه ومصداق من مصاديقه سواء كان شديداً أم ضعيفاً ، كبيراً أم صغيراً ، مجرّداً أم غير مجرّد متعيّناً أم غير متعيّن ، ملكوتيّاً أم مُلكيّاً ، عقليّاً أم نفسيّاً أم طبيعيّاً ، كلّ ذلك يدخل في معنى صرف الوجود . ولأنّنا أخذنا بنظر

الاعتبار الوجود **بِمَا هُوَ وُجُودٌ** ، فقد راعينا جميع تلك الملاحظات ، وذلك بإسقاط الحدود الماهويّة .

وهذا هو معنى كلام مؤسّس «حكمة الإشراق» من أنّ :

صِرْفُ الوُجُودِ الَّذِي لَا أَتَمَّ مِنْهُ ، كُلَّمَا فَرَضْتَهُ ثَانِياً فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهِ فَإِذاً هُوَ هُوَ .

وعلى هذا الأساس كان سماحة الأُستاذ يقول بـ «تشخّص الوجود» . وهذه المسألة أدقّ وأعمق وألطف وأعلى من مسائل وحدة الوجود ، في باب توحيد الحقّ تعالى .

كانت هذه مقتطفات من البحوث والدروس الشفهيّة للأُستاذ والتي كنّا نستفيد منها . جزاه الله عن الحقّ خير الجزاء .

وأمّا ماكتبه في تعليقة بحث الملّا صدرا هنا لإثبات بحثه ونظريّته فهو :

وملخّص البرهان هو أنّ أيّ هويّة صحيحة يُسلب شيء منها ، فإنّ القضيّة المستحصلة من ذلك هي الإيجاب والسلب . وكلّ ماكان على هذه الشاكلة ، لابدّ أن يكون مركّباً من الإيجاب (ثبوته لنفسه) والسلب (نفي غيره عنه) .

وينتج عن هذا الأمر أنّ أيّة هويّة يُسلب شيء منها ، هي هويّة مركّبة . والعكس العكس أي : أنّ جميع الذوات البسيطة الحقيقة لا يُسلب منها شيء .

وإن شئت فقل : **بَسِيطُ الحَقِيقَةِ كُلُّ الأَشْيَاءِ .**

ولا يجب أن نغفل بالطبع ، من أنّ هذه القضيّة الحمليّة (أي حمل الأشياء على بسيط الحقيقة) هي من قبيل حمل الشائع الصناعيّ . لأنّ الأمر في مسألة حمل الشائع (كقولنا : زيد إنسان ، وزيد قائم) محمول يُحمل على

موضوعه بوجهيه الإيجابيّ والسلبيّ والمتركّبة ذاته منهما معاً .

وإذا حُمل شيء من الأشياء على بسيط الحقيقة من جهة كونه مركّباً ، ففي هذه الصورة يصدق عليه ذلك حتّى من جهته السلبيّة . وعلى هذا ، سيكون مركّباً في حين أنّنا قد فرضناه بسيط الحقيقة ، **وهَذَا خُلْفٌ** .

ولذا ، فعلى المحمول على صرف الوجود أن يمثّل الجهات الوجوديّة للأشياء وحسب ، وإن شئت فقل : إنّه مشتمل على جميع الكمالات ، أو إنّه مهيمن على جميع الكمالات . وعلى هذا المنوال يكون حمل المشوب على الصرف ، والمحدود على المطلق .[1]

وللحكيم المتألّه الحاجّ الملّا هادي السبزواريّ أعلى الله درجته كذلك تعليقة مفصّلة هنا لإثبات هذا المرام ، ومن جملة ما قال : لعلّ كلام الشيخ العطّار في «منطق الطير» يشير إلى هذا الأمر :

هم ز جمله پيش هم پيش از همه

جمله از خود ديده وخويش ازهمه[2]

وأورد السيّد المحقّق الداماد أعلى الله مقامه في «التقديسات» ما يلي :

وَهُوَ كُلُّ الوُجُودِ ، وَكُلُّهُ الوُجُودُ ، وَكُلُّ البَهَاءِ وَالكَمَالِ ، وَكُلُّهُ البَهَاءُ وَالكَمَالُ . وَمَا سِوَاهُ عَلَى الإطْلَاقِ لَمَعَاتُ نُورِهِ ، وَرَشَحَاتُ وُجُودِهِ ، وَظِلَالُ ذَاتِهِ .

وَإذْ كُلُّ هُوِيَّةٍ مِنْ نُورِ هُوِيَّتِهِ فَهُوَ الهُوَ الحَقُّ المُطْلَقُ ، وَلاَ هُوَ عَلَى

١ـ «الأسفار الأربعة» ، ج ٦ ، ص ١١٠ و ١١١ .

٢ـ يقول : «فهو ، على أيّة حال ، سابق للجميع من بين الجميع ، وهو يرى أنّ الكلّ منه وهو من الكلّ» .

الإطْلَاقِ إلَّا هُوَ.[١]

نعم، وعلى هذا الأساس، يقول محيي الدين بن عربي: **سُبْحانَ الَّذي أظْهَرَ الأَشْيَاءَ وَهُوَ عَيْنُهَا.**

وأنشد الشيخ إبراهيم العراقيّ الهمدانيّ يقول:

غيرتش غير در جهان نگذاشت لاجرم عين جمله اشيا شد[٢]

والبيت المذكور هو من جملة أبيات البند الثالث من إحدى ترجيعاته المشتملة على أحد عشر بنداً، وجميع البنود المذكورة هي على النحو التالي:

آفتاب رخ تو پيدا شد عالم اندر تَفَش هويدا شد

وام كرد از جمال تو نظرى حسن رويت بديد وشيدا شد

عاريت بستد از لبت شكرى ذوق آن چون بيافت گويا شد[٣]

١ـ «الأسفار الأربعة» ج ٦، ص ١١١؛ وفيما يخصّ ذكر **لَا هُوَ إلَّا هُو** فإنّه ينقل ذلك في «المنظومة» عن المحقّق الداماد والجديرة بالملاحظة؛ في ص ١٦٧، طبعة الناصريّ، إذ يقول:

وَهَذَا إشَارَةٌ إلَى مَسْأَلَةِ الكَثْرَةِ فِي الوَحْدَةِ، وَأَنَّ الوُجُودَ البَسِيطَ كُلُّ الوُجُودَاتِ بِنَحْوٍ أَعْلَى. كَمَا قَالَ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَأَحْيَاهُ وَبَرْهَنَ عَلَيْهِ صَدْرُ الحُكَمَاءِ المُتَأَلِّهِينَ (س). وَقَالَ السَّيِّدُ الدَّامَادُ (س) فِي التَّقْدِيسَاتِ: وَهُوَ كُلُّ الوُجُودِ، وَكُلُّهُ الوُجُودُ ... إلى آخر ما ذكرناه في النصّ أعلاه.

٢ـ يقول: «لم تجعل غيّريَّته محلّاً للغير في هذا العالم، وقد صار يمثّل بذاته كلّ الأشياء».

٣ـ «الديوان الكامل للعراقيّ» ص ١٢٣، منشورات السنائيّ.

يقول: «بانت شمس محيّاك فأضيء كلّ العالم بوهجها.

ولمّا اقتبس من جمالك نظرة ورأى حسن وجهك، هيّمه حبّك.

واستعار شيئاً من شفاهك العذبة فلمّا تذوّق ذلك انحلّت عقدة لسانه ونطق بالبلاغة».

شبنمی بر زمین چکید سحر روی خورشید دید ودر وا شد
بر هوا شد بخاری از دریا باز چون جمع گشت دریا شد
غیرتش غیر در جهان نگذاشت لاجرم عین جمله اشیا شد
نسبت اقتدار وفعل به ما هم از آن روی بود کو ما شد
جام گیتی نمای او مائیم که به ما هر چه بود پیدا شد
تا به اکنون مرا نبود خبر بر من امروز آشکارا شد
که همه اوست هر چه هست یقین
جان وجانان ودلبر ودل ودین[1]

١ـ يقول : «سقطت قطرة من الندى وقت السحر على الأرض ، فلمّا رأت الشمس انفلقت.
فأضحت بُخاراً من البحر تصاعد في الهواء ، ولمّا جُمِعَت ثانية صارت بحراً.
لم تجعل غَيّريَّته محلّاً للغير في هذا العالم ، وقد صار يمثّل بذاته كلّ الأ شياء.
إنّ نسبة الاقتدار والفعل إلينا كانت بسبب أ نّه استحال «نحن».
إنّنا مرآة تجلي عالمه ، وبنا تجلّى كلّ ما كان.
لم أكن أعلم حتّى الآن شيئاً فاتّضح عندي اليوم كلّ شيء.
فهو كلّ ما موجود يقيناً ، هو الروح والمحبوب والقلب والدين».

إنّ معنى تشخّص الوجود: لا هو إلّا هو

وتفسير الآيتين المباركتين

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمَ

بِسْـمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحيم

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قَالَ اللَهُ الحَكِيمُ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ (على لسان النبيّ يـوسف عـلى نـبيّنا وآله وعليه الصلاة والسلام مخاطباً صاحبَيه في السجن) :

يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً (بلا مسمّى ولا أصالة ولا واقعيّة) **سَـمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.**

(الآيتان ٣٩ و ٤٠، من السورة ١٢ : يوسف) .

قال سماحة أُستاذنا العلّامة برّد الله مضجعه في تفسير هاتين الآيتين ما يلي :

قوله تـعالى : **يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّـجْنِ ءَأَرْبَـابٌ مُّـتَفَرِّقُونَ خَـيْرٌ أَمِ ٱللَـهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** . لفظة **خَيْرٌ** بحسب الوزن صفة من قولهم : **خَارَ يَخِيرُ خِيَرَةً: إِذَا انْتَخبَ وَاخْتَارَ أَحَدَ شَيْئَيْنِ يَتَردَّدُ بَينَهُمَا ، مِنْ حَيْثُ الفِعْلِ أَوْ مِنْ حَيْثُ الأَخْذِ بِوَجْهٍ.**

فالخير منهما هو الذي يفضل على الآخر في صفة المطلوبيّة فـيتعيّن

الأخذ به . **فخَيْرُ الفِعْلَيْنِ** هو المطلوب منهما الذي يتعيّن القيام بـه ، **وخَـيْرُ الشَّيْئَينِ** هو المطلوب منهما من جهة الأخذ به **كخَيْرِ المَالَيْنِ** من جهة التمتّع به **وخَيْرِ الدَّارَيْنِ** من جهة سكناهما **وخَيْرِ الإنْسَانَيْنِ** من جـهة مـصاحبته ، **وخَيْرِ الرَّأْيَيْنِ** من جهة الأخذ به ، **وخَيْرِ الإلَهَيْنِ** من جهة عبادته .

ومن هنا ذكر أهل الأدب أن **الخير** في الأصل «أخْيَر» أفعل تفضيل ، والحقيقة أنّه صفة مشبّهة تفيد بحسب المادّة ما يفيده أفعل التـفضيل مـن الفضل في القياس .[1]

١ـ نرى في أغلب الكتب أنّ كلمة **خَيْر** كانت في الأصل **أخْيَر** على وزن أفعل من أوزان التفضيل، وهو غير صحيح . فكلمة خير صفة مشبّهة وليست من أفعل التفضيل.

ويصرّ سماحة أُستاذنا العلّامة على هذا المعنى ، كما نلاحظ هنا من خلال بحوثه. وقد بيّن أكثر من هذا في تفسيره للآية ٢٦ ، من سورة ٣ : آل عمران في «الميزان» ج ٣، ص ١٣٢ إلى ١٣٤، بشكل مفصّل ، ورأينا أنّه من الأجدر إيراده هنا ؛ قال في تفسير قوله تعالى: **بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** :

الأصل في معنى الخير هو الانتخاب ، وإنّما نسمّي الشيء خيراً لأنّا نقيسه إلى شيء آخر نريد أن نختار أحدهما فننتخبه فهو خير ، ولا نـختاره إلّا لكـونه مـتضمّناً لمـا نـريده ونقصده، فما نريده هو الخير في الحقيقة ، وإن كنّا أردناه أيضاً لشيء آخر فذلك الآخر هو الخير بالحقيقة، وغيره خير من جهته ، فالخير في الحقيقة هو المطلوب لنفسه يسمّى خيراً، لكونه هو المطلوب إذا قيس إلى غيره ، وهو المنتخب من بين الأشياء إذا أردنا واحداً منها وتردّدنا في اختياره من بينها.

فالشيء كما عرفت إنّما يسمّى خيراً لكونه منتخباً إذا قيس إلى شيء آخر مؤثّراً بالنسبة إلى ذلك الآخر ، ففي معناه نسبة إلى الغير ، ولذا قيل :إنّه صيغة التفضيل وأصله **أخْيَر** . وليس بأفعل التفضيل، وإنّما يقبل انطباق معنى التفضيل على مورده فيتعلّق بغيره كما يتعلّق أفعل التفضيل؛ يُقال: **زَيْدٌ أَفْضَلُ مِنْ عَمْرٍو** ، **وزَيْدٌ أَفْضَلُهُمَا** . يُقال : **زَيْدٌ خَيْرٌ مِنْ عَمْرٍو** ، **وزَيْدٌ خَيْرُهُمَا** .

ولو كان **خير** صـيغة التفضيل لجـرى فيه ما يجـري عليه ، ويُقال : **خير وخـيرة** ⇦

. . . . . .

⇦ **وأخيار وخيرات** ، كما يقال **شيخ وشيخة وأشياخ وشيخات** ، فهو صفة مشبّهة.

وممّا يؤيّده استعماله في موارد لا يستقيم معنى أفعل التفضيل كقوله تعالى: **قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ** (الآية ١١ ، من السورة ٦٢ : الجمعة) ، فلا خير في اللهو حتّى يستقيم معنى أفعل، وقد اعتذروا عنه وعن أمثاله بأنّه منسلخ فيها عن معنى التفضيل ، وهو كما ترى. فالحقّ أنّ الخير إنّما يفيد معنى الانتخاب ، واشتمال ما يقابله من المقيس عليه على شيء من الخير من الخصوصيّات الغالبة في الموارد.

ويظهر ممّا تقدّم أنّ الله سبحانه هو الخير على الإطلاق ، لأنّه الذي ينتهي إليه كلّ شيء ويرجع إليه كلّ شيء ، ويطلبه ويقصده كلّ شيء ، لكنّ القرآن الكريم لا يطلق عليه سبحانه الخير إطلاق الاسم كسائر أسمائه الحسنى جلّت أسمائه ، وإنّما يطلقه عليه إطلاق التوصيف، كقوله تعالى: **وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ** . (الآية ٧٣ من السورة ٢٠ : طه)، وكقوله تعالى: **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** . (الآية ٣٩ من السورة ١٢: يوسف).

نعم ، وقع الإطلاق على نحو التسمية بالإضافة ، كقوله تعالى : **وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ** . (الآية ١١ ، من السورة ٦٢ : الجمعة) ، وقوله : **وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ** .(الآية ٨٧ ، من السورة ٧: الأعراف)، وقوله: **وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ** . (الآية ٥٧ ، من السورة ٦ : الأنعام)، وقوله: **وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ** . (الآية ١٥٠ ، من السورة ٣ : آل عمران)، وقوله: **وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ** . (الآية ٥٤ ، من السورة ٣ : آل عمران)، وقوله: **وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ** . (الآية ٨٩ ، من السورة ٧: الأعراف)، وقوله: **وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ** . (الآية ١٥٥ ، من السورة ٧ : الأعراف)، وقوله: **وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ** . (الآية ٨٩ ، من السورة ٢١ : الأنبياء)، وقوله: **وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ** . (الآية ٢٩ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون) ، وقوله : **وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ** . (الآية ١٠٩ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون).

ولعلّ الوجه في جميع ذلك اعتبار ما في مادّة **الخير** من معنى الانتخاب ، فلم يطلق إطلاق الاسم عليه تعالى صوناً لساحته تعالى أن يقاس إلى غيره بنحو الإطلاق وقد عنت الوجوه لجنابه؛ وأمّا التسمية عند الإضافة والنسبة ، وكذا التوصيف في الموارد المقتضية لذلك فلامحذور فيه.

والجملة ، أعني قوله تعالى : **بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ** ، تدلّ على حصر الخير فيه تعالى لمكان اللام وتقديم الظرف الذي هو الخبر ؛ والمعنى أنّ أمر كلّ خير مطلوب إليك ، وأنت المعطي ⇦

وبما مرّ يتبيّن أن قوله : **يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ـ إلى آخره ، مسوق لبيان الحجّة على تعيينه تعالى للعبادة إذا فرض تردّد الأمر بينه وبين سائر الأرباب التي تُدعى من دون الله ، لا لبيان أنّه تعالى هو الحقّ الموجود دون غيره من الأرباب ، أو أنّه تعالى هو الإله الذي تنتهي إليه الأشياء بدءاً وعوداً دونها ، أو غير ذلك .

فإنّ الشيء إنّما يسمّى خيراً من جهة طلبه وتعيينه بالأخذ به بنحو ، فقوله : **أَهُوَ خَيْرٌ أَمْ سَائِرِ الْأَرْبَابِ** ، يريد به السؤال عن تعيّن أحد الطرفين من جهة الأخذ به ، والأخذ بالربّ هو عبادته .

ثمّ إنّه سمّى آلهتهم أرباباً متفرّقين ، لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة وهم عندهم صفات الله سبحانه أو تعيّنات ذاته المقدّسة التي تستند إليها

⇦ المفيض إيّاه.

تمّ إلى هنا ما أردنا نقله من كلام سماحة الأُستاذ أرواحنا فداه . والحقّ أنّه كان بحثاً علمياً ووثائقياً، وأنّه لمن الضروريّ فهم مثل هذه الأُمور الدقيقة من قبل مفسّري القرآن.

وقد أورد أُستاذ العربيّة على الإطلاق : جار الله الشيخ محمود الزمخشريّ في كتاب «أساس البلاغة» في مادّة «**خير**» ، ما نصّه : خ ي ر ـ كان ذلك خِيَرَةً من الله ، ورسولُ الله خِيَرَتُه من خَلْقِه. واخترتُ الشَّيءَ وتَخيَّرتُه واسْتَخَرْتُه واستخرْتُ اللهَ في ذلك فَخار لي ، أي طَلبتُ منه خيرَ الأمرين فاختارَه لي . قال أبو زبيد:

نِعْمَ الكِرَامُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ رَهْطُ امْرِئٍ خَارَهُ لِلدِّينِ مُخْتَارُ

ويُقال : أنتَ عَلى المُتَخَيَّرِ ، أي تَخيَّرْ ما شِئتَ ، ولستَ على المُتَخيَّرِ . قال الفَرزدَق:

فَلَو كَانَ حَرِّيُّ بْنُ ضَمْرَةَ فِيكُمُو لَقَالَ لَكُمْ لَسْتُمْ عَلَى المُتَخيَّرِ

وهو مِن أهل الخَير والخِيرِ وهو الكَرَم . وهو كريم الخِير والخِيم وهو الطَّبيعة. وما أخْيرَ فلاناً. وهو رجلٌ خَيْرٌ ، وهو من خيار النَّاس وأخيارهم وأخايرهم . وخَيّره بَين الأمرين فتخيَّر. وخَايره في الخَطِّ مخايرةً ، وتَخايروا في الخَطِّ وغيره إلى حَكَم . وخايرتُه فَخُرْتُهُ ، أي كنتُ خيراً منه.

جهات الخير والسعادة في العالم ، فيفرّقون بين الصفات بتنظيمها طولاً وعرضاً ويعبدون كلّاً بما يخصّه من الشأن ، فهناك إله العلم وإله القدرة وإله السماء ، وإله الأرض وإله الحُسن وإله الحبّ وإله الأمن والخصب وغير ذلك ، ويعبدون الجنّ وهم مبادئ الشرّ في العالم ،كالموت والفناء والفقر والقبح والألم والغمّ وغير ذلك ، ويعبدون أفراداً ،كالكمّلين من الأولياء والجبابرة من السلاطين والملوك وغيرهم ، وهم جميعاً متفرّقون من حيث أعيانهم ومن حيث أصنامهم والتماثيل المتّخذة لهم المنصوبة للتوجّه بها إليهم .

وقابل الأرباب المتفرّقين بذكر **الله** عزّ اسمه ووصفه **بالواحد القهّار** ، حيث قال : **أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** .

فالكلمة تفيد بحسب المعنى خلاف ما يفيده قوله : أأرباب متفرّقون ، لضرورة التقابل بين طرفي التردّد .

فالله علم بالغلبة يراد به الذات المقدّسة الإلهيّة التي هي حقيقة لا سبيل للبطلان إليه ، ووجود لا يتطرّق الفناء والعدم إليه .

والوجود الذي هذا شأنه لا يمكن أن يفرض له حدّ محدود ولا أمد ممدود ، لأنّ كلّ محدود فهو معدوم وراء حدّه ، والممدود باطل بعد أمده ، فهو تعالى ذات غير محدود ، ووجود غير متناه بحدّ ، وإذا كان كذلك لم يمكن أن يفرض له صفة خارجة عن ذاته مباينة لنفسه كما هو الحال في صفاته لتأدية هذه المغايرة إلى كونه تعالى محدوداً غير موجود في ظرف الصفة وفاقراً لا يجد الصفة في ذاته ولم يمكن أيضاً فرض المغايرة والبينونة بين صفاته الذاتيّة ،كالحياة والعلم والقدرة ، لأنّ ذلك يؤدّي إلى وجود حدود في داخل الذات لا يوجد ما في داخل حدّ في خارجه ، فيتغاير الذات والصفات ويتكثّر جميعاً ويحدّ .

وهذا كلّه ممّا اعترفت به الوثنيّة على ما بأيدينا من معارفهم .

فممّا لا يتطرّق إليه الشكّ عند المثبتين لوجود الإله سبحانه لو تفطّنوا أنّ **اللَهَ سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ فِي نَفْسِهِ ثَابِتٌ بِذَاتِهِ لَا مَوْجُودٌ بِهَذَا النَّعْتِ غَيْرُهُ** ، وأنّ ما له من صفات الكمال فهو عينه غير زائد عليه ، ولا بعض صفات كماله صفات زائدة على بعض .

فهو علم وقدرة وحياة بعينه .

فهو تعالى أحديّ الذات والصفات أي أنّه واحد في وجوده بذاته ، ليس قباله شيء إلّا موجوداً به لا مستقلّاً بالوجود ، وواحد في صفاته ، أي ليس هناك صفة له حقيقيّة إلّا أن تكون عين الذات **فَهُوَ الَّذِي يَقْهَرُ كُلَّ شَيءٍ لَا يَقْهَرُهُ شَيءٌ**.

والإشارة إلى هذا كلّه هي التي دعته أن يصف **الله** سبحانه **بالواحد القهّار** ، حيث قال : **أَمِ ٱللَهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ، أي أنّه تعالى واحد لكن لا واحد عدديّ إذا أُضيف إليه آخر صار اثنين ، بل واحد لا يمكن أن يفرض قباله ذات إلّا وهي موجودة به لا بنفسها ، ولا أن يفرض قباله صفة له إلّا وهي عينه وإلّا صارت باطلة ، كلّ ذلك لأنّه بحث غير محدود بحدّ ولا منته إلى نهاية .

وقد تمّت الحجّة على الخصم منه في هذا السؤال بما وصف الأرباب بكونهم متفرّقين وإيّاه تعالى **بالواحد القهّار** ، لأنّ كون ذاته المتعالية واحداً قهّاراً يبطل التفرقة ـ أيّ تفرقة مفروضة ـ بين الذات والصفات ، فالذات عين الصفات والصفات بعضها عين بعض ، فمن عبد الذات عبد الذات والصفات ، ومن عبد علمه فقد عبد ذاته ، وإن عبد علمه ولم يعبد ذاته فلم يعبد لا علمه ولا ذاته ، وعلى هذا القياس .

فإذا فرض تردّد العبادة بين أرباب متفرّقين وبين الله الواحد القهّار

تعالى وتقدّس تعيّنت عبادته دونهم ، إذ لا يمكن فرض أرباب متفرّقين ولا تفرقة في العبادة .

نعم ، يبقى هناك شيء وهو الذي يعتمد عليه عامّة الوثنيّة من أن الله سبحانه أجلّ وأرفع ذاتاً من أن تحيط به عقولنا أو تناله أفهامنا ، فلا يمكننا التوجّه إليه بعبادته ، ولا يسعنا التقرب منه بعبوديّته والخضوع له .

والذي يسعنا هو أن نتقرّب بالعبادة إلى بعض مخلوقاته الشريفة التي هي مؤثّرات في تدبير النظام العالميّ ، حتّى يقرّبونا منه ويشفعوا لنا عنده ، فأشار عليه السلام في الشطر الثاني من كلامه ، أعني قوله : **مَا تَعْبُدُونَ دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ** ، إلى دفعه .

وعقّب على الآية : **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** :

بدأ بخطاب صاحبيه في السجن أوّلاً ثمّ عمّم الخطاب للجميع ، لأنّ الحكم مشترك بينهما وبين غيرهما من عبدة الأوثان .

ونفى العبادة إلّا عن الأسماء ، كناية عن أنّه لا مسمّيات وراء هذه الأسماء ، فتقع العبادة في مقابل الأسماء كلفظة **إله السماء** ، **وإله الأرض** ، **وإله البحر** ، **وإله البرّ** ، **والأب** ، **والأُمّ** ، **وابن الإله** ، ونظائر ذلك .

وقد أكّد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسمّيات بقوله : **أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ** ، فإنّه في معنى الحصر ، أي لم يضع هذه الأسامي أحد غيركم ، بل أنتم وآباؤكم وضعتموها ، ثمّ أكّده ثانياً بقوله : **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ** .

والسلطان هو البرهان لتسلّطه على العقول ، أي ما أنزل الله بهذه الأسماء أو بهذه التسمية من برهان يدلّ على أنّ لها مسمّيات وراءها ، وحينئذٍ كان يثبت لها الأُلوهيّة ، أي المعبدويّة ، فصحّت عبادتكم لها .

ومن الجائز أن يكون ضمير (بها) عائداً إلى العبادة ، أي ما أنزل الله حجّة على عبادتها بأن يثبت لها شفاعة واستقلالاً في التأثير حتّى تصحّ

عبادتها والتوجّه إليها ، فإنّ الأمر إلى الله على كلّ حال . وإليه أشار بقوله بعده : **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** .

وهو أعني قوله : **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ، ممّا لا ريب فيه البتة ، إذ الحكم في أمر ما لا يستقيم إلّا ممّن يملك تمام التصرّف ، ولا مالك للتصرّف والتدبير في أُمور العالم وتربية العباد حقيقة إلّا للّه سبحانه ، فلا حكم بحقيقة المعنى إلّا له .

وهو أعني قوله : **إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ، مفيد فيما قبله وما بعده صالح لتعليلهما معاً ؛ أمّا فائدته في قوله قبل : **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ** ، فقد أظهرت آنفاً ؛ وأمّا فائدته في قوله بعد : **أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** ، فلأنّه متضمّن لجانب إثبات الحكم ،كما أنّ قوله قبل : **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ** ، متضمّن لجانب السلب .

وحكمه تعالى نافذ في الجانبين معاً ، فكأ نّه لمّا قيل : **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ** ، قيل : فماذا حكم به في أمر العبادة ؟ فقيل : **أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** ولذلك جيء بالفعل .

ومعنى الآية والله أعلم : ما تعبدون من دون الله إلّا أسماء خالية عن المسميّات لم يضعها إلّا أنتم وآباؤكم من غير أن ينزل الله سبحانه من عنده برهاناً يدلّ على أنّ لها شفاعة عند الله أو شيئاً من الاستقلال في التأثير حتّى يصحّ لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها ، أو طمعاً في خيرها أو خوفاً من شرّها .

وأما قوله : **ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ، فيشير به إلى ما ذكره من توحيد الله ونفي الشريك عنه ، **والقيّم** هو القائم بالأمر القويّ على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل والمتضعضع ، والمعنى أنّ دين التوحيد وحده هو القويّ على إدارة المجتمع وسوقه إلى منزل

السعادة ، والدين المحكم غير المتزلزل الذي فيه الرشد من غير غيّ ، والحقّيّة من غير بطلان ، ولكنّ أكثر الناس لأُنسهم بالحسّ والمحسوس وانهماكهم في زخارف الدنيا الفانية حرموا سلامة القلب واستقامة العقل ، لا يعلمون ذلك ، وإنّما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة معرضون .

أمّا أنّ التوحيد دين فيه الرشد ومطابقة الواقع فيكفي في بيانه ما أقامه عليه السلام من البرهان .

وأمّا أنّه هو القويّ على إرادة المجتمع الإنسانيّ ، فلأنّ هذا النوع إنما يسعد في مسير حياته إذا بنى سنن حياته وأحكام معاشه على مبنى حقّ مطابق للواقع فسار عليها ، لا إذا بناها على مبنى باطل خرافيّ لا يعتمد على أصل ثابت .

فقد بان من جميع ما تقدّم أنّ الآيتين جميعاً ، أعني قوله : **يَـٰصَـٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ** إلى قوله : **أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ** ، برهان واحد على توحيد العبادة .

محصله أنّ عبادة المعبود إن كانت لأُلوهيّته في نفسه ووجوب وجوده بذاته ، فالله سبحانه في وجوده واحد قهّار لا يُتصوّر له ثانٍ ولا مع تأثيره مؤثّر آخر ، فلا معنى لتعدّد الآلهة .

وإن كانت لكون آلهة غير الله شركاء له شفعاء عنده ، فلا دليل على ثبوت الشفاعة لهم من قبل الله سبحانه ، بل الدليل على خلافه ، فإنّ الله حكم من طريق العقل وبلسان أنبيائه أن لا يعبد إلّا هو .

وبذلك يظهر فساد ما أورده **البيضاويّ** في تفسيره تبعاً لـ «الكشّاف» أنّ الآيتين تتضمّنان دليلين على التوحيد ، فما في الأولى وهو قوله : **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ، دليل خطابيّ وما في الثانية ، وهو قوله : **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ** ـ إلى آخره ، برهان

تامّ .

قال البيضاويّ : وهذا من التدرّج في الدعوة والزام الحجّة بيّن لهم أوّلاً رجحان التوحيد على اتّخاذ الآلهة على طريق الخطابة ، ثم برهن على أنّ ما يسمّونها آلهة ويعبدونها لا تستحقّ الإلهيّة ، فإنّ استحقاق العبادة إمّا بالذات وإمّا بالغير ، وكلا القسمين منتفي عنهما ، ثمّ نصّ على ما هو الحقّ القويم والدين المستقيم الذي لا يقتضي العقل غيره ولا يرتضي العلم دونه ـ انتهى .

ولعلّ الذي حداه إلى ذلك ما في الآية الأُولى من لفظة **الخير** فاستظهر منه الرجحان الخطابيّ وقد فاته ما فيها من قيد **الواحد القّهار** وقد عرفت تقرير ما تتضمّنه الآيتان من البرهان وأنّ الذي ذكره من معنى الآية الثانية هو مدلول مجموع الآيتين دون الثانية فحسب .

وربّما يقرّر مدلول الآيتين برهانين على التوحيد بوجه آخر ، ملخّصه أنّ الله الواحد الذي يقهر بقدرته الأسباب المتفرّقة التي تفعل بالكون ويسوقها على تلائم آثارها المتفرّقة المتنوّعة بعضها مع بعض حتّى ينتظم منها نظام واحد غير متناقض الأطراف ،كما هو المشهود من وحدة النظام وتوافق الأسباب خير من أرباب متفرّقين تترشّح منها لتفرّقها ومضادّتها أنظمة مختلفة وتدابير متضادّة تؤدّي إلى انفصام وحدة النظام الكونيّ وفساد التدبير الواحد العموميّ .

ثمّ الآلهة المعبودة من دون الله أسماء لا دليل على وجود مسمّياتها في الخارج بتسميتكم ، لا من جانب العقل ولا من جانب النقل ، لأنّ العقل لا يدلّ إلّا على التوحيد ، والأنبياء لم يؤمروا من جهة الوحي إلّا بأن لا يُعبد إلّا الله وحده ـ انتهى .

وهذا التقرير ـ كما ترى ـ ينزل الآية الأُولى على معنى قوله تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا[1] ، ويعمّم الآية الثانية على نفي أُلوهيّة آلهة إلّا الله بذاتها ، ونفي أُلوهيّتها من جهة إذن الله في شفاعتها .

ويرد عليه :

أوّلاً : أنّ فيه تقييداً لاطلاق قوله : **القهّار** ، من غير مُقيّد ، فإنّ الله سبحانه كما يقهر الأسباب في تأثيرها ، يقهر كلّ شيء في ذاته وصفته وآثاره ، فلا ثاني له في وجوده ، ولا ثاني له في استقلاله في نفسه وفي تأثيره ، فلا يتأتّى مع وحدته القاهرة على الإطلاق أن يفرض شيء يستقلّ عنه في وجوده ، ولا أمر يستقلّ عنه في أمره .

والإله الذي يفرض دونه إمّا مستقلّ عنه في ذاته وآثار ذاته جميعاً ، وإمّا مستقلّ عنه في آثار ذاته فحسب ، وكلام الأمرين محال ،كما ظهر .

و**ثانياً** : أنّ فيه تعميماً لخصوص الآية الثانية من غير معمّم ، فإنّ الآية كما عرفت تنيط كونها آلهة بإذن الله ، وحكمه كما ظاهر قوله : **مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ـإلى آخره .

ومن الواضح أنّ هذه الأُلوهيّة المنوطة بإذنه تعالى وحكمه أُلوهيّة شفاعة لا أُلوهيّة ذاتيّة ، أي أُلوهيّة بالغير ، لا ما هو أعمّ من الأُلوهيّة بالذات وبالغير جميعاً .[2]

نعم ، فإنّ مسألة التوحيد في الوجود في وقتنا الحاضر أضحت من المسائل الشرعيّة المتقنة ، والفلسفيّة المحكمة ، والمسلّم بها بالمشاهدة القلبيّة . وتدور معظم بحوث القرآن حول هذا المحور . وقد قال الحقير يوماً لسماحة الأُستاذ العلّامة قدّس الله سرّه : يبدو أنّ أغلب آيات القرآن

١ـ صدر الآية ٢٢ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ «الميزان في تفسير القرآن» ج ١١ ، ص ١٧٧ إلى ١٨٠ .

قد ركّزت بحثها في موضوع وحدة وجود ساحة الحقّ تعالى ومسألة توحيده !

فقال : ليس أغلبها ؛ بل جميع آيات القرآن تستند على هذا الأساس ؛ إنّ قوام القرآن هو أصالة الحقّ والوجود والتوحيد وكلّ الأُمور تهتدي بهذا المبدأ .

ولكن بالطبع فإنّ تصوّر هذه الحقيقة أمر صعب ؛ وما لم نكن متبحّرين في علم التفسير والحكمة وعلم العرفان الروحيّ ، كما هو الحال مع أُستاذنا الفقيد سماحة العلّامة أرواحنا فداه ، فلن نستطيع الاهتداء إلى سرّ ذلك . وسنطوي صفحات العمر مع التخيّلات وأوهام النفس ، ونقضي أيّامنا مقطوعي العلائق مع الله الواحد القهّار ، القاهر في وحدته ، والذي أفنت أحديّته كلّ الذوات فيه ، فأضحى **أحديُّ الذات** ، ونَقبُرُ مسرّات القلب والروح والنفس الناطقة في غيابة أجداث الجهالة بيد تراب العدم .

وكانت المواضيع المهمّة **لمحيي الدين بن عربي** في كيفيّة وحدة الذات المقدّسة للحقّ تعالى شأنه على درجة من التعمّق بحيث غدا علاء الدولة السمنانيّ عاجزاً عن إدراكها ؛ وبعد أن قارنها مع حاله (أفكاره) ، وألصق به مختلف التهم كالحلول والاتحاد ، حتّى اتّهمه في النهاية بالظلم وأمره بالتوبة .

وقد أوردنا في كتاب «الروح المجرّد» في ذكرى الموحّد العظيم والعارف الكبير **الحاج السيّد هاشم الموسويّ الحدّاد** أفاض الله علينا من تربته ، نبذة مختصرة من اعتراض علاء الدولة على محيي الدين وجواب الاعتراض ،[1] ورأينا من المناسب أن ندخل هذا البحث بشيء من الإطناب :

١ـ «الروح المجرّد» ص ٣٤٥ و ٣٤٦ ، الطبعة الأُولى .

يقول جناب الفاضل **نجيب مايل الهَرَويّ** حول علاقة علاء الدولة بابن عربي :

اكتست مسألة وحدة الوجود ـ وهي من أهمّ عقائد جمهور الصوفيّة ـ بصبغة متميّزة ؛ وذلك مع ظهور ابن عربي (المتوفّى سنة ٦٣٨ هـ) في القرن السابع الهجريّ بشكل غدت معه المحور الرئيسيّ لآرائه . وقد سعى جاهداً في إرساء أُسسها ، حتّى أنّه قام بوضع مصطلحات جديدة في هذا المجال ، إلى درجة اعتبر كلامه في باب تجلّي الصانع في المصنوع رمزاً واستعارة ، ووقف الكثيرين أمامه عاجزين عن فهمه ، فعمدوا إلى التفتيش عن ثغرات في كلامه لإلصاق تهمة الحلول والاتّحاد به ، والسعي إلى تكفيره .

فكان علاء الدولة السمنانيّ أحد هؤلاء الذين وقفوا بوجه ابن عربي بشدّة وعنف ، بل وقيل إنّه كفّره شفهيّاً وتحريريّاً .[1] وقد وسّع مفهوم اصطلاح «**وحدة الشهود**» في مقابل فكرة وحدة الوجود لابن عربي وأسهب .

وجدير بالذكر أنّه بسبب ماكان لابن عربي من شغف وولع بمسألة **حبّ الله** فقد أضفى جاذبيّة على مسألة وحدة الأديان كذلك والتي كانت من المواضيع المهمّة لدى الصوفيّة قبل ذلك . وسعى إلى إماطة الستار الصوريّ عن الوحيّ ؛ وتأمّل كنهه وسبر غوره وبحث عن القاسم المشترك للمضامين الباطنيّة لجميع الأديان ، في حين ركّز **علاء الدولة** جهوده ، من

١ـ أورد ابن حجر العسقلانيّ في كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» تحقيق محمّد سيّد جاد الحقّ ، ج ١ ، ص ٢٦٦ ، برقم ٦٦٣ ، ترجمته «أي علاء الدولة» قائلاً:
وَكَانَ يَحُطُّ عَلَى ابْنِ العَرَبِيِّ وَيُكَفِّرُهُ ، وَكَانَ مَلِيحَ الشَّكْلِ حَسَنَ الخُلْقِ غَزِيرَ الفُتُوَّةِ كَثِيرَ البِرِّ . يَحْصلُ لَهُ مِنْ أَمْلَاكِهِ فِي العَامِ نَحْوُ تِسْعِينَ أَلْفاً ، فَيُنْفِقُهَا فِي القُرُبِ ... وَكَانَ أَوَّلاً قَدْ دَاخَلَ التَّتَارَ ثُمَّ رَجَعَ وَسَكَنَ تَبْرِيزَ وَبَغْدَادَ . وَمَاتَ فِي رَجَبٍ لَيْلَةَ الجُمعَةِ سَنَةَ ٧٣٦.

خلال مواهبه في السير والسلوك والمعاملات الصوفيّة ، على أن يكون مرشداً لأصحابه ومريديه في تكفير أصحاب المذاهب والفرق الأُخرى والتشنيع بهم والتنديد بآرائهم .

والواقع أنّ علاء الدولة ظلّ حتّى أواخر حياته وبسبب مقتضيات عصره ، يتعامل مع الوحي في صورته الظاهريّة ، ولا شكّ أنّ هذه الحالة كانت السبب في عدم قدرته على الوصول إلى كنه حقيقة كلام ابن عربي ؛ ممّا حدا به إلى أن يستنبط من كلام الوحدة الوجوديّة لابن عربي معنى الاتّحاد والحلول . ولهذا السبب أقدم على التنديد به ، وخصّص الفصل الرابع من كتاب «العروة» في الردّ عليه . وكان يمنع أتباعه من الخوض في كلام ابن عربي في المجالس التي كان يقيمها ، في حين أنّه :

أوّلاً : إنّ فكرة وحدة الشهود المقابلة لوحدة الوجود ، والتي سعى علاء الدولة إلى أن يُضفي عليها رونقاً وبهاءً ؛ إنّما هي في الواقع ترادف التوحيد الإلهيّ عن طريق الكشف والشهود العرفانيّينِ . ولا يمكن لهذا المعنى بحال من الأحوال أن ينافي وحدة الوجود أو يناقضها .

ثانياً : هناك فارق بين الوحدة ، والاتّحاد والحلول ،[1] في حين أنّ علاء الدولة وبدل أن يحمل كلام ابن عربي على محمل وحدة الوجود ، فقد حمله على محمل الاتّحاد والحلول في كتابه «العروة» .

ثالثاً : وكما قال جامي : لقد غفل عن حقيقة أنّ الوجود قائم على ثلاثة اعتبارات : أوّلها **الوجود بشرط الشيء** ، وهو الوجود المقيّد ، وثانيها **الوجود بشرط لا شيء** ، وهو الوجود العامّ ، وثالثها **الوجود لا بشرط**

١ـ راجع كتاب : «التصوّف في الإسلام» ص ١٧٥ ؛ و«ابن عربي ، حياته ومذهبه» ص ٢٥١ والصفحات اللاحقة، (التعليقة).

شيء ، وهو الوجود المطلق . وأنّ ما بحثه ابن عربي من **الوجود المطلق** إنّما كان ذلك على أساس الشرط الثالث ، في حين حمل علاء الدولة كلام ابن عربي على أنّه محمول على الوجود العامّ ، ولهذا بالغ في ردّ ذلك واستنكاره له .[١]

يقول الفاضل مائل الهرويّ ، بعد أن أورد شرحاً عن لسان علاء الدولة يُشيد فيه بابن عربي وآخر تظهر فيه الازدواجيّة عند علاء الدولة حول ابن عربي بوضوح : بينما كانت المناظرات والمكاتبات التي جرت بين **كمال الدين عبد الرزّاق الكاشيّ وعلاء الدولة** حول هذا الموضوع تتّسم بتهجّم علاء الدولة بشدّة على ابن عربي ، حتّى أنّه نُقل عن **الأسفراينيّ** قوله إنّ علاء الدولة اعتبر مطالعة مؤلفات ابن عربي مكروهة ومحرّمة .

ولمّا كانت رسالة عبد الرزّاق الكاشيّ وجواب علاء الدولة عليها ترتبطان مباشرة بكتاب «العروة» ؛ وهما في الواقع نقدٌ على «العروة» وعلى نقد «العروة» ، فإنّنا سنكتفي بهذا القدر من المقدِّمة وذلك بنقل الرسالتين .

وقد ذكر الهرويّ نصّ كلتا الرسالتين ، أي رسالة عبد الرزّاق وجواب علاء الدولة عليها . ولمّا كانت جميع مسائل الرسالة تدور حول مواضيع عرفانيّة وحكميّة وما تحويه من روايات ، وأنّه يمكن استنتاج الكثير من المواضيع من خلال نمط وأُسلوب تفكير علاء الدولة من خلال جوابه على الرسالة ، لذا فسيكون بعيداً عن الإنصاف أن لا نذكر النصّ الكامل للرسالة والجواب ونحرم أهل التحقيق والتدقيق والباحثين من أرباب التوحيد

١ـ راجع كتاب : «نفحات الأُنس» ص ٥٥٤ ؛ و«طرائق الحقائق» ج ١ ، ص ٣٢٤، (التعليقة).

والعرفان للواحد الأحد عزّ شأنه وتعالت عظمته من الاستفادة من ذلك :

رسالة عبد الرزّاق إلى علاء الدولة

دامت تأييدات وتوفيقات وأنوار التوحيد والتحقيق من لَدُنِ الواحد الأحد ، إلى الظاهر الأبهر والباطن الأنور مولانا الأعظم شيخ الإسلام ، حافظ أوضاع الشريعة ، وقدوة أرباب الطريقة ، مقيم سرادقات الجلال ، ومقوّم أستار الجمال ، علاء الحقّ والدين ، وغوث الإسلام والمسلمين ؛ وتعالت درجات ترقّيه في مدارج **تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَهِ** .

بعد تقديم خالص الدعاء ، أقول : إنّ هذا الفقير لم يكن ليذكر أُستاذه دون تعظيم تامّ ؛ لكنّي ، وحين مطالعتي لكتاب «العروة» فقد عثرتُ على بعض البحوث التي لم تنسجم مع عقيدتي . وبعد ذلك ، فقد كان الأمير إقبال يقول في الطريق : إنّ حضرة الشيخ علاء الدولة لا يتّفق مع محيي الدين بن عربي في طريقة معالجته لموضوع التوحيد .

فقال أحدهم : نعم ، إنّ جميع من رأيتهم وسمعتهم من المشايخ كانوا على هذا الرأي . وما وجدته في «العروة» لم يكن على هذه الطريقة . فبالغوا في حثّي على الكتابة في هذا الباب !

فقال الداعي : ربّما لا يلقى ذلك استحسانه ، بل قد يثيره .

وقد قالوا إنّه بمجرّد وصول هذا الكلام إليه فإنّه سيثير غضبه ، وقد يصل الأمر به إلى أن يشنّع بذلك ويخطّأه إلى درجة التكفير . وقد يراني بعين درويش غريب ، لم يكن لي كلام معه من قبل ! فكونوا على يقين أنّ ما كتبتُه إنّما كان نتيجة تحقيق لا نتيجة هوى نفسيّ ؛ **وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ !**[1]

١ـ ذيل الآية ٧٦ ، من السورة ١٢ : يوسف .

لا يخفى أنّ كلّ ما لا يستند إلى الكتاب والسنّة النبويّة ، لا قيمة له لدى هذه الطائفة ؛ لأنّ أفرادها يسلكون طريق المتابعة وتؤيّد هذا المعنى آيتان :

سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ .[1]

والناس على ثلاث مراتب :

الأُولى : مرتبة النفس ؛ وهذه الطائفة هم أهل الدنيا وأتباع الحواسّ ، وأصحاب الحجاب ، ومنكرو الحقّ . لأنّهم يجهلون الحقّ وصفاته ، ويقولون إنّما القرآن كلام محمّد ، وإنّ الله تعالى أمره قائلاً :

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ .[2]

ولو أنّ أحدهم آمن لفاز ؛ ونجا من الجحيم .

الثانية : مرتبة القلب ؛ وأهل هذا المقام قد تجاوزوا هذه المرتبة وأضحت عقولهم صافية ، ووصلوا إلى حيث يمكنهم الاستدلال بآيات الحقّ والتدبّر فيها باعتبارها أفعال وتصرّفات إلهيّة في مظاهر الآفاق والأنفس ، وتوصّلوا إلى معرفة صفات الحقّ وأسمائه ؛ لأنّ الأفعال ، هي آثار الصفات ، والصفات والأسماء هي مصادر الأفعال .

فهم يرون علم الحقّ وقدرته وحكمته بعين العقل الصافية من كلّ شائبة من شوائب الهوى ، ويعثرون على سمع الحقّ وبصره وكلامه في ذات

١ـ الآيتان ٥٣ و٥٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ الآية ٥٢ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

النفس الإنسانيّة وآفاق هذا العالم ويعترفون بالقرآن وحقيقته ؛ **حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ**.

وأهل هذه الطائفة هم أصحاب البرهان ، ويستحيل إيجاد خطأ في استدلالهم ؛ فقد تنوّرت عقولهم بنور القدس وباتّصالها بالواحد الأحد الذي هو محلّ تكاثر الأسماء حتّى صارت بصيرة ، وتبصّرت بتجلّيات الأسماء والصفات الإلهيّة ، وانمحت صفاتها في صفات الحقّ ؛ فما تعرفه الطائفة الأُولى تلمسه هذه الثانية . (وكلتاهما تتزكّيان بالنفس الناطقة بنور القلب) ؛ لكنّ طائفة ذوي العقول تتخلّق بالأخلاق الإلهيّة ، وأمّا طائفة ذوي البصيرة فمتحقّقة بها . وعلى هذا ، فمحال أن يصدر عنها سوء خلق ، وهي تشمل الجميع بتسامحها كلّ حسب مرتبته . **وَنَرْجُوا أَنْ نَكونَ مِنْهُمْ**.

الثالثة : مرتبة الروح ؛ وأصحاب هذا المقام قد تجاوزوا مرتبة تجلّي الصفات ، ووصلوا إلى مرتبة المشاهدة ؛ وعثروا على شهود جمع الأحديّة ، وجازوا الخفيّ كذلك ، وتحرّروا من حجب تجلّيات الأسماء والصفات وكثرة التعيّنات ، فكان حالهم في ساحة الواحد الأحد مصداقاً للآية : **أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**.

وترى هذه الطائفة في الخلق أنّه مرآة الحقّ ، أو الحقّ بأنّه مرآة الخلق . وما فوق ذلك فهو استهلاك في عين أحديّة الذات . وقال واصفاً المحجوبين على الإطلاق : **أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ**.

ومع أنّ الباقين في مقام تجلّيات الأسماء والصفات قد تخلّصوا من الشكّ باليقين ، إلّا أنّهم قاصرون عن إدراك أنّ معنى . **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ** ،[1] باقٍ على الدوام ، ويعوزهم تذكير

١ـ الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

الآية **أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ** . ولم تفز بشهود هذه الحقيقة ومعنى . **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ،[1] إلّا الطائفة الأخيرة . وأنّه تعالى عيان في **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْأَخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**[2] وهذه الطائفة ترى وجه الحقّ مشهوداً في كلّ التعيّنات ، وهم الذين ينزّهونه في وجوه الأسماء والتعيّنات وهم الذين تحقّق لديهم ، **فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ**[3] .

گر ز خورشید یوم بی نیروست

از پی ضعف خود نه از پی اوست[4]

والآن ، فقد تبيّن ممّا سبق : أنّ الحقّ تعالى منزّه عن جميع التعيّنات ، وأنّ تعيّنه يكمن في عين ذاته ، وأنّ أحديّته ليست أحديّة عدديّة ، حتّى يكون له ثانياً ؛كما قال السنائيّ رحمه الله تعالى :

احد است وشمار از او معزول

صمد است ونیاز از او مخذول

آن احد نی که عقل داند وفهم

وآن صمد نی که حسّ شناسد ووهم[5]

ذلك أنّ الحسّ والعقل والفهم والوهم كلّ أُولئك متعيّنات ، ولا يُحيط

١ـ قسم من الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٢ـ صدر الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

٣ـ صدر الآية ١١٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

٤ـ يقول : «لو صادف يوماً أن كانت الشمس ضعيفةً قليلة الحرارة ، فليس العيب في الشمس، بل من ذلك اليوم (إذ قد تكون سماؤه غائمة)».

٥ـ يقول :

هوَ الأحدُ لا يَشُوبُهُ عَدَد وهوَ الصَّمَد لا يَحتاج إلى أحَد

هوَ الأحدُ لا يُدركه العَقل ولا الفَهْم وهو الصَّمد لا يَعرفه الحِسّ ولا الوَهْم

المتعيّن بغير المتعيّن .

وَاللهُ أَكْبَرُ أَنْ يُقَيِّدَهُ الحِجَى بِتَعَيُّنٍ فَيَكونَ أَوَّلَ آخِرِ
هُوَ وَاحِدٌ لَا غَيْرُ ثَانِيَةٍ وَلَا مَوْجُودَ ثَمَّةَ فَهْوَ غَيْرُ مُكَاثِرِ
هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ هُوَ بَاطِنٌ كُلٌّ وَلَمْ يَتَكَاثَرِ

وعليه ، فمن كانت هذه مرتبته ، فإنّ الحقّ تعالى سيجرّده من مراتب التعيّنات ، ويحرّره من قيد العقول ، فيصل إلى تلك الإحاطة بالكشف والشهود ؛ وإلّا بقي في حُجُب الجلال . وجاء في كلام ساقي الكوثر **أمير المؤمنين عليّ** رضي الله تعالى عنه :

الحَقِيقَةُ كَشْفُ سُبُحَاتِ الجَلَالِ مِنْ غَيْرِ إشَارَةٍ.

ذلك أنّ بقاء الإشارة الحسّيّة أو العقليّة في وقت تجلّي الجمال المطلق معناها ظهور عين التعيّن وأن يضحى الجمال عين الجلال ، ويكون الشهود هو الاحتجاب نفسه ؛ **سُبْحَانَ مَنْ لا يَعْرِفُهُ إلَّا هُوَ وَحْدَهُ.**

والحقّ أنّ كلّ بحث ورد في «العروة» في ردّ هذا المعنى ، لم تكن دلائله مبنيّة على النهج المستقيم وطريق البرهان السليم ، ولهذا السبب فإنّ العارفين بالمعقولات لا يوافقون على ذلك .

وقد سألتُ شيخ الإسلام مولانا نظام الدين خاموش الهرويّ سلّمه الله عمّا قيل في وصف الخضر التائه ، فقال : ذلك هو خضر التركمان ، في حين كان المسكين يسأل عن خضر الترجمان .

ولمّا كنتُ قد أكملتُ في سنين شبابي الأُولى بحث الفضليّات والشرعيّات ، دون فتح باب التحقيق في تلك البحوث ، وبحث أُصول الفقه والكلام بَعدُ ، فقد اعتقدتُ أنّ بحث المعقولات وعلم الإلهيّات وما يتوقّف عليهما يقود الناس إلى المعرفة ، ويُخلّصهم من هذه الشكوك .

فقد صرفتُ على دراسة ذلك مدّة من الزمن ، ووصلتُ في استذكار

ذلك إلى درجة مُثلى ، وظهر لديّ خوف واضطراب سَلَباكلّ راحة ، وتبيّن أنّ معرفة المطلوب أرفع من مرتبة العقل ؛ ذلك أنّه بالرغم من أنّ الحكماء قد تجاوزوا مرحلة التشبيه بالصور والأجرام في تلك العلوم ، إلّا أنّهم وقعوا في التشبيه بالأرواح .

حتّى اخترتُ ملازمة المتصوّفة وأرباب الرياضة والمجاهدة ونيل توفيق الحقّ ؛ فلازمتُ في البداية «مولانا نور الدين عبد الصمد النطنزيّ» قدس الله تعالى روحه ، فاستشفّ من حديثه عين هذا المعنى في التوحيد . وكنتُ استحسن كثيراً كتابيَ «الفصوص» و«الكشف» للشيخ يوسف الهمدانيّ .

ثمّ وصلتُ بعد ذلك إلى كلام مولانا «شمس الدين الكيشيّ» لأنّني كنتُ قد سمعتُ من مولانا نور الدين أنّه كان وحيد عصره في طريق المعرفة .

وتنسب الرباعيّة التالية إليه :

هرنقش كه بر تختهٔ هستی پیداست
آن صورت آن کس است کان نقش آراست
دریای کهن چو بر زند موجی نو
موجش خوانند ودر حقیقت دریاست[1]

وكان قد بيّن هذا المعنى نفسه في التوحيد ، حيث كان يقول : لقد اكتشفت هذا المعنى بعد الأربعين . ولم يكن حينها في شيراز شخص يمكن

١ـ يقول : «إنّ أيّة صورة منقوشة على لوح الوجود إنّما هي صورة الشخص الذي رسمها، وإذا ماج البحر القديم موجاً جديداً ، فإنّهم يدعون ذلك موجاً في حين أنّ ذلك هو البحر في الواقع».

إطلاعه بهذا المعنى في التوحيد . ولم يكن الشيخ ضياء الدين أبو الحسن مطّلعاً على هذا المعنى كذلك .

ولقد كنتُ في حيرة من ذلك حتّى وقع كتاب «الفصوص» بيدي . ولمّا طالعت ما في الكتاب المذكور وجدت هذا المعنى كذلك وشكرتُ الله تعالى وحمدته لما علمتُ أنّ هذا المعنى هو ما توصّل إليه الأعلام وحصلوا عليه .

وقد لازمتُ كذلك «مولانا نور الدين الأبرقوهيّ» و«الشيخ روزبهان البقليّ» و«الشيخ ظهير الدين برغش» و«مولانا أصيل الدين» و«الشيخ ناصر الدين» و«قطب الدين» و«ضياء الدين أبو الحسن» ومجموعة أُخرى من كبار العلماء ، فكان جميعهم متّفقين على هذا المعنى ؛ ولم يكن أحد منهم يخالف الآخر في ذلك .

والآن لايمكن قبول قول من يخالف ذلك على الإطلاق . وحتّى أنّني ، وقبل وصولي إلى هذا المقام ،كنتُ متحيّراً في ذلك . ولم يمكن الحصول على مرشد يمكنه أن يكون بلسماً للقلوب حتّى بعد وفاة شيخ الإسلام مولانا وشيخنا نور الملّة والدين عبد الصمد النطنزيّ .

فاختليتُ بنفسي سبعة أشهر في صحراء قاحلة لا زرع فيها ولا عمارة أتناول من الطعام إلّا ما قلّ ؛ حتّى تمكّنتُ من الوصول إلى هذا المعنى واطمأننتُ إليه ؛ والحمد للّه على ذلك .

ومع أنّ الله سبحانه تعالى هو القائل : **فَلَا تُزَكُّوَا أَنفُسَكُمْ** ؛[1] إلّا أنّه هو القائل : **أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** .[2]

١ـ من الآية ٣٢ ، من السورة ٥٣ : النجم .

٢ـ الآية ١١ ، من السورة ٩٣ : الضحى .

وبعد ذلك وعند لقائي بالشيخ الكبير «الشيخ نور الدين عبد الرحمن الأسفراينيّ» قدّس سرّه وتحدّثي إليه، فقد أنصفني حين قال: لقد وهبني الحقّ تعالى القدرة والعلم بتفسير الأحداث وتأويل الأحلام؛ ولم أصل إلى مقام أسمى من هذا.

ولا يمكن التخلّي عن هذا المعنى الذي يحصل بالشهود لمجرّد أن تلك البحوث ليست على الطريق المعقول والنهج السويّ المستقيم.

وهذاكذلك هوكلّ ما نطق به «الشيخ عبد الله الأنصاريّ» قدّس سرّه وقد أوصل جميع المقامات في الوادي الثالث إلى التوحيد الصرف، وقد صرّح الشيخ «شهاب الدين السهروورديّ» في باب هذا الحديث في عدّة مواضع.

حيث قال في شرح كلام الإمام المحقّق **جعفر الصادق** رضي الله تعالى عنه الذي قال: **إنِّي أُكَرِّرُ آيَةً حَتَّى أَسْمَعَ مِنْ قَائِلِهَا**؛ بأنّ الإمام وجد لسانه في هذا المعنى مثل شجرة موسى التي سمع منها النداء **إنِّي أَنَا اللَهُ**؛[1] فإذاكان متعيّناً، فكيف ظهر في صورتين؟ وكيف يصدق عليه ما ورد في القرآن الكريم، **وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ**[2].

وكيف يصحّ حديث النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم **لَوْ دَلَّى أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ لَهَبَطَ عَلَى اللَهِ**[3] ومتى كان مع الجميع في هذا العالم **أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ**؟[4] وعلى هذا، يجب بحث هذا المعنى والتأمّل فيه، حيث إنّ

١ـ الآية ٩، من السورة ٢٧: النمل. **يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**.

٢ـ صدر الآية ٨٤، من السورة ٤٣: الزخرف.

٣ـ مرّ ذكر الحديث نقلاً عن سعيد الدين الفرغانيّ.

٤ـ ذيل الآية ١٦، من السورة ٥٠: ق.

وبنصّ القرآن **ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ** هو كفر بحت ؛ إذ : **لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ** .[١] وإنّ **رابعُ ثَلاثَةٍ** هو منتهى الإيمان والتوحيد [إذ] : **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**.[٢]

إذ لو كان ثالث ثلاثة لكنتَ متعيّناً بأحدهم . وأمّا رابع الثلاثة فمعناه أنّه موجود بوجوده الحقّ وبحكم : **وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ**[٣] فهو ثاني واحد ، وثالث اثنين ، ورابع ثلاثة ، وخامس أربعة ، وسادس خمسة ؛ أي أنّه محقّق حقائق هذه الأعداد ، وأنّه مع الجميع دون مقارنة ، وغير الجميع دون مزايلة .كما قال أميرُ المؤمنين عليٌّ كرّم الله وجهه .

هُوَ مَعَ كُلِّ شَيءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ وَغَيْرُ كُلِّ شَيءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ.

ولقد تبيّن لي أنا الضعيف طول مدّة صحبتي مع سيّد العالم وعزّ الأنصار ، بالرغم من مطاعن البعض أنّه عليم بحقّ ، ولهذا السبب وجدتُ في استعداده معنى : **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ**[٤] ، وتأكّد لي تماماً أنّه لا تأخذه في الحقّ لومة لائم ولا يمكن أن يثنيه حديث مخالفيه عن ذلك . وأرجو كذلك أنّك إن لم تجد هذا المعنى في قول الكبار ولم يوافقك حديثهم ، فاعلم أنّك لم تطالع هذا البيان باستمرار ، ولم تطّلع على أدلّة كثيرة على هذا المعنى ؛كما تمّ شرح ذلك في كتاب «الفصوص» وغيره .

ولكي يتسنّى للعلماء المحقّقين ، وهم أصحاب الألباب ، مذاكرتك في هذا الأمر ، فقد سعيتُ إلى تجنّب الإطناب والإسهاب ؛ **وَمَنْ لَم يُصَدِّقِ**

١ـ صدر الآية ٧٣ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ من الآية ٧ ، من السورة ٥٨ : المجادلة .

٣ـ من نفس الآية السابقة .

٤ـ من الآية ٣٥ ، من السورة ٢٤ : النور .

الجُمْلَةَ، هَانَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُصَدِّقَ التَّفْصِيلَ.

وأرجو أن يتفضّل الحقّ تعالى بمنّه على الجميع وهدايتهم إلى جماله، **وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ.**[1] **وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ وَالْمُعِينُ.**

جواب علاء الدولة على رسالة عبد الرزّاق الكاشيّ

قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ـ الآية[2] قال كبار رجال الدين والسائرين على طريق اليقين بالإجماع: إنّ المستفيد حقّاً من معرفة الحقّ هو من جعل طيب اللقمة وصدق اللهجة شعاره ودثاره؛ فلو فُقِدا، فلا سبيل إلى النجاة من هذه الطامّة وتلك الترّهات.

فأمّا ما روي من الشيخ نور الدين عبد الرحمن الأسفراينيّ قدّس الله تعالى روحه فقد تشرّفتُ بمصاحبته مدّة اثنتين وثلاثين سنة، ولم أسمعه يتحدّث بهذا المعنى إطلاقاً، بل إنّه امتنع على الدوام عن مطالعة مؤلّفات ابن عربي أو دراستها؛ لدرجة أنّه حين سمع أنّ مولانا نور الدين حكيم ومولانا بدر الدين رحمهما الله تعالى يقومان بتدريس بعض الطلبة مواضيع من كتاب «الفصوص» ذهب إلى هناك ليلاً وأخذ نسخة الكتاب منهما ومزّقها تمزيقاً ومنع تدريسها بالمرّة.

وكذلك ما جرى على لسانه المبارك وأسراره لنجله الأعظم، صاحب القِران الأعظم أيّده الله بجند التوفيق وأقرّ عين قلبه بنور التحقيق: إنّي بريء من هذه العقيدة وتلك المعارف.

١ـ ذيل الآية ٢٤، من السورة ٣٤: سبأ.

٢ـ من الآية ٩١، من السورة ٦: الأنعام.

عزيزي ! كنتُ أقوم بوضع حاشية على كتاب «الفتوحات» وذلك في أطيب أوقاتي ، فوصلتُ إلى هذا التسبيح الذي يقول : **سُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ الأَشْيَاءَ وَهُوَ عَيْنُها**.

فكتبتُ : **إنَّ اللَهَ لَا يَسْتَحْيِ عَنِ الحَقِّ**.[1] **أَيُّهَا الشَّيْخُ ! لَوْ سَمِعْتَ مِنْ أَحَدٍ أَنَّهُ يَقُولُ : فَضْلَةُ الشَّيْخِ هِيَ عَيْنُ وُجُودِ الشَّيْخِ ، فَإنَّكَ لَا تُسَامِحُهُ إلَيْهِ ! بَلْ تَغْضَبُ عَلَيْهِ ! فَكَيْفَ يَسُوغُ بِعَاقِلٍ أَنْ يَنْسِبَ إلَى اللَهِ هَذَا الهَذَيَانِ ؟!**

تُبْ إلَى اللَهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ، لِتَنْجُوَ مِنْ هَذِهِ الوَرْطَةِ الوَعِرَةِ الَّتِي يَسْتَنْكِفُ مِنْهَا الدَّهْرِيُّونَ وَالطَّبِيعِيُّونَ وَاليُونَانِيُّونَ وَالشَّكْمَانِيُّونَ. «وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ».[2]

وأمّا ما قيل من أنّ ما جاء في «العروة» ليس برهان على النهج

١ـ نصّ الآية ٥٣ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب هو : **وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ**.

٢ـ أورد القاضي نور الله الشوشتريّ في «مجالس المؤمنين» المجلس السادس، في أحوال محيي الدين بن عربي ، ص ٢٨٣ أنّه قال:

وأمّا ما قاله الشيخ علاء الدولة في آخر كتابه (لو سمعتَ من أحد أنّه يقول : فضلة الشيخ عين وجود الشيخ ، لا تسامحه إليه ! بل تغضب عليه ! فكيف يسوغ بعاقل أن ينسب إلى الله هذا الهذيان) فهو مثل في غاية الركاكة وملوّثٌ بفضلة غير الدرويش . إذ لو قال أرباب التوحيد بمعيّة الحقّ بالأشياء كمعيّة الجسم بالجسم ، للزم فساد ذلك.

وأمّا المعيّة بزعمهم فهي كمثل معيّة الوجود بالماهيّات ، والماهيّة ليست ملوّثة؛ خلافاً لمعيّة الشخص بالفضلة التي هي من قبيل معيّة الجسم للجسم ، والذي يمكنه أن يتلوّث بها. وكذلك الحديث في نفي الوجودات الممكنات التي هي آثار وجود الحقّ ، وأثر الشيء لايكون فضلته حتّى يصحّ التمثيل والتنظير في ذلك . وعلى هذا فلو قيل للشيخ علاء الدولة إنّ كتاب «العروة» هو فضلتك ، لغضب ولما تسامح إلى ذلك وما كان ليجيز ذلك.

وبالجملة ، فإنّ مثل هذه الكلمات المشوّشة لا تليق بعلوّ شأنه ، فما الذي سيكتبه أو يقوله درويش الدراوشة.

المستقيم ، فإنّ الكلام إذا كان متطابقاً فلن يضير بعد ذلك إذا كان على البرهان المنطقيّ أم لم يكن ! فإذا حصلت النفس على الاطمئنان في مسألة ما ولم يكن باستطاعة الشيطان أن يعترض على ذلك ، فقد كفانا .

وَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى المَعَارِفِ الَّتِي هِيَ تُطَابِقُ الوَاقِعَ عَقْلاً وَنَقْلاً، بِحَيْثُ لَا يُمْكِنُ لِلنَّفْسِ تَكْذِيبُهَا وَلِلشَّيْطَانِ تَشْكِيكُهَا. وَتَطْمَئِنُّ القُلُوبُ عَلَى وُجُوبِ وُجُودِ الحَقِّ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَنَزَاهَتِهِ . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِوُجُوبِ وُجُودِهِ فَهُوَ كَافِرٌ حَقِيقِيٌّ . وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِوَحْدَانِيَّتِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ حَقِيقِيٌّ. وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِنَزَاهَتِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا يَخْتَصُّ بِهِ المُمْكِنُ ، فَهُوَ ظَاهِرُ ظَالِمٍ حَقِيقِيٍّ ؛ لِأَنَّهُ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِ قُدْسِهِ.

وَالظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ . وَلِذَلِكَ لَعَنَهُمُ اللَهُ فِي مُحْكَمِ كِتابِهِ ؛ بِقَوْلِهِ : «أَلَا لَعْنَةُ ٱللَهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ».[1]

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ بِهِ الجَاهِلُونَ.

فصل بالخير : لمّا طالعتُ الرسالة للمرّة الثانية ، وقع نظري على رباعيّة للكيشيّ ، وتذكّرتُ أنّ ماكُشف في ذلك المقام وابتهج به لاطّلاعه على حقيقة ذلك ، أنّ هذا الضعيف قد وقع في هذا المقام عدّة مرّات في اليوم سابقاً ، لكنّه اجتاز ذلك المقام . أي أنّه لمّا اجتاز بداية ووسط المكاشفة ووصل إلى نهاية ذلك المقام ، فقد بان خطأه وظهر كأوضح من الشمس ، وحصل اليقين في قطب ذلك المقام أن لا مدخل ولا منفذ للشكّ في ذلك .

و قد سمعتُ أيّها العزيز أنّ أوقاتك مملوءة بالطاعة ومشغولة بها ، وأنّ العمر قد شارف على الانتهاء أفليس من المؤسف أن تبقى في بداية

١ـ ذيل الآية ١٨ ، من السورة ١١ : هود .

مقام المكاشفة وفي طريق يُغرى فيها الأطفال بالجوزة والزبيبة ليذهبوا إلى المدرسة فيجترّون علوماً هي كالخذف ويأوّلوا أكثر الآيات القرآنيّة المبيّنة ببعض آخر متشابه .

كما في تأويلهم للآية المحكمة : **قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ،[١] وأخواتها الأُخريات . ويجعلون من الآية : **مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّـهَ رَمَىٰ** ،[٢] قدوة لهم ، غير عالمين أنّ ذلك إنّما قيل من جهة تفهيم الخلق حتّى يعلموا خصوصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

كما في حالة إرسال مندوب مقرّب من قبل الملك ، قائلاً : يده يدي ولسانه لساني ، ونفس الشيء يقال في إرسال الشيخ لتابع له إلى قوم على سبيل الإرشاد ، فهو يقول في إجازته له أنّ يده يدي .

فالغرض هو أنّهم يغفلون عن آية **أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّـهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ، ويُعرضون عن الآية : **إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**[٣] وأمثال ذلك ، ويتمسّكون بالآية : **هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ**[٤] ، دون أن يعلموا أنّ المراد بها أنّه : **هُوَ الأَوَّلُ الأَزَلِيُّ لِيَنْتَهِيَ إِلَيْهِ سِلْسِلَةُ الاِحْتِيَاجِ فِي الوُجُودِ فَضْلاً عَنْ شَيءٍ آخَرَ ، وَهُوَ الآخِرُ الأَبَدِيُّ بِأَنَّهُ إِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ . وَهُوَ الظَّاهِرُ فِي آثَارِهِ الظَّاهِرَةِ بِسَبَبِ أَفْعَالِهِ الصَّادِرَةِ عَنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ لِذَاتِهِ ، وَهُوَ البَاطِنُ فِي ذَاتِهِ «لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ» ؛ وَلا يَعْرِفُ ذاتَهُ إِلَّا هُوَ .**

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : كُلُّ النَّاسِ

١ـ صدر الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ من الآية ١٧ ، من السورة ٨ : الأنفال .

٣ـ صدر الآية ٦ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٤ـ الآية ٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

فِي ذَاتِ اللَهِ حُمْقَى ؛ أَيْ فِي مَعْرِفَةِ ذاتِهِ.

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَهِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي ذَاتِ اللَهِ.

والآن نرجع إلى لبّ الموضوع . فإذا تمّ الحصول على مثل تلك المعارف كتلك التي نقرأها في رباعيّة الكيشيّ وذلك في وسط مقام المكاشفة ، وهي أنّ الحقّ يظهر لنا بصورة بحر ومتّصفاً بصفة المموّج والمُثبت والماحي ، ودوائر المخلوقات التي يكون بعضها واسعاً وبعضها الآخر ضيّقاً ، وتنعّم البعض الذي هو مظهر اللطف بقدر اتّساع الدائرة والاستقامة ، والبعض الآخر الذي يمثّل مظاهر القهر وتألّمهم من ضيق الدائرة والانحراف وبصفته مموّجاً كذلك فأنّه يعود فيجد تلك الدوائر من جديد ؛ حتّى خطوتُ في نهاية مقام المكاشفة ، فهبّت ريح حقّ اليقين ، وانتشرت براعم المعارف في بداية ووسط ذلك المقام ، وخرجت ثمرة حقّ اليقين من غلاف عين اليقين .

عزيزي ! إنّ لدّي علماً مجرّداً بالشريعة يمثّل اعتقاداً جازماً مطابقاً للواقع ، وإنّ علم اليقين متعلّق ببداية مقام المكاشفة ، وعين اليقين بوسطه ، وأمّا حقّ اليقين فبنهايته ، وإنّ حقيقة حقّ اليقين التي هي عبارة عن اليقين المجرّد ؛ لقوله تعالى : **وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ**،[1] متعلّقة بقطب درجات مقام المكاشفة ، ومن يصل إلى هذا المقام فإنّ كلّ ما يقوله مطابق للواقع من جميع الوجوه .

وقد بدا أنّ التوحيد هو آخر جميع المقامات في منازل السائرين ، وليس كذلك ؛ بل هو واقع في المقام الثمانين . وآخر المقامات هو **«العُبُودِيَّةُ» وَهُوَ عَوْدُ العَبْدِ إِلَى بَدايَةِ حالِهِ مِنْ حَيْثُ الوَلايَةِ المَفْتُوحِ**

١ـ الآية ٩٩ ، من السورة ١٥ : الحجر .

وَاوُهَا، دَائِراً مَعَ الحَقِّ فِي شُؤُونِ تَجَلِّيَاتِهِ تَمَكُّناً.

سئل الجُنيد : **مَا نِهَايَةُ هَذَا الأَمْرِ ؟! قَالَ : الرُّجُوعُ إِلَى البَدَايَةِ !**

عزيزي ! لقد تأثّرتُ كثيراً بهذه الرباعيّات في بداية ووسط مقام التوحيد خاصّة خلال الاستماع إلى الأمثال ، وبقيتُ مدّة طويلة أتأمّل معانيها وأتذوّق عباراتها ؛ والرباعيّة التالية هي إحدى تلك الرباعيّات :

این من نه منم ، اگر منی هست توئی

ور در بر من پیرهنی هست توئی

در راه غمت نه تن به من ماند نه جان

ور زانکه مرا جان وتنی هست توئی[1]

وقد قلتُ في المقام الذي كان يبدو فيه الحلول كفراً والاتّحاد توحيداً :

أَنَا مَنْ أَهْوَى ، وَمَنْ أَهْوَى أَنَا ... لَيْسَ فِي المِرْآة شَيءٌ غَيْرُنَا

قَدْ سَهَى المُنْشِدْ إذَا أُنْشِدُهُ ... نَحْنُ رُوحَانِ حَلَلْنَا بَدَنَا

أَثْبَتَ الشِّرْكَةَ شِرْكاً وَاضِحاً ... كُلُّ مَنْ فَرَّقَ فَرْقاً بَيْنَنَا

لاَ أُنَادِيهِ وَلَا أَذْكُرُهُ ... إنَّ ذِكْرِي وَنِدَائِي يَا أَنَا

إلى آخره .

وبعد ذلك وعند وصولي نهاية مقام التوحيد ، بدا أنّ ذلك خطأ محض وصرف ؛ فقلتُ : **الرُّجُوعُ إِلَى الحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي البَاطِلِ.**

١ـ يقول : «إنّي لستُ أنا ، وإن كان هناك «أنا» هو أنتَ ، وإذا كان على بدني ثوب أو رداء فهو أنت كذلك.

لقد فقدتُ ، في طريقي للوصول إليك ، جسمي وروحي ، وإذا كان قد بقي منهما شيء فهو أنت».

عزيزي ! عليك أنت أيضاً أن تقتدي بذلك وتسير على هذا النهج ! واعتبر بقول الله تعالى : **فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ**،[1] فقد فنيتُ وامّحيتُ في ذلك المثال . والسلام .[2]

نعم ، ها قد نقلنا رسالة الملّا عبد الرزّاق وكامل رسالة علاء الدولة دون حذف أو تنقيص كلمة منهما ، ووضعناهما أمام أرباب البصيرة ليعلموا ما ورد في الرسالة الأُولى ، والتي غلب عليها طابع الاحترام والأدب ، من الآيات والروايات المقبولة والشواهد الذوقيّة والعرفانيّة ، وبعد التأمّل في كلّ نقطة من نقاطها الدقيقة والعميقة ، سينجلي لنا بحراً من المعارف ؛ في حين اتّسمت الرسالة الثانية بسوء الأدب والإحساس بالفخر الكاذب والتكبّر والأنانيّة والتعصّب ، وشُحنت بمواضيع خطابيّة لا برهان فيها ولا أساس ، ملوّثة بالمغالطات والسفسطة ، معتبرة الفشل والعجز في الوصول إلى أعلى ذرى العرفان والتوحيد ، هو الميزان الوحيد للكمال والمقياس الأوحد لأساس الإنسانيّة الكامل ، حيث دعا فيها صاحبها الآخرين إلى اتّباعه والسير على نهجه ومنهاجه ولمّا يتخلّص هو من براثن الثنويّة أو يخطو خطوة نحو الخروج والتخلّص من أدرانها .

فإذا صادفنا وجوداً أصيلاً يمتلك هويّة واستقلالاً في عالم الوجود ـ مهما كان صغيراً وضعيفاً ـ فقد حدّدنا الله بنفس ذلك المقدار وجعلناه متعيّناً ؛ أي بمعنى أنّنا قد أوجدنا للّه شريكاً بنفس ذلك المقدار الصغير .

١ـ صدر الآية ٧٤ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ «العُروة لأهل الخَلوة والجَلوة» تأليف أحمد بن محمّد بن أحمد البيابانكيّ ، المعروف بعلاء الدولة السمنانيّ ، ص ٣٥ إلى ٤٥ ، مقدّمة السيّد نجيب مايل الهرويّ المحترم، منشورات مولى.

إنّ جلّ اختلافنا عن النصارى وتميّزنا عنهم في التثليث يكمن في : أنّهم يؤمنون بثلاث مبادئ أساسيّة (الذات والروح والعلم ، أو الأب والروح القدس والابن) ويعتبرونها أقانيم وأُصول قديمة لنشوء عالم الخلقة ، في حين نؤمن نحن بوجود ذات واحدة أصيلة وقديمة ومجرّدة لا غير ، وأنّ جميع صفات الله وأسمائه الحسنى مندكّة وفانية فيه . وأنّ جميع الأرواح والعوالم المجرّدة بدءاً من الروح القدس وانتهاءً بالملائكة المقرّبين وأرواح الأنبياء والأئمّة عليهم الصلاة والسلام وأرواح الأولياء العظام ، مروراً بكلّ ذرّة من ذرّات العالم المؤثّرة في عالم الملك والملكوت ، كلّها جميعاً فانية ومندكّة في ذات الواحد الأحد ، وأنّ وجودها جميعاً إنّما هو وجود ظلّيّ وآيتيّ ومجازيّ وغير أصيل .

فلو اعتبرنا أنّ لأرواح الأئمّة والأنبياء أصالة ، فحينئذٍ سنكون مشركين كما أشرك غيرنا ، كما أنّهم إذا اعتبروا تلك اعتبروا الأُصول الثلاثة حقيقة واحدة متجلّية من خلال المظاهر الثلاثة تلك فإنّهم بذلك سيكونون موحّدين ، ولكنّهم يأبون القبول بهذا المعنى أو القول به ، ويصرّون على مبدأ الأُصول الثلاثة القديمة . إلّا أنّنا طالعنا رأي سماحة الأُستاذ العلّامة مؤخّراً في تفسيره لآيات من سورة المائدة ، وذلك حين قال : كانت بعض طوائف النصارى ومنها النجاشيّ ملك الحبشة على هذا الاعتقاد .

ويمكن اعتبار كلام السيّد أحمد هاتف صاحب الترجيعة المعروفة عاملاً في رفع الستار عن هذه القضية ؛ حيث يقول :

از تو ای دوست نگسلم پیوند

ور به تیغم بُرند بند از بند[1]

١ـ يقول : «لن أقطع صلتي بك يا صاح وإن قطّعوني بالسيف إرباً إرباً».

الحـقّ ارزان بـود ز مـا صـد جـان
وز دهـان تـو نـيم شكـر خـند
ای پـدر پـند كـم ده از عشـقم
كه نخواهد شـد اهـل ، ايـن فـرزند
مـن ره كـوی عـافيت دانـم
چكـنم كـو فـتاده‌ام بـه كـمند
پـندِ آنـان دهـند خـلق ای كـاش
كـه ز عشـق تـو مـيدهندم پـند
در كـليسا بـه دلبـر تـرسا
گـفتم : ای دل بـه دام تـو در بـند
ای كـه دارد بـه تـار گـيسويت
هـر سـر مـوی مـن جـدا پـيوند
ره بـه وحـدت نـيافتن تـا كـی؟
نـنگ تـثليث بـر يكـی تـا چـند ؟
نـام حـقِّ يگـانه چـون شـايد
كه اب و ابـن و روح قُـدْس نـهند[1]

١ـ يقول : «والحقّ أنّ تضحيتنا لك بمائة روح لم تكن شيئاً مذكوراً مقابل ابتسامة مرسومة على شفتيك.
يا أبي إعطني ولو جرعة حبّ قليلة ، فولدك سيبقى عاقاً دون ذلك.
لقد كنت أعرف سبيل العافية ، ولكن ما العمل فقد سقطتُ في حبائله.
فياليت الخَلقَ يناصحونني في عشقك وحبّك.
وقد تحدّثتُ في الكنيسة إلى معشوق مسيحيّ : أنّني واقع في شباكك وحبائلك.
يا مَن عاهدت كلّ شعرة في رأسي خصلة شعرك.
إلى متى أمنَعُ من الوصول إلى الوحدة ؟ وإلى متى يبقى عار تثليث الواحد؟ ⇦

لب شيرين گشود و با من گفت
وز شكر خنده ريخت آب از قند
كه گر از سرّ وحدت آگاهی
تهمت كافری به ما مپسند
در سه آئينه شاهد ازلی
پرتو از روی تابناک افكند
سه نگردد بريشم ار او را
پرنيان خوانی و حرير و پرند
ما در اين گفتگو كه از يک سو
شد ز ناقوس اين ترانه بلند
كه يكی هست وهيچ نيست جز او
وَحْدَهُ لا إلَهَ إلّا هُو[1]

أي أنّ السبب في كفر النصارى وشركهم هو : أنّهم ينظرون إلى ربّ الأرباب بعين حولاء ؛ لهذا فإنّهم يرون ثلاثة . وأمّا إذا نظروا إليها بعين سليمة فعندها لن يروا أكثر من واحد .

وما أروع وأوضح وأدلّ معنى وبياناً ما قاله **الحسين بن منصور**

⇦ ولربّما قد يكمن الأب والابن والروح القدس في اسم الواحد الحقّ».

١ـ يقول : «ففتح ثغره البسّام وأغدق عَلَيَّ من سُكّر ضحكته وماء زُلاله وقال:
إذا كنتَ ممّن اهتدى إلى سرّ الوحدة فلا تتّهمنا بالكفر.
فإنّ نور الشاهد الأزليّ يشعّ ضياء طلعته في ثلاث مرايا.
ولن يكوّن الثلاثة حريراً إذا ما سمّيّته قزّاً أو خزّاً أو دِمْقساً.
ولقد كنّا في حديثنا حين تعالى من جانبٍ صوت الناقوس مترنّماً يقول:
ليس من أحدٌ سواه، وحده لا إله إلّا هو».

الحلّاج في كشف هذه الحقيقة :

أَنَـا أَنَـا أَنْـتَ أَمْ هَـذَا إِلَـهَـيْـنِ ؟!
حَاشَـايَ حَاشَـايَ مِـنْ إِثْبَاتِ اثْنَيْنِ
هُـوِيَّـتِـي لَـكَ فِـي لَائِـيَّـتِـي أَبَـداً
كُلٌّ عَلَـى الكُـلِّ تَلْبِـيـسٌ بِـوَجْهَيْنِ
فَأَيْنَ ذَاتُـكَ عَنِّي حَيْـثُ كُنْتُ أَرَى
فَقَدْ تَـبَـيَّـنَ ذَاتِـي حَـيْـثُ لَا أَيْنِي
وَنُـورُ وَجْهِـكَ مَعْـقُـودٌ بِنَاصِـيَتِـي
فِي نَاظِـرِ القَلْبِ أَوْ فِي نَاظِـرِ العَيْنِ
بَيْـنِـي وَبَـيْـنَـكَ إِنِّيٌّ يُـنَـازِعُـنِـي
فَارْفَـعْ بِلُطْـفِـكَ إِنِّيّ مِـنَ البَـيْـنِ[1]

١ـ نقلاً عن كيوان السميعيّ في مقدّمة تعليقة كتاب «شرح گلشن راز» ص ٦٥.

وقام جناب الدكتور السيّد يحيى اليثربيّ أُستاذ الفلسفة في جامعة تبريز في كتابه القيّم «فلسفهٔ عرفان» (=فلسفة العرفان) تحليل لأصول العرفان ومبانيه ومسائله ؛ الطبعة الثانية لمركز منشورات مكتب الإعلام الإسلاميّ في قم ، بتقديم بحث كامل تحت عنوان «الفناء والبقاء في الله».

ولمّا كانت الصفحات من ٤٤٥ إلى ٤٨٠ تعالج المقابلات والمباحثات التي أجراها الحقير مع أُستاذنا الكبير الفقيد ، علّامة عصره وحكيم زمانه والعالم بالله وبأمر الله والعارف الكامل، جامع المعقول والمنقول آية عظماء الله : العلّامة **الحاجّ السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ التبريزيّ** أرواحنا لتراب مرقده الفداء فرأيتُ ، ولمزيد من التوضيح ورفع الشبهات المتوهّمة حول نظريّة الحقير ، أن أنقل هنا بعض ما يلزم من مواضيع ذلك البحث. بحول الله وقوّته ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

وقد كانت المقابلات التي وردت في القسم الثاني من كتاب «الشمس الساطعة» تدور حول بحثي مع سماحته في بقاء العين الثابتة في مرحلة الفناء التامّ في ذات الله تبارك ⇦

.....

⇦ وتعالى وعدم بقائها.

وكان سماحة العلّامة يصرّ على قوله في بقاء العين الثابتة في حين كان الحقير يقول بعدم ذلك، كما ذكر المؤلّف المحترم في ص ٤٤٥ حتّى ٤٤٧ وقد رفض نظريّتي في خاتمة البحث في ص ٤٧٩ و ٤٨٠ . وقد ذكر (المؤلّف) في الصفحات السابقة عند شرحه لمعنى الفناء وأقسامه و تفصيله أُموراً وبيّنها ، ومنها ما ورد في ص ٤٥٧ و ٤٥٨ إثبات عدم إمكانيّة فناء الحقيقة، حيث ذكر كلاماً للجاميّ وهو:

يمكن الحصول على حلّ لهذه المشكلة في البيان الواضح الذي ذكره الجاميّ فيما يخصّ الفناء. وقد نقلنا فيما سبق بيانه بالتفصيل ، وها هنا نذكر جزءاً من ذلك لبحثه بدقّة وهو قوله:

وأمّاً الفناء والبقاء فلهما معنى آخر لدى هذه الطائفة : فهم لا يقصدون بالبقاء بقاء ذات شي معيّن، بل يعنون بقاء صفات ذلك الشيء وكما يقصدون بالفناء فناء صفاته لافناء ذاته. بمعنى أنّ المراد من كلّ شيء ليس العين (الثابتة) لذلك الشيء ، لكنّ المراد من ذلك هو أنّه طالما كان هذا المعنى موجوداً في ذلك الشيء ، فإنّه يُكسب الشيء معنى «البقاء»؛ وذلك لحصول المقصود من ذلك الشيء . وأمّا إذا أُزيح ذلك المعنى عن ذلك الشيء فحينئذٍ يسمّى الشيء بـ«الفاني» وذلك لفوات المقصود منه وفقدانه . وهذا ظاهر في التعارف، حيث يقول من يهرم ويضعف: أنا لستُ ذلك الذي كنتُ . فالرجل هو هو لكنّه صفاته تغيّرت؛ كذا في «شرح التعرّف».

ففناء الممكن في الواجب إنّما يكون باضمحلال آثار الإمكان واندراسها ، لا بل بانعدام حقيقته؛ كمثل اضمحلال الأنوار المحسوسة في نور الشمس.

چراغ آنجا كه خورشيد منير است ميان بود ونابودى اسير است»

يقول : «إنّ المصباح المُضاء حيث الشمس المنيرة موجودة ، أسير بين الوجود والعدم».

ويضيف بعد ذلك قائلاً : إنّ اضمحلال آثار الإمكان في لطيفة أنانيّة العارف، إنّما يكون في ذكائه وإدراكه، لا في جسمه وروحه البشريّة . («نقد النصوص في شرح نقش الفصوص» الطبعة الجديدة، التعليقة).

وهذا الاضمحلال لآثار الإمكان وفناء الصفات البشريّة سيكون بمعنى أنّ العارف ⇦

.....

⇦ سيكون بعيداً عنها نوعاً ما ؛ كمثل بُعد الشيخ عن الشابّ . وهذا في الحقيقة حركة وتحوّل، وبعبارة أُخرى: ولادة جديدة أُزيلت عنها بعض الصفات واحتلّت صفات أُخرى مكانها. وقد هجر العارف الصفات البشريّة وخواصّها ولوازمها المعروفة ، وحصل على صفات وخواصّ وآثار أُخرى والتي ليست من نوع صفاتها السابقة وحينئذٍ ستتّخذ لها تعبيراً آخر من مثل: الصفات الإلهيّة والتخلّق بأخلاق الله.

أقول : إنّ التوحيد الذاتيّ بخلاف التوحيد الصفاتيّ هو محلّ البحث والنزاع، وكلام الجاميّ هذا يرجع كلّه إلى التوحيد الصفاتيّ وهو خارج عن بحثنا.

ويعني الفناء الذاتيّ فناء زيد مثلاً في ذات الله عزّ وجلّ . ويعني الفناء التامّ لزيد: أنّ زيداً قد اجتاز كلّ الرسوم ولم يبق له أيّ اسم أو رسم . هذا هو معنى الفناء التامّ ؛ ومعنى ذات الله جلّ جلاله أنّ الوجود البحت أزليّ أبديّ سرمديّ لامتناهٍ ، حيث يكون منزّهاً عن كلّ صفة واسم، وخالصاً من كلّ شائبة.

ففي هذه الحالة ، إذا قلنا : إنّ العين الثابتة تظلّ باقية في زيد ، لزم وقوع أحد المحالين: إمّا أنّنا لم نفرض الفناء على أنّه فناء تامّاً وكاملاً ، وأحللنا قدراً من وجود إنّيّة زيد التي تميّزه عن غيره فيه. وهذا خلف ؛ لأنّ هذا لا يعني فناء تامّاً . وزيد هذا مع معيّة عينه الثابتة لا يمكنه ولوج الذات؛ لأنّ الذات بسيطة من جميع الجهات وولوجه إلى الذات يستلزم كسر الذات ومحدوديّتها وتركيبها وحدوثها؛ وهذا محال.

وبناء على ذلك ، فلا الذات مستعدّة للتخلّي عن بساطتها ، ولا زيد ـبما أنّه زيدـ يمكنه ولوج الذات. فالعين الثابتة هي عبارة أُخرى لأنانيّة زيد وماهيّته وتميّزه. فكيف يحقّ له ولوج الذات، والحال أنّها بسيطة من جميع الجهات؟!

ولذلك ، إمّا أن ننكر الوصول إلى مقام الفناء الذاتيّ بالمرّة، وإمّا أن نضيف إليها الفناء الذي هو حقيقة العدم والاندكاك ونرفق معها العين الثابتة.

إنّ الالتزام بالعين الثابتة في الذات ، تستلزم محدوديّة الذات وتعيّنها وتركيبها، أو عدم فرض الفناء فناء منذ البداية ، أو عدم صبغها بصبغة العدم التامّ والكامل ؛ أي الفناء في الصفات. فنحن نقول : إنّ التعيّن يعني زيداً ، وإنّ الإطلاق يعني الذات.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار وحدة الوجود الحقّة والحقيقيّة والالتزام بوحدة الصرافة الذي يعني انسجامه مع القول بتشخّص الوجود ، فإنّه لا يسعنا إلّا أن نقول إنّه لا يمكن أن ⇦

.....

⇦ تكون هناك ذات واحدة بحتة وبسيطة ولا متناهية محدودة في وجود زيد ؛ وإلّا لسقط من الوحدة والتشخّص وصبغة التناهي والتركيب ، وبالتالي فإنّه سيتلبّس بلباس الحدوث؛ وهذا خلاف البرهان.

فإذا نظرتم إلى هذه الذات البسيطة ، التي تمثّل الوجود وتمتلك تجرّداً وبساطة، بعين البساطة تلك، فإنّ ذلك سيعني الله ، والذات ، والقديم ،إلى آخر أسمائه الحسنى؛ وأمّا إذا نظرتم بعين التعيّن المحدود والمقيّد ، فسيعني هذا زيداً وحادثاً ومركّباً.

وعلى هذا ، فالأمر هنا يتعلّق بمسألتين . فزيدٌ إذاً يعني التعيّن ، أي العين الثابتة. وإذا أزلتم التعيّن وقلتم: الفناء من التعيّن ، فهذا يعني الذات وحسب . وفناء زيد يرجع إلى إسقاط التعيّن. موجود بلا تعيّن ، بحت وبسيط ، واللامتناهي ، هو الذات ، وهو الله.

فزيد لن يكون زيداً بدون تعيّن ؛ لأنّ تعيّنه يكمن في زيديّته هو . فإذا فني وخلع عنه لباس التعيّن وسُلب من جميع مراتب التعيّن ، وهو ما يعني الفناء التامّ والمطلق، فلن يكون بعد ذلك هو نفسه . لن يكون زيداً ، بل عدماً . لا وجود لزيد والله موجود.

إنّ معنى فناء زيد ، هو عدمه ووجود الله . لقد فني زيد في الله ؛ أي أنّ زيداً أضحى معدوماً بينما الله موجود.

ولا يصحّ الاستشهاد بالبيت التالي لتمثيل الفناء الذاتيّ وبقاء العين الثابتة:

چراغ آنجا كه خورشيد منير است ميان بود و نابودى اسير است»

فهذا التشبيه مختلف . لأنّ نور المصباح هو غير نور الشمس . وحقيقة هذا الأسر بين الوجود والعدم متحقّق على أيّة حال ؛ إلّا أنّ الموجودات المتعيّنة للممكنات بأسرها هي غيرالوجود البحت والمجرّد والبسيط ، والشمس ليست الذات الأزليّة الأبديّة للّه.

واستناداً إلى أصالة الوجود ووحدته وتشخّصه ، فإنّه لايوجد هناك إلّا وجود واحد قديم وحسب وهو وجود مستقلّ ذو أثر . إنّ الموجودات الممكنة هي موجودات ظلاليّة وتبعيّة ومرآتيّة وآيتيّة ومجازيّة وغير مستقلّة وتعيّنيّة . وعلى هذا ، فهي لاتمتلك نوراً، مع كثرتها ومجموعها. إنّه نور الله الذي تجلّى فيها بهذا المقدار . ولا يمكن للموجودات أن تكون إلّا مرايا ومجالات ومظاهر.

إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ. (صدر الآية ٢٣ ، من السورة ٥٣: النجم). ⇦

ولقد نشب الخلاف حول هذه المسألة بين آيتين من آيات الله ، وفقيهين من فقهاء بحر العلم ، هما مَرجِعا الحكمة والعرفان ، آية الله على الإطلاق ونور الله في ظلمات الأرض : **الآقا السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ** أفاض الله علينا من بركات تربته ، والمحقّق الكبير والمدقّق القدير ، فيلسوف زمانه وحكيمه بلا شبهة ولا ظنّ : **الآقا الحاجّ الشيخ محمّد حسين الكمبانيّ الإصفهانيّ النجفيّ** رضوان الله تعالى عليه .

فكان السيّد يقول : إنّ الوجود يمتلك تشخّصاً ووحدة ، وإنّ ذات

⇦ نعم ، ولعلّ من الأفضل الاستشهاد في هذا المقام بشعر الشيخ العراقيّ :

آفتابی در هزاران آبگینه تافته

پس به رنگ هر یکی تابی عیان انداخته

جمله یک نور است لیکن رنگهای مختلف

اختلافی در میانِ این و آن انداخته

يقول : «إنّ الشمس تشعّ في آلاف المرايا وكلّ مرآة تعكس شعاع الشمس بشكل ولون خاصّ بها.

فالكلّ ينبع من نور وشعاع واحد إلّا أنّ كلّ واحد من تلك الإ شعاعات له لونه وشكله الخاصّ».

وهو ما تسبّب في نشوء تلك الاختلافات . («اللمعات» للعراقيّ ، ص ٣٨٩، اللمعة ١٥).

إذا أردنا أن نمثّل ذلك تمثلاً صحيحاً وقويماً ، افترضوا : نصب محطّات أو مراكز في مناطق مختلفة من العالم لعكس أشعة الشمس ، وإظهارها في مصابيح مختلفة في المناطق التي غربت عنها الشمس . فإذا أشرقت الشمس عند الأُفق ، فعندها لن يكون لتلك المحطّات أو المراكز أيّ أثر . إنّ مثل نور هذه المصابيح كمثل سائر الأنوار المنبعثة من الشمس نحو الأرض، فهو لا يمتلك في نفسه تشخّصاً ولا وجوداً ، فهو ليس إلّا ذلك الشعاع الوحدانيّ للشمس. ولذا، فإنّ هذه المصابيح ليست أسيرة بين الوجود والعدم ؛ بل إنّها في هذه الحالة تمثّل عدماً صرفاً.

الحقّ الأزليّة والأبديّة واللامتناهية لا تقبل التعيّن . وإنّ جميع العوالم معدومة وفانية في وجوده وإنّ وجودها ليس إلّا وجوداً غير اعتباريّ ومجازيّ وانتسابيّ .

وأمّا الشيخ فيقول : إنّ الوجود لا يمتلك تشخّصاً ووحدة وإنّ التشكيك يكتنف مراتب الوجود . وليس هناك فناء محض للموجودات . وإنّ تعيّن الأشياء ومحدوديّتها لا يتنافى مع الوجود المطلق للحقّ تعالى . وبالتالي فإنّ جميع الموجودات تمتلك أصالة ؛ وهذه الأصالة ضعيفة في حدودها وإنّيّاتها ، خلافاً للحقّ تعالى الذي له حدّ أكبر وتعيّن أوسع ، بحيث يشملان جميع الموجودات ؛ لكنّهما تتوقّفان عندها ، ولن يحصل هناك ما يسمّى بالتوحيد أو (الوحدة) ؛ والحقّ أنّ فناء الأشياء في ذاته المقدّسة ، بكلّ معنى الكلمة ، ليس إلّا مجرّد وظنّ لا حقيقة لهما .

إنّ العلّة في عدم قبول الشيخ مسألة وحدة ذاته المقدّسة ، ومعيّته مع الموجودات ، وسيطرته على جميع العوالم والأشياء وإحاطته الوجوديّة بها ، وانمحائها جميعاً واندكاكها ذاتاً وصفة وفعلاً في ذاته ؛ تكمن في اعتبار نفسه موجوداً ، أي «ذو وجود» في مقابل الحقّ تعالى ، والذي وصف المرحوم السيّد ذلك بعبارة الـ **جَبَلانيّة** .

والعلّة الأُخرى ، في لزوم الإحاطة الوجوديّة للحقّ على العيوب والمضارّ والمفاسد والقبائح ، والذي وصف المرحوم السيّد ذلك بعبارة لزوم المفاسد الشنيعة .

إلّا أنّ ذلك الوجود ليس إلّا جَبَلاً وجوديّاً خياليّاً ؛ وسيزول إن عاجلاً أم آجلاً ، شئنا أم أبينا . وهذا اللزوم ليس صحيحاً كذلك ، لأنّ الحقائق الوجوديّة للموجودات والأشياء لها اندكاك في ذات الحقّ ، لا معائب أو قبائح أو مفاسد . إنّ مصدر هذه الأُمور ، عند التحليل ، أُمور عدمية . وإنّ

النقائص والماهيّات الباطلة هي أُمور عدميّة كذلك ؛ فأنّى لها الدخول إلى ذاته المقدّسة !؟

ولهذا فإنّ أُولئك الذين يحتجّون على وحدة الوجود ويعترضون عليه لم يعقلوا معناه مطلقاً .

إنّ لوحدة الوجود والتوحيد اللذان هما أساس الشرائع الإلهيّة ، وبالأخصّ الدين الإسلاميّ الحنيف ، معنى واحداً ، فالوحدة مصدر لازم ومجرّد ، والتوحيد مصدر متعدّي ومزيد .

فمعنى **اللَهُ أَكْبَرُ** ، و**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ** هو نفس هذه الحقيقة العظيمة .

فهؤلاء يقولون : إنّ وحدة الوجود تعني أنّ كلّ شيء هو الله ؛ أي **وَالعِيَاذُ بِاللَهِ** فـالكلب هو الله ، والكافر هو الله ، والزاني هو الله ! فأين معنى الوحدة هنا ؟! في أيّ كتاب قرأتم هذا ؟ أم من أيّ مؤمن عارف سمعتم هذا ؟!

إنّ الذين ينادون : لا سبيل لجميع الأشياء المحدودة وكلّ الممكنات بحدودها وماهيّاتها إلى الذات الواجب ؛ فكيف للكلب والكافر والزاني أن يجدوا السبيل إلى ذلك !؟

إنّ أرباب الشهود وكشف التوحيد يقولون : لا يوجد في عالم الوجود غير الله ؛ أي أنّ لوجوده من السيطرة والإحاطة ـ سبب الوحدة الحقّة الحقيقيّة والصرفة التي يتميّز بها ـ ما يحول دون استطاعة أيّ موجود من استعراض نفسه أمامه وفي مقابل ذاته ؛ بما في ذلك الأرواح الملكوتيّة والمجرّدات العلويّة .

إنّ وجود الحقّ سبحانه جعل جميع الأشياء مندكّة ومضمحلّة وفانية . فأنّى للحدود والتعيّن ـ وهما من مستلزمات شيئيّة الأشياء هناك ـ أن تحوز على الوجود والتحقّق ؟!

أُولئك يقولون : إنّ وجود الأرواح القدسيّة ، ونفوس الأنبياء العظام مندكّة في ذات الحقّ وفانية فيها . ولمّا كان متعذّراً وجود جبرائيل وإسرافيل في ذات الحقّ فأنّى لنا شهادة الكلب والخنزير والجرثومة والقاذورات فيها ؟ وأُولئك يقولون : إنّ جميع الموجودات لا وجود لها في مقابل ذاته تعالى ، إنّها جميعاً تمثّل التعيّن والماهيّة والحدود ؛ وإنّ الأصل في وجود الموجودات هو ارتباطها بذات الحقّ المُعبّر عنها بـ **الصمديّة والمصدريّة والقيُّوميّة ، والمنشئيّة** .

لو دقّقنا في هذا المعنى وتحقّقنا من هذا المفهوم لوجدنا أنّه يمثّل مفاد كلمتي التكبير والتهليل هاتين واللتين نكثر من ترديدهما في صلواتنا اليوميّة الواجبة كلّ يوم ، واللتين نؤمن بما تحويانه من معانٍ وما تنطويان عليه من مفاهيم .

فأمّا المساكين فهم قاصرون عن فهم ذلك ويستقون معنى الوحدة من نفس الحلول والاتّحاد ؛ والذي يكون منشأه الكثرة والثنويّة .

في حين يخشون التفوّه بهذه العقيدة السامية التي تمثّل روح الإسلام ، بينما يكرّرون هذا المعنى مراراً في الليل والنهار أثناء الصلاة ، وتتردّد هذه العبارات على ألسنتهم وفي أذهانهم . وهذا الأمر ناتج عن تدنّي المستوى العامّ للمعارف الإسلاميّة ، والاكتفاء بالعلوم المصطلحة والمقرّرة الحاليّة ، والابتعاد عن مناهل الحقائق .

كان سماحة أُستاذنا الأكرم آية الله الجليل : **العلّامة الطباطبائيّ** قدّس الله سرّه يقول : يعتقد عوامّ الناس أنّ المؤمن بالوحدة الوجوديّة هو أسوأ من الكافر ؛ لَأن تكون يهوديّاً أو مسيحيّاً خيراً من أن تكون ممّن يؤمنون بوحدة الوجود ! [١]

١ـ «التوحيد العلميّ والعينيّ» في الرسائل الحكميّة والعرفانيّة ، تصنيف الحقير، ⇦

قال سماحة العلّامة أُستاذنا الأكرم الطباطبائيّ رضوان الله عليه : في الرسائل والمباحثات التي جرت بين العالمين الكبيرين الآقا الحاجّ السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ والآقا الحاجّ الشيخ محمّد حسين الكمبانيّ الإصفهانيّ رضوان الله عليهما حول قضية التشكيك في الوجود ووحدة الوجود ، والتي انتهت بعدم اقتناع المرحوم الحاجّ الشيخ بالمواضيع العرفانيّة التوحيديّة للآقا الحاجّ السيّد أحمد ، قام أحد طلّاب المرحوم القاضي ويدعى «الآقا السيّد حسن الكشميريّ» وهو من معاصري آية الله الآقا الحاجّ الشيخ علي محمّد البروجرديّ والآقا السيّد حسن المسقطيّ وزميل تلك المجموعة من تلاميذ المرحوم القاضي ، بفتح باب الحديث والبحث والمكالمة مع المرحوم الحاجّ الشيخ ، وذلك بعد وفاة المرحوم الآقا السيّد أحمد ، وقد تابع البحث معه على أساس من استدلالات وبراهين المرحوم حتّى ألزمه الحجّة فاقتنع .[1]

وشاهدنا على عدول المرحوم الكمبانيّ عن عقيدة الفلاسفة القائلة بالتشكيك في الوجود إلى عقيدة العرفاء المصرّحة بوحدة الوجود ، هو أشعاره في كتاب الحكمة الذي ألّفه تحت عنوان «تحفة الحكيم» فيما يخصّ الاتّحاد والهويّة ، هو أدلّ شاهد على ما نقول ؛ حيث قال :

صَيْرُورَةُ الذَّاتَيْنِ ذَاتَاً وَاحِدَهْ خُلْفٌ مُحَالٌ وَالعُقُولُ شَاهِدَهْ
وَلَيْسَ الاتِّصَالُ بِالمُفَارِقِ مِنَ المُحَالِ بَلْ بِمَعْنَى اللَّائِقِ
كَذَلِكَ الفَنَاءُ فِي المَبْدَإِ لَا يُعْنَى بِهِ المُحَالُ عِنْدَ العُقَلَا
إِذِ المُحَالُ وَحْدَةُ الاثْنَيْنِ لاَ رَفْعُ إِنِّيَّتِهِ فِي البَيْنِ

⇦ ص ٣٢٦ إلى ٣٢٩ من الطبعة الفارسيّة.

١ـ «التوحيد العلميّ والعينيّ» ص ٣٢٤ و ٣٢٥ من الطبعة الفارسيّة.

وَالصِّـدْقُ فِي مَرْحَلَـةِ الدَّلَالَـهْ فِي المَزْجِ وَالوَصْلِ وَالاسْتِحَالَهْ
فَالحَمْـلُ إذْ كَانَ بِمَعْنَـى هُوَ هُو ذُو وَحْـدَةٍ وَكَـثْـرَةٍ فَانْـتَـبِهُـوا[1]

وتدلّ هذه الأبيات المذكورة دلالة لا ريب فيها على دعوة الآقا السيّد أحمد ؛ ولكنّ أصرح ما فيها ، البيت الرابع منها والذي ذُكر كشاهد على البيت الثالث ـ الذي يُشير إلى إمكانيّة الفناء في الله ـ وهو عين ما يقول به أهل العرفان واليقين ؛ ولا يقول المرحوم الحاجّ السيّد أحمد الكربلائيّ كذلك غير هذا . رحمة الله عليهما رحمة واسعة شاملة .[2]

١ـ «تحفة الحكيم» ص ٤٠ و٤١ ، من منشورات مطبعة النجف ، مع مقدّمة للعالم القدير آية الله الشيخ محمد رضا المظفّر رحمه الله تعالى.

طلب العالم المعظّم الفاضل النحرير والمحقّق المدقّق القدير، الأخ العزيز والصديق القديم والحميم: سماحة الآقا الحاج السيّد عزيز الله الطباطبائي اليزدي مدّ ظلّه العالي ، ذات يوم من الحقير أن أقوم بكتابة شرح عن تحفة المرحوم الحاجّ الشيخ أعلى الله مقامه. فأجبتُ ؛ أنّه مضافاً إلى عدم لياقة واستعدادي لهذا الأمر الخطير وفعليّتي له: لأنّني منهمك في الوقت الحاضر بتأليف سلسلة «معرفة الله» و«معرفة الإمام» و«معرفة المعاد» وأنّ كلّاً منها تشمل عدّة أجزاء، وقد استحوذت على وقتي بالكامل، وحتى أنّني في بعض الأحايين أواصل الليل بالنهار؛ فإنّ الشروع بتأليف كتاب مستقلّ وخصوصاً بهذا المستوى من المواضيع العميقة والأسرار الفلسفية والحكمية للمرحوم الشيخ قد يتسبّب في توقّف تلك التآليف.

لذا نوصي الطلاب الكرام والدارسين في الحوزات العلميّة ذوي العزّة والاحترام بحفظ تلك الأبيات كما هي عن ظهر قلب كوثيقة معتبرة شأنها شأن أبيات «نصاب الصبيان» و«ألفيّة ابن مالك» وأشعار «المنظومة» للحكيم المتألّه السبزواريّ ، لأنّ منظومة الشيخ هي على قدر من العذوبة والسلاسة بحيث استقرّت في قلوب جميع العلماء والفضلاء ولفتت انتباههم نحوها، حتّى يُنزل الله من لدنه لطفاً فيتمّ شرح «التحفة» على أكمل وجه من الإتقان بما يناسب شأن النصّ . و**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَه العَلِيِّ العَظِيم** .

٢ـ إنّ نظرة فاحصة على ذلك تقودنا إلى أنّ : المرحوم الحاجّ الشيخ عاش أكثر من ⇦

نعم ، وهل لهذا الأبيات مضموناً ومفهوماً غير مضمون ومفهوم أبيات الحسين بن منصور الحلّاج الّتي ذكرناها آنفاً .

أَنَا أَنَا أَنْتَ أَمْ هَذَا إِلَهَيْنِ ؟!

حَاشَايَ حَاشَايَ مِنْ إِثْبَاتِ اثْنَيْنِ

⇦ عشرين سنة بعد مراسلاته مع الآقا الحاجّ السيّد أحمد . وأنّ عدوله عن العقيدة الفلسفيّة إلى الغايات العرفانيّة مع نظم المنظومة الحكميّة «تحفة الحكيم» يعدّ أمراً طبيعيّاً ومقبولاً.

وتستند هذه النظرة على بيان بعض المقدّمات:

١ ـ كانت ولادة آية الله الحاجّ الشيخ محمّد حسين الإصفهانيّ في الثاني من المحرّم سنة ١٢٩٦، ووفاته في ليلة الأحد الخامس من ذي الحجّة سنة ١٣٦١ ، حسبما أوردته في مقدّمة كتابي «التوحيد العلميّ والعينيّ» ؛ وعلى هذا تكون سنيّ عمره قد بلغت الـ٦٦ إلّا ٢٧ يوماً بالتمام.

٢ ـ لقد أتمّ نظم منظومة الحكمة ، حسب ما دوّنه هو في آخرها ، في ٢٩ ربيع الأوّل سنة ١٣٥١؛ وبناء على ذلك يكون نظمها قد تمّ في فترة تسبق وفاته بـ ١٠ سنوات و٨ أشهر و٥ أيّام.

٣ ـ فإذا طرحنا تلك المدّة من عمره فسيكون الباقي ٥٥ سنة وشهرين و٢٨ يوماً.

٤ ـ أي أنّه أنجز تلك المنظومة خلال هذه المدّة من عمره.

٥ ـ كانت وفاة آية الله الحاجّ السيّد أحمد الكربلائيّ عصر يوم الجمعة ٢٧ شوّال المكرّم من سنة ١٣٣٢.

٦ ـ كان عمر سماحة الشيخ آنذاك (وقت وفاة سماحة السيّد) ٣٦ سنة.

٧ ـ لقد جرت المكاتبات والمراسلات بين العَلَمينِ الآيتين في عهد المرحوم آيةالله الآخوند الملّا محمّد كاظم الخراسانيّ ، وكانت رحلة الآخوند في سنة ١٣٢٩.

٨ ـ تبلغ المدّة من وفاة الآخوند إلى زمان انتهاء الشيخ من نظم منظومته ، ٢١ سنة.

٩ ـ يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ : الانتهاء من نظم المنظومة أعقب وفاة الحاجّ السيّد أحمد بـ١٨ سنة و٥ أشهر ويومين ، وبـ٢١ سنة بعد وفاة الآخوند.

ويوضّح ذلك بجلاء أنّ المرحوم الشيخ كانت له الفرصة الكافية خلال هذه المدّة الطويلة للتغيير والعدول إلى عقيدة العارفين بالله.

هُـوِيَّـتِـي لَـكَ فِـي لَائِـيَّـتِـي أَبَـداً
كُلٌّ عَلَـى الكُـلِّ تَلْبِـيـسٌ بِـوَجْهَيْنِ
فَأَيْنَ ذَاتُـكَ عَنِّي حَيْـثُ كُنْتُ أَرَى
فَقَدْ تَـبَـيَّـنَ ذَاتِـي حَـيْـثُ لَا أَيْنِي

إلى آخر الأبيات .

هذا ، وقد بيّن آية الله الفقيد الفقيه والعالم العارف : **الحـاجّ المـيرزا جواد آقا الملكيّ التبريزيّ** قدّس سرّه هذا الأمر بـبعض الجـمل المـوجزة والمفيدة ، وقد أورد دليلاً بالغ الإتقان لإثبات وحدة الوجود بحيث أدهش الجميع وأعجبهم ، فقد قال :

وَيَتَّضِحُ ذَلِكَ بِأَدْنَى تَأَمُّلٍ ؛ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الوُجُودِ يَمْتَنِعُ عَلَيْهَا العَدَمُ ؛ وَإِلَّا لَاتَّصَفَ الشَّيءُ بِنَقِيضِهِ أَوْ بِمَا يُسَاوِقُ نَقِيضَهُ . وَهُوَ بَدِيهِيُّ البُـطْلَانِ ضَرُورِيُّ الفَسَادِ . وَكُلُّ مَا امْتَنَعَ عَدَمُهُ ثَبَتَ قِدَمُهُ بِالضَّرُورَةِ .

فَحَقِيقَةُ الوُجُودِ ثَبَتَ قِدَمُهَا .

فَلَا يُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّ لِلأَشْيَاءِ وُجُوداً حَقِيقِيَّاً . فَتَأَمَّلْ وَاغْتَنِمْ !

فَإِنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ بُرْهَانُ الصِّدِّيقِينَ فِي إِثْبَاتِ وُجُودِهِ تَعَالَى .[1]

١ـ «رسالة لقاء الله» ص ١٧٧ ؛ وقد أورد السيّد حيدر الآمليّ هذا البيان بعينه في كتاب «رسالة نقد النقود» ص ٦٤٦ إلى ٦٤٨ ، والذي طبع مع كتابه الآخر «جامع الأسرار» في مجلّد واحد.

فهو يقول : **الوُجُودُ مِنْ حَيْثُ هُوَ وُجُودٌ لَيْسَ بِقَابِلٍ لِلْعَدَمِ لِذَاتِهِ . وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِقَابِلٍ لِلْعَدَمِ لِذَاتِهِ فَهُوَ وَاجِبُ الوُجُودِ لِذَاتِهِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الوُجُودُ وُاجِباً لِذَاتِهِ .**

ثمّ يقول : **أَمَّا بَيَانُ الصُّغْرَى (عَلَى سَبِيلِ البُرْهَانِ) فَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الوُجُودُ قَابِلاً لِلْعَدَمِ ، لَلَزِمَ اتِّصَافُ الشَّيءِ بِنَقِيضِهِ . وَاتِّصَافُ الشَّيءِ بِنَقِيضِهِ مُحَالٌ ؛ فَمُحَالٌ أَنْ يَكُونَ الوُجُودُ قَابِلاً لِلْعَدَمِ .** ⇦

وما أروع وأبلغ ما شرح الشيخ فخر الدين إبراهيم العراقيّ هذه الحقيقة في كتاب «اللمعات» :

اللمعة الحادية عشرة:

اعلم أنّه لا يمكن وجود أيّ اتّحاد أو حلول بين الصورة والمرآة بأيّ شكل من الأشكال .

گويد آن كس درين مقام فضول كه تجلّى نداند او ز حلول[1]

فلا يمكن أن يجتمع الحلول والاتحاد في ذاتين ،كما أنّ عين الشهود لا يمكن أن ترى في كلّ الوجود غير ذات واحدة مشهودة .

العَيْنُ وَاحِدَةٌ وَالحُكْمُ مُخْتَلِفُ وَذَاكَ سِرٌّ لِأَهْلِ العِلْمِ يَنْكَشِفُ

ويرى صاحب الكشف أنّ الكثرة إنّما تكون في الأحكام لا في الذات ؛ لعلمه أنْ لا أثر لتغيّر الأحكام في الذات ، ذلك أنّ الذات تمتلك كمال لا يقبل التغيّر أو التأثّر .

لَا لَوْنَ فِي النُّورِ لَكِنْ فِي الزُّجَاجِ بَدَا
شُعَاعُهُ فَتُرَاءَى فِيهِ أَلْوَانُ

فإذا لم تفهم قولي «در چشم من آى وپس نظر كن تا ببنى» .[2]

⇦ ثمّ يتابع قائلاً : **وَأَمَّا بَيَانُ الكُبْرَى ، فَمُسَلَّمٌ عِنْدَ الخَصْمِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى البَيَانِ وَالبُرْهَانِ كَمَا تَقَرَّرَ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَيْسَ بِقَابِلٍ لِلْعَدَمِ لِذَاتِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ .**

وأمّا الحاجّ الحكيم السبزواريّ فقد لخّص هذا البرهان في بيت شعريّ واحد:

إِذَا الوُجُودُ كَانَ وَاجِباً فَهُو وَمَعَ الإِمْكَانِ قَدِ اسْتَلْزَمَهُ

(«شرح المنظومة» ص ١٤١).

١ـ يقول : «يقول الأجنبيّ في هذا المَقام الفضوليّ : إنّه لا يفرّق بين التجلّي والحلول».

٢ـ يقول : «فأمعن النظر في عيني وتبيّن». ⇦

آفـــتابی در هـــزاران آبگـــینه تـــافته
پس به رنگ هر یکی تابی عـیان انـداخـته
جمله یک نورست لیکن رنگهای مختلف
اخـــتلافی در مـــیان ایـــن و آن انـداخـته[1]

نعم ، وما أشبه هذان البيتان بالبيتين اللذين أنشـدهما الصـاحب بـن عبّاد :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ وَتَشَـابَهَا فَتَشَـاكَـلَ الأَمْـرُ
فَكَأَنَّمَـا خَـمْـرٌ وَلَا قَـدَحٌ وَكَأَنَّمَـا قَـدَحٌ وَلَا خَمْـرُ[2]

⇦ «الديوان الكامل للعراقيّ» ص ٣٨٩ ، منشورات السنائيّ .

١ـ مرّت ترجمة البيتين .

٢ـ لقد أورد أهل العرفان هذين البيتين في معظم كتبهم مستشهدين بهما على مرادهم ومطلوبهم. ولا يعتري نسبة هذين البيتين إلى الصاحب بن عبّاد شكّ ولا تداخله شبهة.

وذكر مؤلّف «أعيان الشيعة» ج ١١ ، ص ٣٢٧ ، أنّه اقتبس هذين البيتين من الصاحب. ونقل مؤلّف كتاب «ريحانة الأدب» ج ٨ ، ص ٩٣ ، كذلك هذين البيتين عن الصاحب. وقد أورد صاحب «الريحانة» في ج ٢ ، ص ٣٥٨ البيتين التاليين لـ«زاهي» في ترجمته:

وَمُدَامَـةٍ كَضِـيَائِهَـا فِـي كَأْسِـهَـا نُـورٌ عَلَـى فَلَـكِ الأَنَـامِـلِ بَـازِغُ
رَقَّتْ وَغَابَ عَنِ الزُّجَاجَةِ لُطْفُهَا فَكَأَنَّـمَـا الإِبْـرِيقُ مِـنْـهَـا فَـارِغُ

ثمّ قال : وللصاحب بن عبّاد بهذا المعنى : ***رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ*** * إلى آخر البيتين.

وأقول : جاء في «ريحانة الأدب» ج ٨ (الكُنى) ، ص ٩٤ : كانت وفاة ابن عبّاد في ليلة الجمعة أو عصر الجمعة ٢٤ من شهر صفر سنة ٣٨٥ ، أو كما ذكر بعضهم ، في سنة ٣٨٧ في الريّ. وأمّا ولادته فكانت سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦.

وبما أنّ صاحب الـ«الريحانة» قد ذكر وفاة «زاهي» في ترجمته في ج ٢ ، ص ٣٥٨ ، سنة ٣٥٢ أو بعد سنة ٣٦٠ ، فيمكن أن يكون معنى شعر الصاحب مُقتبساً من شعر «زاهي» هذا. (كانت ولادة «زاهي» سنة ٣١٨). ⇦

وهكذا يصل كلامنا في بحث تشخّص الوجود ومعنى ومفاد «**لَا هُوَ إِلَّا هُو**» إلى نهايته .

وبختام هذا البحث ، ينتهي الجزء الثاني من موضوع «معرفة الله» من سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة .

ولعلّ من المناسب أن نذكر هنا بعضاً من أبيات الحكيم المتألّه والفقيه ، وفيلسوف زمانه ونادرة عصره ، والتي ذكرها في نهاية كتابه «تحفة الحكيم» ، فنختتم كتابنا بحلية تلك الأشعار ذات المضامين الراقية والمعاني السامية .

وقد ذكر هذه الأبيات في معرض توضيحه الفرق بين معنى «الكلام» ومعنى «الكتاب» وهي رائعة جدّاً ، ومن المناسب والمفيد أن نذكرها هنا ، وذلك لغرض استيعاب حقيقة توحيد الوجود ، ووحدة ذات الحقّ المتعال مع جميع الموجودات ، والتأمّل في كيفيّة وشكل الوحدة في الكثرة :

بَيْنَ الكَلَامِ مِنْهُ وَالكِتَابِ ... فَرْقٌ لَدَى العَارِفِ بِاللُّبَابِ
فَكُلُّ مَوْجُودٍ مِنَ الكَلَامِ ... مِنْ جَهَةِ الصُّدُورِ وَالقِيَامِ
وَالكُلُّ مِنْ حَيْثِيَّةِ القَبُولِ ... كِتَابُهُ عِنْدَ أُولِي العُقُولِ
وَبِاعْتِبَارِ عَالَمِ الأَمْرِ فَقَطْ ... كَلَامُهُ فَإِنَّهُ بِلَا وَسَطْ
وَعَالَمُ الخَلْقِ كِتَابٌ مَحْضُ ... وَالجَمْعُ مِنْ ذِي الجَهَتَيْنِ فَرْضُ
وَلِلْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ الجَمْعِ ... وَالفَرْقِ وَصْفَانِ بِغَيْرِ مَنْعِ
فَبِاعْتِبَارِ الجَمْعِ بِالقُرْآنِ ... يُدْعَى كَمَا فِي الفَرْقِ بِالفُرْقَانِ
وُجُودُهُ الجَمْعِيُّ فِي أَعْلَى القَلَمْ ... فِيهِ انْطَوَى كُلُّ العُلُومِ وَالحِكَمْ

⇦ ويحتمل أنّ زاهي قد اقتبس شعره من الصاحب ؛ ويحتمل أيضاً أن لا يكون أيّاً منهما قد اقتبس شعره من الآخر. والله أعلم.

وُجُودُهُ الفَرْقِيُّ وَالتَّفْصِيلِي فِي غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ العُقُولِ
وَإنَّ فِي دَائِرَةِ الوُجُودِ قَوْسَيْنِ لِلنُّزُولِ وَالصُّعُودِ
وَبِالنَّبِيِّ المُصْطَفَى وَالآلِ قَدْ خُتِمَتْ دَائِرَةُ الكَمَالِ
وَأَوَّلُ المَرَاتِبِ العَقْلِيَّهْ هِيَ الحَقِيقَةُ المُحَمَّدِيَّهْ
فَمَا وَعَاهُ قَلْبُهُ مِمَّا وَعَى يَكُونُ قُرْآناً وَفُرْقَاناً مَعَا
وَغَيْرُهُ لَيْسَ عَلَى هَذَا النَّمَطْ بَلْ كُلُّ مَا أُوتِيَ فُرْقَانٌ فَقَطْ
وَلِاخْتِصَاصِهِ بِهِ كَمَا عُلِمْ يَقُولُ : أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِمْ

. . . . . .

وَقَدْ خَتَمْتُ هَذِهِ المَقَالَهْ بِاسْمِ النَّبِيِّ خَاتَمِ الرِّسَالَهْ
فَيَا مَنِ اصْطَفَاهُ مِنْ بَرِيَّتِهْ وَخَصَّهُ بِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهْ
صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعِتْرَتِهْ وُرَّاثُهُ فِي سِرِّهِ وَسِيرَتِهْ

تمّت منظومة الحكمة هذه والمسمّاة بـ (تحفة الحكيم) ، على يد الجاني محمّد حسين النجفيّ الإصفهانيّ في ٢٩ من شهر ربيع الأوّل من سنة ١٣٥١ هجريّة قمريّة .

. . . . . .

ويقول الحقير الفقير كذلك : تمّ الجزء الثاني هذا من كتاب «معرفة الله» من سلسلة العلوم والمعارف الإسلاميّة على يد الجاني : السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ عند مطلع شمس الخميس الأوّل من شهر رمضان المبارك ، من سنة ١٤١٥ هجريّة **بِعَوْنِهِ وَرَحْمَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ وَمَنِّهِ، فَلَا عَوْنَ وَلَا رَحْمَةَ وَلَا تَأْيِيدَ وَلَا مَنَّ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيم. وَاللَهُ المُسْتَعَانُ. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيم.**

السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

مدينة مشهد الرضويّة المقدّسة ، على شاهدها آلاف الصلاة والسلام والتحيّة والإكرام .

الرِّسَالَةُ المُلْحَقَة

الرَّدُّ عَلَى كِتَابِ " الاضبار الدخيلة " فِيمَا يَخُصُّ التَّوقِيعَ الوَارِدَ فِي شَهْرِ رَجَب

بسم الله الرحمن الرحيم

ملحق آخر الكتاب

هذا ملحق مستقلّ لإثبات صحّة اعتبار دعاء :

اللَهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَانِي جَمِيعِ مَا يَدْعُوكَ بِهِ وُلَاةُ أَمْرِكَ

والمقبول من قبل العلماء الأفاضل سنداً ونصّاً .

يعتبر هذا الملحق ردّاً على قول العالم المعاصر المحدّث

الشوشتريّ ، والذي وعدْنا في طيّات الكتاب

بإيراده في آخر الكتاب .

أَعُوذُ بِاللَهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمَ

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيم

وَصَلَّى اللَهُ عَلَى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبينَ الطَّاهِرينَ

وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعينَ مِنَ الآنَ إِلَى قِيامِ يَوْمِ الدِّينِ

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَهِ العَلِيِّ العَظِيمِ

قام جناب ثقة المحدّثين آية الله الحاجّ الشيخ محمّد تقي التستريّ دام إفضاله في كتابه «الأخبار الدخيلة» ص ٢٦٣ إلى ٢٦٥ بتفنيد التوقيع الوارد في أدعية شهر رجب ؛ وسنورد هنا خلاصة كلامه ومن ثمّ سنقوم بالردّ عليه :

وأمّا كلامه فهو : ومن جملة الأدعية المفتراة الدعاء المذكور في «المصباحين» وهو : **أَخْبَرَنِي جَمَاعَةٌ عَنِ ابْنِ عَيَّاشٍ ؛ قَالَ : مِمَّا خَرَجَ عَلَى يَدَيِ الشَّيْخِ الكَبِيرِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ سَعِيدٍ رَضِيَ اللَهُ عَنْهُ مِنَ النَّاحِيَةِ المُقَدَّسَةِ ، مَا حَدَّثَنِي بِهِ خَيْبَرُ بْنُ عَبْدِ اللَهِ ؛ قَالَ : كَتَبْتُ مِنَ التَّوْقِيعِ الخَارِجِ إِلَيْهِ :**

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ادْعُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ رَجَبٍ :

اللَهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِمَعَانِي جَمِيعِ مَا يَدْعُوكَ بِهِ وُلَاةُ أَمْرِكَ ، المَأْمُونُونَ عَلَى سِرِّكَ ، المُسْتَبْشِرُونَ بِأَمْرِكَ ، الوَاصِفُونَ لِقُدْرَتِكَ ، المُعْلِنُونَ لِعَظَمَتِكَ . أَسْأَلُكَ بِمَا نَطَقَ فِيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ ، فَجَعَلْتَهُمْ مَعَادِنَ لِكَلِمَاتِكَ

وَأَرْكَاناً لِتَوْحِيدِكَ وَآيَاتِكَ وَمَقَامَاتِكَ الَّتِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ. يَعْرِفُكَ بِهَا مَنْ عَرَفَكَ ؛ لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ، فَتْقُهَا وَرَتْقُهَا بِيَدِكَ، بَدْؤُهَا مِنْكَ وَعَوْدُهَا إِلَيْكَ ؛ أَعْضَادٌ وَأَشْهَادٌ وَمُنَاةٌ وَأَذْوَادٌ وَحَفَظَةٌ وَرُوَّادٌ. إلى : **وَفَاقِدَ كُلِّ مَفْقُودٍ.** إلى : **وَمَلَائِكَتِكَ المُقَرَّبِينَ وَبُهْمِ الصَّافِّينَ [وَ]الحَافِّينَ. وَبَارِكْ لَنَا فِي شَهْرِنَا هَذَا المُرَجَّبِ المُكَرَّمِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْهُرِ الحُرُمِ** ـ إلى آخره .

ثمّ قال بعد ذلك : ومن جملة الأُمور التي تدلّ على أنّ هذا الدعاء موضوع هي ما يلي :

الأوّل : عبارة **بِمَا نَطَقَ فِيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ** ؛ فماذا يعني نطق مشيئة الله هنا ؟

الثاني : عبارة **الَّتِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ** ؛ إلى مَن يعود الاسم الموصول التي ، إذا كان يعود إلى **وُلَاةُ أَمْرِكَ** فهي ليست تامّة من حيث اللفظ ، بل وحتىّ المعنى أيضاً ؛ وإذا كانت تعود إلى **آيَاتِكَ وَمَقَامَاتِكَ** ، فلا يستوي معناها هنا ، بل وحتّى لفظها .

الثالث : عبارة : **لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ** ؛ فهذه العبارة تفيد أنّ الملائكة وهم آيات الله ، متساوون مع الله نفسه في جميع صفاته تعالى إلّا عنوان الخالقيّة والمخلوقيّة ؛ كما في قولنا : فلان كالسلطان إلّا أنّه لا سلطان له . أي أنّه نظير له (أي للسلطان) في جميع الكمالات سوى السلطان ؛ وهذا كفر محض .

وأمّا كلمة **أَعْضَادٌ** ؛ فظاهرها أنّهم أعضاد الله ؛ وهذا أيضاً كفر ، وبالكاد يمكن القول إنّ معنى العبارة هو أنّ الملائكة بعضهم أعضاد بعض مثلهم كمثل أعوان ملك الموت .

كما أنّه يمكن بالكاد القبول بأنّ المراد من معنى **أَشْهَادٌ** ، هو حضور

شهادتهم على بني آدم . وبخصوص **وَأَذْوَادٌ وَحَفَظَةٌ** ، يمكن القول بأنّهم يحفظون بني آدم من البلايا .

وفيما يخصّ كلمة **مُنَاةٌ** ، كذلك يمكن القول إنّها من مادّة **مَنَى لَهُ** ، بمعنى قدّر له ؛ نظير الآية الشريفة : **فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا** . وعن **رُوَّادٌ** ، يمكن القول إنّ **فُلَانَةٌ رَائِدَةٌ** ، بمعنى أكثرت التردّد إلى بيوت جاراتها ؛ وعلى هذا يكون معناها أنّ الملائكة طوّافون بالناس .

فلو سلّمنا بهذه الفرضيّات فكان بها ؛ وإلّا فكما ترى فإنّ الإشكال واضح في كلّ عبارة من تلك العبارات .

الرابع : عبارة **وَفَاقِدَ كُلِّ مَفْقُودٍ** ؛ لأنّها تعني أنّ الله ليس واجداً لكلّ ما هو مفقود ، وهذا كفر ، وهذا معنى **فَقَدَ الشَّيءَ** ؛ ولو كانت بلفظ **وَاجِدَ كُلِّ مَفْقُودٍ** لكان معناها أنسب وأقوم .

الخامس : عبارة **وَبُهْمِ الصَّافِّينَ** ؛ وجاءت في نصّ «المصباح» : **وَالبُهْمِ** بالألف واللام وهي أصحّ ، لأنّ الظاهر أنّ **الصَّافِّينَ** صفة لـ **البُهْمِ** .

وعلى أيّة حال ، فما معنى **البُهْم** ؟ إلّا جمع **بُهْمَة** ، وقد قال أبو عبيدة **البُهْمَة** الشجاع (أو الفارس) الذي يستبهم مأتاه على أقرانه ؛ وفي هذه الحال يكون المراد هو الملائكة المجاهدة ضدّ الكفّار .

السادس : عبارة **وَأَصْلِحْ لَنَا خَبِيئَةَ أَسْرَارِنَا** ؛ وذلك أنّ الإصلاح يكون لشيء فاسد ولو قيل : **وَأَصْلِحْ [لَنَا] مَا فَسَدَ مِن خَبِيئَةِ أَسْرَارِنَا** لكان أفضل وأصحّ .

السابع : عبارة **وَبَارِكْ لَنَا فِي شَهْرِنَا هَذَا المُرَجَّبِ المُكَرَّمِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْهُرِ الحُرُمِ** ؛ لأنّ شهر رجب لم يوصف بأنّه شهر حرام ، في حين وصف الأشهر التي تليه بالحُرُم ؛ مع أنّ شهر رجب هو شهر حرام ، بينما الأشهر التي تليه وهي شعبان ورمضان وشوّال هي ليست بأشهر حُرُم ،

والأشهر التي تأتي بعدها وهي ذي القعدة وذي الحجّة ومحرّم هي أشهر حُرُم . وعلاوة على ذلك فإنّ عبارة **أَشْهُرِ الحُرُم** ليست صحيحة من ناحية الإضافة ، لأنّ **الحُرُم** صفة وكان يجب القول : **الأَشْهُرِ الحُرُمِ ؛ اللَهُمَّ إلَّا أَنْ يُقَالَ : إنَّ فِي مِثْلِهِ يَصِحُّ الوَصْفُ وَالإضَافَةُ بِاعْتِبَارَيْنِ** .

وفضلاً عن ذلك فإنّ هذا الخبر ضعيف السند بابن عيّاش : وقال النجاشيّ : لقد سمعتُ منه أشياء كثيرة ؛ ولكنّني حين رأيتُ أنّ مشايخنا يُضعّفونه ، فقد اجتنبتُ ولم أقم بنقل رواياته . ولا يوجد اسم خيبر بن عبد الله الذي يروي ابن عيّاش عنه ، عن محمّد بن عثمان في الرجال .

وبالجملة فلو لم يكن في هذا الدعاء إلّا عبارة : **لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ** ، لكانت دليلاً كافياً على أنّ هذا الدعاء موضوع ؛ مع أنّه ذُكِرت أغلاط ومنكرات أُخرى فيها وضعف سندها كذلك ـ انتهى ملخّصاً .

أقول : لقد وقع الإشكال والخطأ في كلّ واحدة من إشكالات واعتراضات صاحب الكتاب ، ويتبيّن بوضوح ممّا سنذكره هنا أنّ الفقرة الأُولى حتّى الفقرة السابعة ليست إلّا عنواناً وإيراداً للأخطاء وعرضاً للإشكالات بطريقة فنيّة ؛ ولا تتجاوز تلك الإشكالات عن كونها كتلة من الثلج الهشّ .

فأمّا ما يخصّ ضعف السند ، نقول : أيّ الأدعية الواردة عن المعصومين لها سند صحيح ؟ فمجموع الأدعية والزيارات الواردة ذات السند الصحيح قليلة جدّاً ؛ وإذا تقرّر أن نكتفي بالأدعية والزيارات ذات السند الصحيح والمعروف : فلن يبقى إلّا عُشر ما لدينا من الأدعية ؛ ولأصبح كتابا «المصباح» و«البلد الأمين» للشيخ الكفعميّ ، وكتاب «الإقبال» وكتاب «بحار الأنوار» في الأدعية والزيارات ، كتباً جيبيّة ككتاب «التبصرة»

للعلّامة ، في حين أنّنا نعلم بأنّ هذا هو خلاف ما يقتضيه المذهب ؛ فقد حافظ علماؤنا السابقون واللاحقون على هذه الأدعية و احتفظوا بها ، وهم أنفسهم كانوا يردّدونها ، وعلى هذا المنوال جرت سيرتهم العمليّة .

وقد أورد هذا الدعاء كلّ من الشيخ الطوسيّ في «مصباح المتهجّد» ص ٥٥٩ ، والشيخ الكفعميّ في كتابه «المصباح» ص ٥٢٩ ، وكتابه الآخر «البلد الأمين» ص ١٧٩ ، والسيّد ابن طاووس في «الإقبال» ص ٦٤٦ ، والعلّامة المجلسيّ في «البحار» ج ٢٠ ، ص ٣٤٣ ، طبعة الكمبانيّ ؛ وقد استحسنه جميعهم . والجدير بالذكر أنّ المرحوم المجلسيّ قد نقل هذا الدعاء بدون أيّ توضيح ، والحال أنّه كان حسّاساً جدّاً إزاء أيّة عبارة تمتّ بصلة إلى العبارات التي يستخدمها الصوفيّة أو تشابهها ، وكان يتفادى مثل تلك العبارات قدر الإمكان ؛ ويتبيّن من ذلك أنّه كان يعتبر جميع إشكالات صاحب كتاب «الأخبار الدخيلة» هباء ولا تستحقّ التعليق .

ومن هنا يتّضح لنا أنّ السيرة والطريقة التي انتهجها علماؤنا في الماضي بالعمل بهذه الأدعية والزيارات هي عدم الالتفات إلى صحّة السند ، كما هو مشهور اليوم ، والذي تمّ ابتداعه منذ زمن العلّامة الذي قام بتصنيف الأحاديث إلى صحيح وحسن وضعيف وموثّق ؛ بل إنّهم كانوا يعملون بأيّ زيارة أو دعاء يثقون به وإن كانت بقرائن خارجيّة . وهذا المعنى هو الصحيح ، وعلى هذا فإنّ أيّ دعاء وزيارة ضعيفي السند يكفيهما شهرة أن يعمل بها العلماء ويدوّنوها في كتبهم ممّا يزيل ضعفهما .

ولقد كنّا أثبتنا في الأُصول أنّ أيّ خبر وإن كان صحيح السند ، فإنّه لا يُعمل به إذا أحجم الأصحاب وأعرضوا عنه ؛ بل **كُلَّمَا زَادَ صِحَّةً زَادَ ضَعْفاً** ؛ وكلّ خبر ضعيف معمول به من قبل الأصحاب ، يجب العمل به ؛ فيكون عمل الأصحاب بذلك الخبر بمثابة سند له .

ومن هنا نرى أنّ كثيراً من روايات «الكافي» بل معظمها ضعيفة السند ؛ ولو راجع أحدهم كتاب «مرآة العقول» وطالعه فإنّه سيلاحظ أنّ العلّامة المجلسيّ قد ضعّف أسناد أغلب رواة الحديث فيه أثناء بيانه لذلك ، وذلك بالرغم من علمنا علم اليقين أنّ كتاب «الكافي» هو من الكتب المعتبرة عندنا ؛ بل من أكثرها اعتباراً .

ويعود السبب في ذلك إلى أنّ درج الأحاديث في هذا الكتاب والكتب الأربعة الأُخرى ، مثل «من لا يحضره الفقيه» و«الاستبصار» و«التهذيب» من قبل شيوخ ثبتت وثاقتهم وورعهم وأمانتهم وعلمهم وتبحّرهم في علم الحديث وفي كونه مقبولاً أو مرفوضاً ، وهم في منزلة عالية ومكانة سامية ، يعتبر حجّة وباعثاً على الطمأنينة بصحّة صدوره .

ولهذا ، فقد اعتبر الأخباريّون قاطبة وكثير من العلماء الأُصوليّين جميع الروايات الواردة في الكتب الأربعة صحيحة والعمل بها واجباً ، وأمّا نحن فنقول إنّ نفس عمليّة درج الأحاديث في هذه الكتب لا توجب العمل بها . ولا تجعلها صحيحة ، إلّا أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّها ترفع من درجة اعتبار الحديث بقدر ملحوظ ، وتحيله إلى حديث صحيح ولازم الاتّباع بعد ضمّ شيء من القرائن الخارجيّة وقليل من الشواهد إليه .

فمع أنّ **ابن عيّاش** يعتبر شخصاً غير موثوق به عند النجاشيّ ، إلّا أنّه لا يمكن القول إنّ جميع روايات الشخص الضعيف (أيّ غير الموثوق به) غير صحيحة ، بل إنّ كلام الشخص الضعيف قد يحتوي على أنواع الكلام ؛ الصحيح والفاسد والكاذب والصادق والمردود والمقبول . وقد يكون بعض كلامه الصدق بعينه ولو بضمّ قرائن خارجيّة ؛ وبهذا فإنّ روايات أشخاص ضعفاء قد تكون موضع قبول . ويمكن أن تكون رواية ابن عيّاش هذه من هذا القبيل . وكذلك قد لا يكون **خير بن عبد الله** أو خيبر بن عبد الله ،

راوي الحديث عن محمّد بن عثمان ، من مشاهير الرجال والمعروفين في علم الحديث ، والذي لم يُذكر اسمه في الرجال ؛ لكنّه كان شخصاً عادياً ثقة ، ومن هنا كانت روايته مقبولة .[1]

فأمّا **الإشكال الأوّل** من إشكالاته السبعة التي يقول فيها : ما معنى **بِمَا نَطَقَ فِيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ** ؟

فنقول في جواب ذلك : بما أنّ جميع الموجودات هي ظهور للّه ، إذاً جميعها كلام الله وحديثه . والكلام هو ما يُعبّر فيه عمّا في الضمير مزيحاً الستار عن الأسرار والمعاني الباطنة للنفس . ولأنّ كلّ الموجودات تستدعي

١ـ ابن عيّاش ، هو أحمد بن محمّد بن عبيد الله بن الحسن بن عيّاش، وجاءت ترجمته في «تنقيح المقال» ج ١ ، ص ٨٨ ، ونذكر هنا موجز ما ورد فيه:

وكان قد ألّف كتباً دلّت على كونه شيعيّاً . وتوفّي سنة ٤٠١ .

عدَّهُ الشيخُ في رِجاله فى باب مَنْ لَمْ يَرْوِ عنهم عليهم السلام . وقال النجاشيّ : اضطرَب في آخِر عُمره ؛ قال : رأيتُ هذا الشيخَ رحمه الله وكان صديقاً لي ولوالدي ، وسمعتُ منه شيئاً كثيراً ورأيت شُيوخَنا يُضَعِّفونه فلَمْ أروِ عنه شيئاً وتَجنَّبتُه؛ وكان من أهل العلم والأدب القويَّ وطيّبَ الشعر وحَسنَ الخطّ رحمه الله وسامَحهُ . واقتصر ابنُ شهرآشوب في «المعالم» علَى ذِكره وعدّ كُتُبه مِن دون تعرّضٍ فيه بمدحٍ ولا قدحٍ . وضعَّفهُ في «الوجيزة» ثمّ قال: وفيه مدحٌ .

ثمّ قال المرحوم المامقانيّ : قلتُ : بَعدَ إحراز كونه إماميًّاً كما تَكشفُ عنه كُتبهُ وورودِ المدح فيه، كان مُقتضَى القاعدةِ عَدُّ حديثِه من الحسَن لا الضعيفِ ؛ سيَّما إن أُريد بالاختلال في آخِر عُمره خَلَلٌ في عقله دونَ مذهبه . وترحّمُ النجاشيّ عليه مؤيِّدٌ لحسنه؛ كما لا زالَ يُستشهدُ بنحو ذلك الوَحيد لحُسن الرجلِ . وإن أُريد بالاختلال اختلالُ مذهبه كما يومي إليه قولُ النجاشيّ بعدَ الترحّم : وَسامَحَهُ ، وقولُه قبلَ ذلك : اضطرب في آخِر عُمره، فإنّ ذلك لا يُراد به على الظاهر اختلالُ العقل ؛ نقولُ : لا مانعَ من الأخذ برواياته التي رَواها في حال استقامتِه واعتدالِه ؛ ولكن تجنّبُ النجاشيّ من الرواية عنه احتياطاً ، أوجبَ تضعيفَهم للرجل واتّباعَهم إيّاهُ ؛ وهو كما ترى ـ انتهى .

ظهور الله وقدرته وعلمه وحياته مُخبرة عن ذلك الكنز الخفيّ ، فإنّ جميعها كلمات للّه ؛كما ورد في القرآن الكريم : **وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِن بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ .**[١]

وورد كذلك : **قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا.**[٢]

وأمثال ذلك من الآيات الكثيرة التي تُعبّر عن الموجودات التكوينيّة بأنّها كلمة ، مثل : **وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ.**[٣]

إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ.[٤]

إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ.[٥]

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا.[٦]

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.[٧]

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ.[٨]

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ.[٩]

١ـ صدر الآية ٢٧ ، من السورة ٣١ : لقمان .

٢ـ الآية ١٠٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ـ من الآية ٢٤ ، من السورة ٤٢ : الشورى .

٤ـ من الآية ٤٥ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٥ـ من الآية ١٧١ ، من السورة ٤ : النساء .

٦ـ من الآية ١٣٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٧ـ الآية ٣٣ ، من السورة ١٠ : يونس .

٨ـ صدر الآية ٢٤ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

٩ـ الآية ٢٦ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ.[1]

وكثير من الآيات الأُخرى ، بل إنّ جميع الآيات التي ذُكرت فيها **كلمةُ الله** مرادها الموجودات الفعليّة التكوينيّة الخارجيّة التي تُخبر عن الذات المقدّسة للّه والتي تستوجب ظهور الحقّ تعالى وبروزه .

به نزد آنکه جانش در تجلّی است
همه عالم کتاب حقّ تعالی است
عَرَض إعراب و جوهر چون حروف است
مراتب همچو آیات وقوف است
ازو هر عالمی چون سورهٔ خاص
یکی زآن فاتحه دیگر چو إخلاص
نخستین آیتش عقل کُل آمد
که در وی همچو باء بَسمَل آمد
دوم نفس کُل آمد آیت نور
که چون مصباح شد در غایت نور[2]

١ـ الآية ١٧١ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ يقول :

«إنّ العالَم كلّه عند مَن كانت روحه ترتع في التجلّي عبارة عن كتاب الحقّ تعالى.

وما العَرَض إلّا حَرَكات وما الجَوهر إلّا حُروف ؛ وما المراتب إلّا وُقوف مَثلها في ذلك كمَثل الآ يات.

وكلّ عالَم منه عبارة عن سورة خاصّة به ؛ فواحدة منه تُمثّل سورة الفاتحة والأُخرى تمثّل سورة الإخلاص.

فكانت أوّل آية من آياته هي العقل الكلّيّ فصار له كمَثل الباء فيا لبسملة.

ثمّ جاءت النفس الكلّيّة كآية النور ؛ فصارت في غاية التوهّج كالمصباح».

سیم آیت درو شد عرش رحمن
چهارم آیةُ الکرسی همی خوان
پس از وی جرم‌های آسمانی است
که در وی سورهٔ سبعُ المثانی است
نظر کن باز در جرم عناصر
که هر یک آیتی هستند باهر
پس از عنصر بود جرم سه مولود
که نتوان کرد این آیات معدود
به آخر گشت نازل نفس انسان
که بر ناس آمد آخر ختم قرآن[1]

وعلى هذا ، فإنّ جميع الموجودات هي كلام الحقّ تعالى ؛ وكلّها منطوقة ذاته المقدّسة ، وجميعها حديثه وكلامه .

وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.[2]

إنّ عالم التكوين هو كتاب الله الناطق ، فهو ينطق بالحقّ والصدق .

إنّ جلود أبدان المجرمين والظالمين يوم القيامة تنطق قائلة : **قَالُوَا**

١ـ يقول : «أمّا الآية الثالثة فصارت عرش الرحمن ؛ وأمّا الرابعة فآية الكرسي التي يقرؤها الجميع.

ثمّ الأجرام السماويّة ؛ والتي هي فيه كسورة السبع المثانيّ.

انظر ثانيةً إلى مادّة العناصر ؛ فكلّ واحدة منها تمثّل آية باهرة.

ثمّ تجيء المادّة ذات المواليد الثلاثة بعد العنصر ؛ حيث لا يمكن عدّ هذه الآيات وحصرها.

وأخيراً نَزلتْ نفس الإنسان ؛ كما خُتم القرآن بسورة الناس».

٢ـ ذيل الآية ٦٢ ، من السورة ٢٣ : المؤمنون .

أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيَ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.[1]

إنّ مشيئة الباري تعالى هي صفة من صفاته ؛ والصفات عينها كذلك هي أزليّة وأبديّة ؛ أي أنّها غير متعيّنة بحدود أو متقيّدة بقدر . إنّ أسماء الذات المقدّسة وصفاتها غير متناهية . إنّ ظهورات الماهيّات في عالم الوجود هي التي تكسب مشيئة الحقّ تعالى شكلها وصورتها ؛ وبعبارة أُخرى تخلق وتوجِد . وإنّ أرقى أنواع الموجودات هي ملائكة الحقّ ، كلآلئ متلألئة ، وهي التي تقدّر تلك المشيئة الأزليّة وتُلبسها لباس التقدير ؛ وعلى هذا ، فهي تمنحها الظهور وتجعل من ذلك المعنى الخفيّ والمستور ظاهراً وبارزاً وناطقاً .

إنّ الملائكة وهي الواسطة لإفاضة الفيض وتدبير الأُمور في عالم الخلق ، إنّما هي كلام وحديث مشيئة الله ، وتحتوي على جهة توجِد بها الموجودات من العدم المطلق ، بقدر معلوم ؛ كما نرى في القرآن الكريم : **فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا.**[2]

وعلى هذا ، فإنّ معنى ؛ **بِمَا نَطَقَ فِيهِمْ مِنْ مَشِيَّتِكَ** واضح وجليّ ؛ أي اللهمّ إنّي أسألك بحقّ الملائكة التي وصفت قدرتك وكشفت عن عظمتك ، وأظهرت مشيّتك وأنطقتها ؛ وبناء على هذا ، فإنّ عالم الكثرة وعالم الخلق وُجدا بهذه الوسيلة .

وأمّا **الإشكال الثاني** وهو : إلى من يعود اسم الموصول في **الَّتِي لَا تَعْطِيلَ لَهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ** ، وأنّها لا تستقيم لا من حيث اللفظ ولا المعنى . فنردّ على ذلك بقولنا : إنّ التردّد بين هذين الوجهين والشّك بهما

١ـ من الآية ٢١ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ صدر الآية ٥ ، من السورة ٧٩ : النازعات .

لا وجه له ؛ لأنّ كلّ عارف بأُسلوب الكلام يعلم أنّ نسبة ذلك إلى **وُلَاةُ أَمْرِكَ** غير صحيحة ، فيتعيّن إذاً نسبتها إمّا إلى **آيَاتِكَ وَمَقَامَاتِكَ** ؛ أو أنّها تخصّ **مَقَامَاتِكَ** . ومعلوم أنّ **آيَاتِكَ** معطوفة على **أَرْكَاناً** وهي في الحقيقة مفعول ثانٍ لـ **جَعَلْتَهُمْ** ؛ وكذلك الحال مع **مَقَامَاتِكَ** .

وعلى هذا ، يكون محصّل المعنى : اللهمّ ! إنّك قد جعلت الملائكة آياتٍ ودلائلَ ! وقدّرت وعيّنت مقاماتك التي لا تعطيل لها في كلّ مكان ومحلّ ! بحيث لو أراد أحدهم معرفتك في أيّ مكان أو محلّ ، فإنّه سيعرفك من خلال هذه الموجودات الملكوتيّة الطاهرة !

وهذا المعنى سهل وبسيط وواضح جدّاً ؛ ولم نلاحظ عدم استقامتها من جهة المعنى ، فكيف تبيّن عدم استقامتها من جهة اللفظ ؟

وأمّا **الإشكال الثالث** (الذي يقول فيه) : إنّ ذلك يستلزم تساوي الملائكة مع الله ، ووصفه بأنّه كفر محض ، وأنّه من أهمّ الإشكالات ؛ حيث ورد في الدعاء المذكور عبارة : **لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ** .

فنقول في جوابنا : ليس لأيّ موجود من الموجودات حتّى الذرّات ، وليس فقط الملائكة ، استقلاليّة ؛ لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال . فجميعها آيات الحقّ وعلاماته ودلائله ومرايا ذاته المقدّسة ومجالاتها . وليس لها وجود أو أثر أو فعل من نفسها ولو قدر رأس دبّوس ؛ بل إنّ نور الحقّ متجلٍّ فيها ولا شيء غير ذلك . وكلٌّ منها مستفيض من ذلك بقدر سعته الماهويّة واستيعابه الوجوديّ ، وهي ظاهرة بظهور الحقّ .

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا .[1]

١ـ صدر الآية ١٧ ، من السورة ١٣ : الرعد .

وليس لأيّ من المخلوقات من أوّل نور للحقّ ، وهو أوّل ما خلق ، إلى آخر موجود من عالم الكثرة والطبع ، وهو الهيولى الأوّليّة والمادّة المبهمة ، أيّ وجود أو كينونة من نفسها ولو قدر ذرّة ؛ فالكلّ هو الحقّ وتجلّيه .

ولا يدلّ ذلك على معنى التساوي ، بل يدلّ على تقارن الآية وذي الآية ، والمرآة وصاحب الصورة ، والمُجلّي والمُتجلّي ، والمجاز والحقيقة .

فلو نظرنا إلى الشمس الساطعة المنعكسة على سطح الماء الصافي والراكد ، أو على المرآة الشفّافة والمصقولة وقلنا أن : لا فرق أبداً بين الشمس الساطعة والصورة الواقعة في هذا المنظر ، فهل يعني ذلك معنى التساوي !؟

إنّ معنى ذلك هو الآيتيّة والمرآتيّة ؛ لا سلب صفة من ذات الحقّ وإسنادها إلى الموجودات ، وكيف يُشتبه في تصوّر هذين المعنيينِ في حين أنّ الفرق بينهما شاسع جدّاً ؟

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

إنّ آي القرآن الكريم والتي تعتبر كلّ موجود آية ، كلّها تُشير إلى هذه الحقيقة ؛ وهناك أدعية كثيرة لا تُحصى من هذا القبيل ، ومن جملتها الدعاء الشريف المسمّى بـ «السمات» حيث نُحلّف فيه الله بأسمائه ونتوسّل بالله بهذه الأسماء ؛ وكذا التوسّل بالأنبياء والأئمّة الطاهرين .

فلسنا قائلين باستقلاليّتهم ولو مقدار ذرّة ، وإن كان ذلك من باب الشفاعة ، ونتوسّل بهم من هذه الزاوية ؛ فهذا غلط وذاك صحيح ، وهذا شرك وذاك توحيد .

نعم ، إنّ هذه المسألة لم تتوضّح بعد لكثير من غير المتعمّقين في بحوث التوحيد والحكمة الإلهيّة ؛ ولذا فإنّهم يحتارون حين يصادفون جملاً

كهذه تمثّل حقيقة التوحيد المحضة ، فيعمدون فوراً ، كما هو الحال مع الضعفاء إلى التكفير مستندين إلى مستواهم الفكريّ والعلميّ ، وإن كانوا بعيدين كلّ البعد عن البحوث العقليّة ، وينعتونها بالكفر المحض .

وغافلون كذلك عن أنّهم كانوا يتلون هذه الأدعية ، ولا زالوا ، من أساطين المذهب ؛ واعتبار هذه العبارات كفراً يستلزم تكفير رجالٍ من أمثال الشيخ الطوسيّ والشيخ الكفعميّ والسيّد ابن طاووس والعلّامة المجلسيّ الذين أوردوا تلك الأدعية في كتبهم وأيّدوها .

ولو أنّنا تجنّبنا الدخول إلى أيّ علم أو مسألة لا تقع ضمن دائرة اختصاصنا وأوكلناها إلى أهلها ، أو أرجعنا حقيقتها إلى الراسخين في العلم والأئمّة الأطهار كما يفعل الكثير من العلماء والأفاضل لكان ذلك أفضل .

وأمّا لفظة **أَعْضَادٌ** والتي حسبها أعضاداً للّه بمعنى «مساعدون» و«أعوان» ؛ واعتبروا ذلك من الكفر أيضاً .

أوّلاً : واضح جدّاً أنّه ليس المقصود بذلك مساعدة الله ، وذلك بقرينة عطف **مُنَاةٌ وأَذْوَادٌ وحَفَظَةٌ ورُوَّادٌ** ؛ بل المقصود بذلك المعنيّون والموكّلون في عالم الكثرة والطبيعة بتقدير وحفظ وصيانة أيّ موجود ، ممّا تخفيه الأقدار ، وبحفظ الإنسان بالخصوص ، من الآلام والآفات والعاهات . ومعلوم كذلك أنّ كلّ صنف من الملائكة موكّل بمهمّة خاصّة لإفاضة الفيض من لدن الله على عالم الكثرة ، وهم أسباب الرحمة الأزليّة وتقديرها ، ونشرها في عالم الإمكان . والواقع أنّ هذه العبارات تبيّن صفات وأفعال الملائكة ومهامها وتوضّحها تماماً ؛ وكلّها تعتبر آية ومرآة ، وظهوراً ومظهراً للنور الظاهر للحقّ تعالى وتقدّس .

بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ .[1]

١ـ الآيتان ٢٦ و٢٧ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

وثانياً : في الآيات التي تُنسب نصرة الله إلى المؤمنين ؛ من مثل الآية الكريمة التالية : **إِن تَنصُرُوا ٱللَهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**.[1]

أو نسبة القرض مثلاً إلى ذاته المقدّسة ؛ كالآية :

مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُ.[2]

فإلى أيّ معنى تشير كلمة النصرة والإقراض وما شابههما في هذه الآيات والآيات الكثيرة المشابهة الأُخرى . ألا تشيران إلى نفس معنى **أعضاد ومُناة ؟**

وأمّا **الإشكال الرابع** : وهو إطلاق عبارة : **فَاقِدَ كُلِّ مَفْقُودٍ** على الحقّ تعالى . وكلمة فاقد تعني الغائب وغير الواجد مثل قوله تعالى : **قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ** ، لأنّ أصحاب عزيز مصر قالوا لإخوة يوسف : نحن نفقد صواع الملك ؛ وهذا المعنى لا يناسب كذلك ذات الحقّ المقدّسة .

فنجيب على ذلك بقولنا : تعني كلمة فقدان في اللغة العربيّة العدم ؛ وهي تقابل كلمة وجدان وهي من مادّة وجود ، وتعني التحقّق كذلك ؛ **وَجَدَهُ** بمعنى أوجده ، وهو من باب إفعال ويأخذ مفعولين : **أَوْجَدَهُ الشَّيءَ** بمعنى أوجد له الشيء . وكذا الحال مع مادّة **عَدِمَهُ وفَقَدَهُ** ، لأنّ هاتين المادّتين لهما معنى واحد وهما مترادفتان .

عَدِمَهُ بمعنى أعدمه وأفناه ، **وأَعْدَمَهُ الشَّيءَ** من باب إفعال ، أفقده إيّاه وأفناه ؛ **وفَقَدَهُ** بمعنى أعدمه ، **وأَفْقَدَهُ الشَّيءَ** أعدمه إيّاه ورفعه عنه .

فَقَدَ وأَفْقَدَ ، ثلاثيّ مجرّد ومزيد فيه ، وهما متعدّيان ولكنّ الأوّل متعدّ إلى مفعول واحد ، والثاني إلى مفعولين ؛ والحقيقة أنّ الأوّل يعني

١ـ ذيل الآية ٧ ، من السورة ٤٧ : محمّد .

٢ـ صدر الآية ٢٤٥ ، من السورة ٢ : البقرة ؛ وصدر الآية ١١ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

سلب الشيء على نحو سلب بسيط ، والثاني سلب الشيء عن الشيء على نحو مركّب .

فَقَدَهُ معناه عدمه ؛ مثل **عَدِمَهُ** . **وأَفْقَدَهُ الشَّيءَ** معناه أعدمه إيّاه ؛ مثل **أَعْدَمَهُ الشَّيءَ**.

ولكنّ من يعدم شيئاً فإنّ ذلك الشيء يكون غائباً عنه بالطبع ، ولذا فإنّ معنى الغيبة في هذه الصورة لازم لمعنى العدم . وتُستخدم **فَقَدَ وعَدِمَ** أحياناً في لزوم معنى الموضوع له ؛ مثل الآية المباركة **نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ**.

وبمراجعتنا لمعاجم اللغة تتبيّن لنا هذه الحقيقة بجلاء .

ففي «أقرب الموارد» جاء في مادّة **فَقَدَ** ما يلي : **فَقَدَهُ فَقْداً وَفِقْدَاناً وَفُقْدَاناً وَفُقُوداً : غَابَ عَنْهُ وَعَدِمَهُ فَهُوَ فَاقِدٌ وَذَاكَ فَقِيدٌ وَمَفْقُودٌ. وَأَفْقَدَهُ اللَّهُ الشَّيءَ : أَعْدَمَهُ إيَّاهُ.**

وقال في مادّة **عَدِمَ : عَدِمَ المَالَ عَدْماً وَعَدَماً : فَقَدَهُ فَهُوَ عَادِمٌ وَالمَالُ مَعْدُومٌ. وَأَعْدَمَ اللَّهُ فُلَاناً الشَّيءَ : جَعَلَهُ عَادِماً لَهُ.**

وقال صاحب «المصباح المنير» **فَقَدْتُهُ فَقْداً (مِنْ بابِ ضَرَبَ) وَفِقْدَاناً : عَدِمْتُهُ فَهُوَ مَفْقُودٌ وَفَقِيدٌ.**

وفي «مجمع البحرين» : **نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ ، هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ : فَقَدْتُ الشَّيءَ فَقْداً (مِنْ بابِ ضَرَبَ) وَفِقْدَاناً : عَدِمْتُهُ فَهُوَ مَفْقُودٌ ؛ وَمِثْلُهُ افْتَقَدْتُهُ.**

وقال في «لسان العرب» : **فَقَدَ الشَّيءَ يَفْقِدُه فَقْداً وَفِقْدَاناً وَفُقُوداً فَهُوَ مَفْقُودٌ وَفَقِيدٌ : عَدِمَهُ ؛ وَأَفْقَدَهُ اللَّهُ إيَّاهُ.**

وهكذا فقد تبيّن لنا جليّاً معنى **فَاقِدَ كُلِّ مَفْقُودٍ** ، وهو أنّ الله مُفْقِدُ كلّ مفقود على نحو السلب المطلق ؛ في مقابل **واجِدُ كُلِّ مَوْجودٍ**.

ولقد اعتقد مؤلّف كتاب «الأخبار الدخيلة» المحترم أنّ معنى الغيبة يطابق مادّة فقدان ، وبما أنّ غيبة الشيء عن الله لا معنى لها ، ولذا

فلا يمكن اعتبار الله فاقِد والحال أنّ هذا الاعتقاد خاطئ ، وتعني كلمة فقدان الإعدام وليس الغيبة وعدم المصاحبة .

والطريف هنا أنّه لو كان ابن عيّاش واضعاً لهذا الدعاء المرويّ ، وهو العالم بفنون الشعر والأدب والمنشد للشعر الجزيل والفصيح والضليع المتعمّق في الأدب بشهادة النجاشيّ السابقة فكيف يُتصوّر جهله معنى **فَاقِد** فيشوّه دعاءً عالي المضامين كهذا بخطأ أدبيّ كهذا ؟!

وأمّا **الإشكال الخامس** الذي قال فيه إنّ **وَالبُهْمِ الصَّافِّينَ** لا تحتوي على معنى مناسب . إلّا اعتبارنا كلمة **بُهْم** جمعاً لكلمة **بُهْمة** ؛ التي تعني الفارس الذي يُستبهم مأتاه على أقرانه . وإنّ ذلك كناية عن الملائكة التي تعين المجاهدين وتدعمهم في المعركة .

فجوابنا على ذلك أنّ : **البُهْم** جمع **أُبْهَم** ، وهو الأصمت والأعجم ؛ ومثله الحُمر والصُّفر والسود وهي جمع أحمر وأصفر وأسود .

ولأنّ العالم العلويّ ، أي عالم الملكوت ، هو عالم الهدوء والسكون والسكوت ، خلافاً لعالم الطبع الذي هو عالم الحركة والكلام والضجيج والضوضاء ؛ فقد عُبّر عن المأمورين الصافّين والمصطفّين لأداء مهامّ الله وتنفيذها بـ البُهْم ، والذي يدلّ على سكوتهم وهدوئهم .

وأمّا **الإشكال السادس** وهو اعتباره جملة **وَأَصْلِحْ لَنَا خَبِيئَةَ أَسْرَارِنَا** ناقصة وغير كاملة ، وأنّ ذلك إنّما يقال في إصلاح الأُمور الفاسدة ؛ وأمّا الأسرار المخفيّة نفسها فلا معنى للقول (في الدعاء) : اللهمّ أصلحها ! إذا لم تكن مقيّدة بالفساد .

فنقول في ذلك : إنّ أيّ شيء قابل للفساد ، يتطلّب الدعاء له بالصلاح والإصلاح له ، وإن لم يكن فاسداً بالفعل ؛ لأنّ طروء الفساد عليه ونفوذه إليه ممكن ، ثمّ دُعي بعد ذلك بعدم جعل هذه الأسرار الخبيئة عرضة للفساد

وأقرنها بالصلاح دوماً ! ويمكن العثور على نظائر هذا الدعاء والطلب في كثير من الأدعية والمحاورات العرفيّة والإنشاءات .

وأمّا **الإشكال السابع** الذي قال فيه أنّ : جملة **وَبَارِكْ لَنَا فِي شَهْرِنَا هَذَا المُرَجَّبِ المُكَرَّمِ وَمَا بَعْدَهُ مِنْ أَشْهُرِ الحُرُمِ** غير صحيحة ؛ لأنّ شهر رجب هو شهر حرام والشهر الذي يليه ليس حراماً .

فجوابنا هو : أنّ العلّة في عدم التصريح بحرمة شهر رجب هي البيان والدعاء والطلب نفسه في شهر رجب ، حيث يقول : وبارك لنا في شهرنا المرجّب والأشهر التي بعده والمشتركة معه في الحرمة ؛ ومعلوم أنّ المراد من البَعديّة هنا هو البَعديّة الإضافيّة لا الحقيقيّة ، وكم له من نظير . ومعلوم أنّ الأشهر الحُرُم ذي القعدة وذي الحجّة ومحرم هي تالية لشهر رجب .

باعتقاد الحقير : أنّ مثل هذه الإشكالات الواهية لم تكن مُبهمةً لدى المؤلّف المحترم لدرجة يصعب فيها الجواب عليها ؛ لكن بما أنّ جملة : **لَا فَرْقَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ عِبَادُكَ وَخَلْقُكَ** ،كانت ثقيلة جدّاً وغير قابلة للهضم ،كما صرّح بذلك هو في نهاية كلامه ؛ فإنّ هذه الإشكالات إنّما طُرحت لتضخيم نقائص الدعاء وإظهارها بمظهر مبالغ فيه . ولكن وللّه الحمد والمنّة فقد تبيّن واتّضح أنّ هذه الجملة تعبّر عن عين التوحيد والمعرفة .

فهرس التأليفات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقوم مؤسّسة ترجمة ونشر

(دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة)

من تأليفات

العلامة آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ

بنشر وترجمة كتب سماحته وهي كالآتي :

دورة المعارف :

معرفة الله (١) (الله شناسى)	ثلاثة أجزاء
معرفة الإمام (٢) (امام شناسى)	ثمانية عشر جزء
معرفة المعاد (٣) (معاد شناسى)	عشرة أجزاء

دورة العلوم :

الأخلاق و الحكمة و العرفان (٤)

١ ـ رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم

(رسالۀ سير و سلوک منسوب به بحر العلوم)

٢ ـ **رسالة لبّ اللباب** في سير وسلوك أُولي الألباب
(رسالة لُبّ اللباب در سير و سلوك أُولى الألباب)
٣ ـ **التوحيد العلميّ والعينيّ** (توحيد علمى و عينى)
٤ ـ **الشمس الساطعة** (مهر تابان)
٥ ـ **الروح المجرّد** (روح مجرد)

الأبحاث التفسيريّة (٥)

١ ـ **رسالةٌ بَديعةٌ** في تفسير آية «ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ»
٢ ـ **رسالة جديدة** في بناء الإسلام على الشهور القمريّة (رسالهٔ نوين)

الأبحاث العلميّة والفقهيّة (٦)

١ ـ **رسالة حول مسألة رؤية الهلال**
٢ ـ **وظيفة الفرد المسلم في إحياء حكومة الإسلام**
(وظيفهٔ فرد مسلمان در احياى حكومت اسلام)
٣ ـ **ولاية الفقيه في حكومة الإسلام** أربعة أجزاء
(ولايت فقيه در حكومت اسلام)
٤ ـ **نور ملكوت القرآن** (نور ملكوت قرآن) أربعة أجزاء
٥ ـ **نظرةٌ على مقالة بسط وقبض نظريّة الشريعة للدكتور عبدالكريم سروش**
(نگرشى بر مقالهٔ بسط و قبض تئوريک شريعت دكتر عبدالكريم سروش)
٦ ـ **الرسالة النكاحيّة : تحديد النسل ضربة قاصمة لكيان المسلمين** (وقد طبع الكتاب في طبعته الأُولى بهذا العنوان : «الحدّ من عدد السكّان ضربة قاصمة لكيان المسلمين»)
(رسالهٔ نكاحيّة : كاهش جمعيّت ، ضربه‌اى سهمگين بر پيكر مسلمين)
٧ ـ **رسالة مسوّدة القانون الأساسيّ** (نامهٔ پيش نويس قانون أساسى)

الأبحاث التأريخيّة (٧)

١ ـ لَمَعات الحُسين عليه السلام

٢ ـ الهديّة الغديريّة : رسالتان قاتمة ومشرقة

(هديّهٔ غديريّه : دو نامهٔ سياه و سپيد)

هذه هي مجموعة من الكتب التي أُلّفت من قِبل المؤلّف قدّس سرّه ، والتي بادرت « مؤسّسة ترجمة ونشر دورة العلوم والمعارف الإسلاميّة » إلى ترجمتها وتقديمها تدريجيّاً إلى القرّاء المحترمين ، وهناك مجموعة أُخرى للمؤلّف لم تنشر بعد .

وللحصول على نظرة إجماليّة لهذه المؤلّفات ، يمكنكم الرجوع إلى نهاية الجزء الأوّل من هذا الكتاب .